

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

قسم: الكتاب والسنة

شعبة: التفسير وعلوم القرآن

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلية أصول الدين

الرقم التسلسلي:

رقم التسجيل:

علاقة التجديد في علم التفسير بعلم المناسبات القرآنية

– رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن –

تحت إشراف:

الأستاذ الدكتور: رابح دوب

من إعداد الطالب:

رياض عميراوي

السادة أعضاء لجنة المناقشة:

اسم الأستاذ	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	أمام اللجنة
رابح دوب	أستاذ	الأمير عبد القادر	مقررا
رمضاني يخلف	أستاذ	الأمير عبد القادر	رئيسا
نادية وزناجي	محاضر أ	الحاج لخضر _ باتنة	عضوا
شبايكي الجمعي	محاضر أ	الأمير عبد القادر	عضوا
صالح عسكر	محاضر أ	الحاج لخضر _ باتنة	عضوا
منصور كافي	أستاذ	الحاج لخضر _ باتنة	عضوا

السنة الجامعية: (2015/2014) م / (1435/1434) هـ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

كان القرآن ولا يزال مآدبة المؤمنين في الأرض ينهلون منه الأحكام والشرائع، ويستنبطون منه الحكم والمنافع، ويستلهمون منه الفوائد والبدايع، ويرجعون إليه في جميع أمور حياتهم الدينية والدنيوية، فأخذوا من هذا المعين الصافي معانٍ وموضوعات طبقوها وعملوا بمقتضاها، فعاشوا سعداء وماتوا شهداء .

وخلف من بعدهم خلف اختلفت أحوالهم، وتغيرت ظروف معاشهم، وتبدلت القوانين الاجتماعية، واستحدثت أنظمة جديدة، وظهرت مناهج واتجاهات حديثة، بالإضافة إلى بُعد هذه العصور عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتغلب فيها قوم آخرون.

وفي ظل هذه المتغيرات والتطورات بات حتما علينا إعادة النظر في كثير من هذه المناهج والطرق وعرضها على المعين الأول، والمنبع الرباني، لتقييمها وتقويمها مستلهمين ومستنبطين ما نحتاج إليه في حياتنا حسب ما تمليه علينا هذه الاجتهادات، وهذه المستجدات، ذلك أن لكل عصر ولكل أمة الحق في فهم كتاب الله تعالى بما فتح الله عليها من علم وعقل، وبما لاح لها في الآفاق من أدوات وطرق لفهم هذا الدين، وما أحوجنا في هذا العصر إلى حل الأزمت والمشكلات التي نعاني منها اليوم والتي لا تزال عالقة تبحث عن حلول في ضوء هذه المتغيرات، ووضع قوانين وأنظمة تساعد وتعين الأمة الإسلامية خاصة للنهوض من جديد، نقلب صفحات التاريخ وننقب ونفتش ونعيد النظر في تفسير القرآن الكريم بطرق ومناهج حديثة تساعدنا على فهم ما استشكل وما هو مستشكل.

وقد أردت بدوري أن أدلو بدلوي في هذا المسعى قاصدا البحث في ما استجد في التفسير، مفتشا عن بعض ما توصل إليه الباحثون من مناهج جديدة تخدم كتاب الله تعالى، متتبعا تطور حركة التفسير وما تجدد عند المفسرين سواء في ما تعلق بالجوانب النظرية أم التطبيقية لعلم التفسير، باحثا عن علاقة التفسير ببعض علوم القرآن خاصة علم المناسبات القرآنية وأثر ذلك في العملية التفسيرية.

عنوان البحث:

لقد حاولت في هذا البحث الجمع بين ما استجد في علم التفسير بشكل عام من جهة وما له علاقة بعلم المناسبات بشكل خاص من جهة أخرى؛ سواء ما تعلق بالجانب النظري لعلم التفسير أم بالجانب التطبيقي، ولهذا سمت الرسالة بالعنوان الآتي: "علاقة التجديد في علم التفسير بعلم المناسبات القرآنية" إذ يتضح من خلال هذا العنوان أن البحث يتناول أمرين اثنين مع توضيح العلاقة بينهما، ولكل أمر

باب، فالأمر الأول جعلته تحت باب: التجديد في علم التفسير، والأمر الثاني تحت باب علم المناسبات القرآنية، والباب الأخير هو ربط هذين البابين تحت اسم علاقة التجديد بعلم المناسبات، وأقصد به أثر علم التناسب في العملية التفسيرية.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

لا يخفى على أحد من الناس أن التفسير هو روح القرآن، وهذا ما يميزه عن باقي العلوم الأخرى، فهو العمدة في تجلية معانيه واستنباط حكمه وأحكامه، حتى يفهمها الناس فيعملون بمقتضاها، وهو المقصد من تنزيل القرآن الكريم، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحكم بين الناس بما أراه من حكمة وفهم فقال الله تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾، سورة النساء، آية: 105، ولكل جيل الحق في فهم القرآن الكريم بوسائله وأدواته ومناهجه، ذلك أن التفسير جهد إنساني يختلف من شخص لآخر، لكن ضمن ضوابط، وتحت قواعد تعصم الفهم من التحريف والتزييف، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن كثيرا ممن يدعي التجديد وينادي بالحدثة والعصرنة في الفكر والعلم، قد غلا في هذا الاتجاه حتى رفض كل ما هو تقليدي، واستهوته الشياطين ليضرب كل موروث عن الأجداد عرض الحائط، فكان كل هذا الغلو وهذا الحماس عثرة وعقبة في وجه قبول هذا المنهج، الذي يقلب كيان التفسير ويحدث بلبله بل وزعزعة وريبة في قلوب الناس، إذا ما أُطلق له العنان ولم يقيد بقيود وضوابط وقواعد، كما ذكرنا سالفًا، وعليه فإن أهمية الموضوع قد باتت واضحة، نلخصها في عدة عناصر هي:

- 1- دفع خطر المناهج المنحرفة وبعض المدارس التي تكرر جهدها لضرب كتاب الله بعضه ببعض.
- 2- تجلية مواضع التجديد في التفسير، ورفع الغموض عما أشكل من مسائل كانت عالقة، ورفع موهم التناقض بين النصوص.
- 3- الكشف عن معانٍ جديدة للقرآن الكريم تقتضيها اللغة، وإبراز وجه الترابط بينها وبين ما استجدَّ من علوم شرعية، وعلوم كونية.
- 4- الكشف عن علاقة التجديد في التفسير وعلم المناسبات، لا سيما في العصر الحديث.
- 5- إبراز دور المدارس التجديدية في خدمة التفسير، وفضل المناهج الجديدة في ذلك.
- 6- بيان خصائص النص القرآني وصلاحيته لكل زمان ومكان.

7- إرساء ضوابط وقواعد جديدة تتحكم في العملية التفسيرية، وتحول دون وقوع المفسر في الخطأ والزلل.

8- وصف الظروف التي تحيط بعلم التفسير وحاجة الناس له، وإعطاء بديل يمكن أن يساعد على تفسير القرآن بطرق سهلة ميسورة.

9- أهمية علم المناسبات في تحليل المعنى، وبيان ما استشكل من مواضيع.

وكل هذا مساهمة منا في دفع عجلة التجديد إلى الأمام، وإضافة شيء جديد للمكتبة الإسلامية، ومحاولة التقاط صورة من واقع التفسير عند المسلمين، والمضي قدما في فهم كتاب الله تعالى، وإيجاد حلول للأزمات التي يعيشها المجتمع.

إشكالية البحث:

لقد عارض بعض العلماء علم المناسبات القرآنية بشدة ولم يعدُّوه علما قائما بذاته، بل اعتبروه تعسفا ولما لأعناق الآيات في إظهار مناسبات بينها، مثل الشوكاني، ومنهم من قبله بشروط، مثل العز بن عبد السلام، فكانت قلة اهتمام العلماء به وإظهار المناسبات بين الآيات والسور دليلا على عدم جدوى البحث فيه، ولو كان ذا قيمة لسبق إليه الأولون، بل إن بعض الناس قد عارض التجديد في التفسير جملة وتفصيلا، باعتبار أن النبي محمد ﷺ قد فسر أو بين القرآن كله، وكل ما عدا ذلك فهو قول بالرأي والاجتهاد وهو قول على الله بالظن وبغير علم؛ ولا تفسير إلا تفسير رسول الله ﷺ، الذي فسر القرآن كاملا، ومن قال خلاف ذلك فقد اتهم الرسول ﷺ بالتقصير، وهذا غلو واضح، وتهجم ساذج، وهو الكلام بغير علم ذاته.

وغير هؤلاء مثل المحددين على رأسهم صاحب المنار ومحمد عبده وغيرهم قد دَعَوْا للتجديد في التفسير؛ سواء في مناهجه، أم في استنباط معانٍ جديدة للقرآن دون المساس بالمناهج السابقة، ودون الإخلال بسنة التوالد المعرفي والبناء العلمي، وقد قيل أن الجديد هو قتل القديم فهما، ولا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله يبعث على كل رأس مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها" فكلمة "تجديد" هي كلمة شرعية لا شك في ذلك، ولكن الإشكال في فهم هذه الكلمة، وإعطائها المدلول الحقيقي الذي تعنيه، فما معنى هذه الكلمة؟ وما مجالها في الدين وعلوم الشريعة؟ هل يكون التجديد في المناهج؟ أم في الأصول؟ أم في الفروع؟ أم في شيء آخر؟ ويمكن أن نصوغ سؤالا كالاتي: ما هو التجديد في التفسير؟ وكيف يكون؟ وأين يكون؟

فإن كان التجديد في التفسير - وهو الذي ندندن حوله في هذا البحث - مرتبطا بتلك المرونة التي تتميز بها النصوص الشرعية والمتعلقة أساسا بالاجتهاد والاستنباط، فعلى أي أساس أرسيت قواعد هذا الاجتهاد خاصة في التفسير؟ وإذا كان لهذه الكلمة وجود من خلال تتبع تطور التفسير عبر العصور، فأين نجد ذلك في مختلف التفاسير التي بين أيدينا؟ وإذا أضفنا إلى هذه القضية إشكالا آخر هو عدم اتفاق الناس في قضية التجديد في التفسير، خاصة التفسير المبني على العقل والرأي، حيث قالت طائفة منهم نكتفي بالمأثور من التفسير، ولا حاجة لنا لما دونه، كما أسلفنا؛ لأن رسول الله قد فسر القرآن كله، ومن قال غير ذلك فقد اتهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتقصير، وحاشاه، فإن جل ما في الأمر أن النبي فسر من القرآن ما كان مستشكلا، وما احتيج إليه في ذلك الوقت، وترك البعض الآخر للاجتهاد، وهذا ما يفسر اختلاف المفسرين في كثير من المواضع، وما يلاحظ في تفاسير التابعين من اجتهاد في شرح بعض الآيات من القرآن، ولو كان الأمر كما قالوا لما اختلفت التفاسير عبر العصور.

وكما اختلف الناس في هذا الأمر فقد اختلفوا أيضا في مسألة التناسب في القرآن الكريم، كما أسلفنا، وربط معاني القرآن بما تقتضيه المناسبة، وما هو إلا لِي لأعناق الآي حتى تتفق معها، وهذا طبعا مفند غير صحيح؛ بل إن الكثير من الناس قد اطمأن إلى أن قضية التناسب والسياق القرآني وكل ما يتعلق بترتيب الآيات في السور وما يتعلق بأنواع المناسبات، له أثر جلي في فهم كتاب الله تعالى، أو إضافة فهوم ومعاني جديدة لم تكن معروفة أو كانت تفسر بتفسير ما.

وقيل لولا اكتشاف علم المناسبات وتطوره لما عرف علم التفسير تطورا ولا تجديدا لا في أصوله ولا في العملية التفسيرية، فهل هذا الكلام علمي وصحيح؟

وهل هناك علاقة تربط علم المناسبات بالتفسير؟ وما طبيعة هذه العلاقة؟ هل هناك علاقة تتناسب طرديا بين تطور حركة التفسير وتطور علم المناسبات؟ إلى أي مدى أثر علم المناسبات القرآنية في التفسير سواء في شقه النظري أو في العملية التفسيرية؟ هل لتطور هذا العلم - المناسبات - علاقة بتطور التفسير؟ هل لعب هذا العلم دورا عند اكتشافه والتوسع فيه في التفسير عبر قرون؟ هل لعلم المناسبات علاقة بأصول التفسير؟ كيف؟ هل أدى علم المناسبة إلى تجديد في أصول التفسير؟ هل لعلم المناسبة أثر في تجديد مادة التفسير؟

-هل لعلم المناسبات صلة بمناهج التفسير (خاصة منهج التفسير الموضوعي)؟

-هل لعلم المناسبة صلة بقواعد التفسير؟

-هل لعلم المناسبة صلة بأدوات التفسير (خاصة في العلوم التي تشترط للمفسر)؟

وبناء على كل ما سبق تبرز لنا إشكالية هذا البحث، ويمكن أن نطرح هنا سؤالاً جوهرياً، وهو هل لعلم المناسبات القرآنية وتطوره تأثير وعلاقة بما استجد في علم التفسير عبر العصور أم لا؟ وماهي مظاهر هذا التأثير في المؤلفات التي هي بين أيدينا اليوم؟ والآن نبين أهداف هذا البحث وأغراضه.

أهداف البحث وأغراضه:

يهدف البحث إلى أمور محدودة أذكرها في نقاط باختصار:

1- تجلية مواضع التجديد في التفسير ومجالاته، مستقصياً في ذلك بعض تفاسير السابقين والمعاصرين، واستخراج مواضع الجدة فيها.

2- توضيح العلاقة بين علم المناسبة وتطور علم التفسير، ومدى تأثير الأول في هذا الأخير.

3- ضرورة وحاجة الناس للتجديد في التفسير، وبيان أهم التطورات التي مر بها.

4- أثر الواقع الثقافي والمدارس التفسيرية في تفسير القرآن الكريم، عبر المراحل التاريخية، والتأكيد على ضرورة التقييد بشروط وقواعد التفسير الأساسية، واختيار المنهج الأصح والملائم للتجديد في التفسير.

5- التصدي لبعض الغلاة أصحاب المناهج المنحرفة والمدارس التي تدعي العصرية، والتي تعمل تحت مظلة وشعار "ضرورة القراءة المعاصرة للنصوص الدينية" والهدف أمر آخر.

المنهج المتبع:

لقد حاولت قدر الإمكان تقصي بعض ما استجد في علم التفسير وفي علم المناسبات القرآنية من خلال تطور حركة التفسير، واستقراء بعض التفاسير التي عنيت بإبراز علم التناسب عند تناولها تفسير آيات وسور القرآن الكريم، مع جمع ما استطعت من أمثلة نموذجية وعرض بعض الاجتهادات الشخصية؛ حتى ندلل على ما ذهبنا إليه من تأثير علم المناسبات في التفسير.

وعليه فإن المنهج المتبع هو منهج استقصائي في عمومته، واستقرائي في بعض جوانبه.

منهجية البحث وأهم المصادر:

من خلال عنوان البحث يتضح لنا أن له شقين أساسيين، شقا يتعلق بمفهوم التجديد في التفسير ومناهجه ومجالاته، وشقا آخر يتناول علم المناسبات القرآنية وعلاقته بذلك، وهما علمان مستقلان متعلقان بكتاب الله تعالى، وكان من الممكن أن يكونا موضوعين مستقلين، لولا أني قصدت الربط بينها، وأردت أن أوضح صلة علم المناسبات بالتجديد في التفسير، وأثرها فيه، ولكوني تناولت التجديد في التفسير في الشق الأول، والمتعلق أساسا بالتفسير الحديثة، والتي أردت من خلالها وضع اليد على مواضع الجدة فيها، فكان لابد أن أختار لذلك المنهج الاستقرائي، لأكشف من خلاله عن أماكن التجديد.

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب، تحت كل باب فصول ومباحث، وربما قسمت المباحث إلى مطالب وفروع... وهكذا، فجعلت الباب الأول تحت عنوان: "التجديد في أصول التفسير من خلال علم المناسبات" وتحتته ثلاثة فصول، فالفصل الأول يدور حول مفهوم التجديد ومجالاته، وقواعده وضوابطه ومتعلقات ذلك، وجاء في مبحثين، وبعض المطالب .

والفصل الثاني تحت عنوان: "التجديد في أصول التفسير، ضوابطه، مراحل، وعلاقته بالاجتهاد ومصادره"، وجاء في ثلاثة مباحث، والفصل الثالث تحت عنوان: "اتجاهات التفسير التي نحتاج إليها لبناء نظرة جديدة"، وجاء تحت أربعة مباحث.

ثم عنونت الباب الثاني بـ: "مفهوم الترتيب المصحفي وعلم المناسبات، أهميته، ومصادره، وأقسامه، ورد بعض الشبه الواردة فيه"، فبعد أن قدمت للباب كتيبته تحت ثلاثة فصول، مبحثين في الفصل الذي عنوانه: "تعريفات اصطلاحية عامة"، وفيه تعريف علم المناسبات وتحديد مصطلحات معينة يحتاج البحث لاستخدامها كمفاتيح؛ فذكرت فيها علاقة التناسب القرآني بالتفسير، حيث بينت أهمية علم المناسبات وتطوره وعلاقته بالتجديد في التفسير، وأهم التفاسير التي عنيت بذلك، مع ذكر نماذج لذلك، وتحديث بعدها عن موقف ومكانة مختلف التفاسير واتجاهاتها من التجديد، ثم ذكرت أهم المراجع في كل مرحلة من مراحل تطور علم التفسير.

وجعلت الفصل الثاني في ثلاثة مباحث في كل مبحث ستة مطالب حول أقسام المناسبات وأنواعها في القرآن الكريم مع أهمية وفائدة ومكانة علم المناسبات وأهم مصادره، وأقسامه، وذكر شيوخ هذا العلم ومصادره، مع الحديث عن ترتيب القرآن وأثر ذلك في التفسير.

وعنونت الفصل الثالث بـ "الترتيب المصحفي ورد الشبه الواردة في ذلك" وفيه أربعة مباحث.

وأما الباب الأخير فكان حول أثر علم المناسبات في التفسير عنوانه: "التجديد في العملية التفسيرية بتطبيق علم المناسبات القرآنية" في ثلاثة فصول كبيرة، في الفصل الأول والثالث: مبحثين كبيرين، وفي الفصل الثاني مباحث خمس، وقد اتبعت لغة بسيطة علمية خالية من التعقيد، لكي أفصح عن المعلومة مباشرة دون إتعاب القارئ، كما كتبت بأسلوب عربي مباشر دون تعقيدات البلاغة والبيان إلا أين دعت الضرورة، وانتهجت في البحث المنهج الاستقرائي لكوني أتبع التفاسير القديمة والحديثة، لأنقب وأفتش عن بغيتي فيها لأخرج بعد ذلك بالمواضع التي تتسم بالتجديد في معاني آياتها، مستعينا ببعض ما أُلّف في ذلك.

على أنني إذا أردت اقتباس أضعه بين شولتين، وتهميشه بادئا باسم المؤلف ثم الكتاب ثم معلومات الطبع وسنته، مشيرا طبعاً إلى الجزء والصفحة، وأضع الآيات بين حاضنتين، وأكتب اسم السورة والآية في المتن، وأحياناً في الهامش، وأترجم للأعلام المغمورين والأماكن والبلدان في الهامش مع الإشارة إلى المصدر، وهي طرق البحث العلمي التي دأبنا عليها.

ملاحظات هامة

- أقصد بالمصطلحات التالية المعنى نفسه: (الجانب التطبيقي للتفسير- العملية التفسيرية- مادة التفسير).

- أقصد بالمصطلحات التالية المعنى نفسه: (الجانب النظري للتفسير- أصول التفسير)

كما جعلت الرموز التالية:

﴿﴾ للآيات القرآنية.

«» للاقتباس من المصادر والمراجع.

() للأحاديث النبوية.

□ للإضافة والتصريف.

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها بعد كتاب الله تعالى، وكانت لي عوناً على جمع المادة العلمية؛ معاجم ومقاييس اللغة العربية وكتب في التفسير وأصوله، وأخرى في علوم القرآن عامة وفي علم التناسبات خاصة، وما استجد في علم التفسير وهناك مراجع تاريخية وحديثة.... ومنها مصادر أصيلة وأخرى فرعية نذكر منها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر:

معجم مقاييس اللغة لابن فارس ولسان العرب لابن منظور الافريقي، والتفسير والمفسرون لحسين الذهبي، والبرهان في علوم القرآن للزركشي، والاتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، وتناسق الدرر في تناسب السور، ودراسات في التفسير الموضوعي للألمعي وآخر لمحي الدين بلتاجي، والتجديد في التفسير مادة ومنهجاً للدكتور جمال أبو حسان، والتجديد في التفسير لمحمد عويس، والتطور التاريخي لحركة التفسير لابن جماعة، أما التفاسير فمتنوعة وكثيرة منها تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، والظلال لسيد قطب، وتفسير المنار لرشيد رضا، وغيرهم .

الدراسات السابقة:

بعد اطلاعي على هذا المحور ونظرت في هذا الموضوع وقرأت فيه بعض الدراسات، لم أجده أخذ حظاً وافراً من الدراسة، فهي حسب بحثي المتواضع أبحاثاً بسيطة لا تكاد تكون جامعة مانعة، ولكنني لم أقف على موضوع أو بحث بهذا العنوان، ولم أجده كاتباً في حدود علمي ألف في علاقة المناسبة بالتجديد في علم التفسير، إلا بعض المقالات والأبحاث التي تركز على أهمية علم المناسبة في التفسير بشكل عام، ولم تتطرق إلى ما ذهبت إليه بشكل مستفيض في هذا البحث، فبعد البحث والتقصي في المكتبات الجامعية والدوريات وكذا على مستوى الشبكة العنكبوتية، توصلت لأضع يدي على بعض ما ألف في هذا الموضوع وإليكم تفصيل ذلك:

1- التجديد في التفسير مادة ومنهجاً، الدكتور: جمال أبو حسان أستاذ مساعد -كلية الشريعة- جامعة الزرقاء الأهلية، الأردن، وهو بحث بسيط فيه خمسة مباحث حيث كان المبحث الأول في معنى التجديد والتفسير، والمبحث الثاني في تجديد التفسير، والثالث تحت عنوان نظرة إلى التفسير بين الماضي والحاضر، والمبحث الرابع تحت عنوان: ما هو التجديد المطلوب، والأخير تحت عنوان: نماذج لآراء جديدة في التفسير.

وقد أفدت منه بعض الجوانب المتعلقة بالتجديد، وموقف بعض العلماء منه، كما استفدت منه في معرفة بعض الاسس في هذا الباب، مع وضع اليد على مفهوم التجديد المنشود.

2- اتجاهات التجديد في القرآن الكريم، محمد إبراهيم شريف، دار السلام للنشر والتوزيع، 2008، جمهورية مصر العربية، حيث يتكلم البحث عن الاتجاهات والمناهج الجديدة في تفسير القرآن.

وهذا البحث أيضاً أفادني في معرفة الاتجاهات المعاصرة والقديمة في التفسير، والتطلع الى وضع آليات جديدة وأسس متينة لعدم الوقوع في شباك بعض المناهج المنحرفة... .

3- التجديد في منهجية التفسير بين الزمخشري وسيد قطب، (دراسة تحليلية تطبيقية مقارنة)، د. محمد رفعت زنجير.

حيث وضحت هذه الدراسة المقارنة بين منهجين مختلفين، أو بين عصرين متباعدين، مدى تطور المناهج بين أمس واليوم، وسبب هذا التطور، وربما وضع اليد على ما استجد على الأقل في الجانب اللغوي باعتبار أن التفسيرين في هذا الاتجاه، فتفسير الكشاف غلب عليه الاتجاه اللغوي، وتفسير سيد غلب عليه الاتجاه الأدبي.

4- وجوه تجديد مناهج التفسير القرآني، أحميدة النيفر. http://science-islam.net/article.php3?id_article=813&lang=ar وهذه مقالة على الانترنت، يتحدث صاحبها باقتضاب واختصار شديد عن وجوه تجديد المناهج في تفسير القرآن.

5- مقال في علاقة المفسر بالنص... وجوه تجديد مناهج التفسير القرآني، أحميدة النيفر،

<http://science->

[islam.net/article.php3?id_article=81](http://science-islam.net/article.php3?id_article=81)

6- مقال التجديد في التفسير حاجة ضرورية، محمد البيوسفي، 2008/07/12م،

<http://www.alqlm.com/index.cfm?method=home.con&conten>

.tID=427

7- مناهج التجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، أمين الخولي، 1381هـ، وقد ركز

الباحث على جانب اللغة والأدب وكل ما يتعلق بالقرآنية والمدلولات اللغوية.

8- إتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة

الأولى 1407 هـ، 1986م.

إذ لا يخفى على أحد من المختصين فضل هذا الكتاب في التعريف بالمنهج والاتجاه، وكذا بيان حركة

التفسير، والحديث عن أهم المدارس التفسيرية الحديثة، وأهم اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر.

9- تطور تفسير القرآن قراءة جديدة، الدكتور محسن عبد الحميد، ضمن منشورات وزارة التعليم

العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد سلسلة بيت الحكمة رقم 5.

10- الدرس البلاغي عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة الأمير عبد

القادر، قسنطينة، الجزائر.

11- المناسبات وأثرها على تفسير القرآن الكريم، عبد الله الخطيب، مصطفى مسلم، أستاذان مشارك في التفسير وعلومه، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الشرعية والانسانية، مجلد2، عدد2، ربيع الثاني، 2614هـ/ يونيو 2005م، وهي أبحاث مختصرة في مجالات علمية. وهو بحث اقتصر صاحبه على تعريف علم المناسبات وفائدتها مع الإشارة إلى أنواعها مع إعطاء مثال أو اثنين من القرآن الكريم.

12- العلاقة بين التفسير والتجدد في الفكر الإسلامي، د.محمد فاروق النبهان، <http://www.hqw7.com/Default.aspx?pages=abhas&inc=textite.m&page=a8&id=37>

13- إشكالية التجديد بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، أسعيد مديون، <http://www.alasr.ws/index.cfm?method=home.con&contentID.=10263>

14- المناسبات وأثرها في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من خلال سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران (جمعا ودراسة ونقدا). وهي رسالة ماجستير للطالب الباحث أحمد محمد القاسم، تحت إشراف الدكتور: إسماعيل بن عبد الستار اليميني، 1429هـ. وأورد الباحث في هذا البحث ثلاثة فصول، مهد لهم بترجمة للشيخ الطاهر بن عاشور وموقفه من علم المناسبات، وجعل تحت كل فصل دراسة سورة واحدة من القرآن، ففي الفصل الأول سورة الفاتحة، وفي الثاني سورة البقرة وفي الثالث سورة آل عمران.

هذا ما استطعت العثور عليه في مختلف المكتبات، وما ألفت حول الموضوع.

أما البحث الذي بين أيدينا فيتحدث عن العلاقة بين التجديد في التفسير وتطوره من خلال تطور علم المناسبات، ويتوسع إلى الحديث عن التجديد في أصول التفسير وفي العملية التفسيرية أيضا، وفي تأثير هذا العلم على المعنى المتجدد للقرآن الكريم، من خلال استقراء بعض التفاسير القديمة والحديثة، ودور مختلف المدارس والمناهج.

صعوبات البحث:

في الحقيقة صادفتني بعض الصعوبات في جمع المادة العلمية من حيث جمع النماذج والأمثلة، إذ أخذتها من أماكن متفرقة ومن تفاسير حديثة وقديمة، إضافة إلى اجتهادات خاصة مني، ولكن الصعوبة الكبيرة في الخوض في تفاصيل بعض المباحث المتعلقة بقضايا جوهرية في أصول التفسير ومناهجه وكذا تحرير بعض المصطلحات التي لم تُحرر بعد ولم تتضح معالمها تماماً، وكالخلافاً في قبول بعض المناهج في التفسير وعدمه، والاختلاف في خطوات بعض المناهج والاتجاهات في التفسير، وغير ذلك مما هو محط خلاف بين الباحثين والمفسرين.

وقد سبب هذا التباين بين العلماء والباحثين صعوبة للترجيح بين رأي ورأي آخر خاصة إذا تعلق كل بوجهة نظره مقدماً في ذلك أدلة على ما ذهب إليه، ولكن رغم ذلك فقد حاولت جاهداً الوقوف على مسافة واحدة من هذه الآراء، محاولاً التوفيق بينها ومرجحاً أحياناً بعضها. والله أسأل التوفيق والعصمة من الزلل.

وقد أنهيت هذا البحث في أربع سنوات أحسبها عند الله، أبذل فيها جهد البحث والتفتيش في الكتب والتفاسير، أخذت مني السهر الليلي طوال بعض لذة النوم، أحياناً أنقطع عن العمل ثم أعود إليه مستأنفاً مما يسبب بعض التعب والضنى، ومع ذلك فإنني لا أدعي أنني وفيت تماماً ما أردت توضيحه في هذا البحث، أو أنني أجبت عن كل تساؤل، بل يبقى العمل مفتوحاً لمن يأتي بعدي من الباحثين، وهذا ما يعتري كل جهد إنساني، فالله أسأل التوفيق والقبول .

ملاحظة:

وككل عمل أو نشاط إنساني يشوبه النقص ويعتريه الخطأ، ألفت انتباه الأساتذة الأفاضل ممثلي لجنة المناقشة أن هناك بعض الخلل في بعض الصفحات؛ حيث قد يفلت قوس أو شولتين عن مكانهما لعدم ارتباطهما بطرف الحديث أو الآية، وقد تتكرر بعض الأقواس في آيات معدودات، وقد تنقلب بعض الأحرف فتتباعد أو تصير إلى رموز وإشارات غير مفهومة أو أرقام غليظة، وهذا بسبب خطأ مطبعي خفيف، وإني ألتزم بتصحيحها عند تقديم النسخ للمطبعة بعد المناقشة، فأرجو أن تأخذوا هذه الملاحظة بعين الاعتبار، وأستسمحكم أساتذتي الكرام سلفاً.

الباب الأول

التجديد في أصول التفسير من خلال
علم المناسبات

تمهيد:

إن لكل أمة الحق في فهم كتاب الله تعالى بما توفر لها واستجد من أدوات ومناهج فرضتها الحضارة، وأملتها الوقائع الجديدة، شريطة أن تخضع هذه الأدوات والمستجدات لضوابط وقواعد اتفق عليها أولو الاختصاص من المفسرين والباحثين في كتاب الله تعالى.

ولا شك أن كلمة التجديد كلمة شرعية قد وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها"¹ ولكن في الوقت نفسه قد نجد من يحمل هذا الحديث محملاً آخر يضاهي به المعنى الحقيقي والواضح الذي دأب عليه كثير من الشراح. ولعل الشبهة آتية من جهة ما تحتمله كلمة تجديد في الحديث النبوي من معاني، إذ تحتمل:

1: أن يأتي المجدد بشيء جديد في الدين لم يسبق له مثيل، وهذا غير وارد باعتبار أن حديث عائشة "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"²... هو رد لهذا المعنى.

2: أن يجيي المجدد أمراً من الدين قد بلي، فيلسمه ثوباً قشياً فيخرجه في حلة سيراٍ جديدة حتى يراها الناس فتعجبهم فيتبنونها، كإحياء سنة من الدين، كما جاء في الحديث³ أنه من أحيا سنة فله أجرها وأجر من عمل بها، ولا شك أن أي سنة من سنن الرسول صلى الله عليه وسلم هي سنة حسنة، أو وضع منهج جديد لفهم بعض الأمور في العقيدة أو الفقه أو غيرها، ولهذا نجد بعض الناس يقول علم العقيدة وعلم التاريخ وعلم كذا وكذا... ويعني بها تجديد فهم العقيدة والتاريخ بطرق ومناهج جديدة، فمهما بلغ الإنسان من العلم والفهم فلن يمكنه أن يأتي بعقيدة جديدة أو بتاريخ لم يسجل في زبر الأولين.

¹ - رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود والحاكم والترمذي وسنده صحيح.

² - رواه البخاري ومسلم، ورواه أحمد في المسند تحت رقم: 25451، (حديث مرفوع) حَدَّثَنَا يَزِيدُ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنِ الْقَاسِمِ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ رَدٌّ"، وفي رواية لمسلم: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ".

³ - حديث صحيح ومثله: ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً"، وهكذا حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"، خرجهما مسلم في صحيحه.

وحتى تتضح الأمور أكثر فلا بد أن نبين حقيقة التجديد في الدين ومجالاته لا سيما في التفسير، فإنه من المعلوم أن الوسائل والأساليب تختلف من جيل لآخر في التعامل مع أي نشاط ديني أو دنيوي، في أطر يحددها ديننا الحنيف الذي يصلح بطبيعته لكل زمان ومكان، وذلك للخاصية التي يمتلكها والتي أودعها الله سرا فيه لتبقى كلمة الله هي العليا، وحجة الله على الخلق أجمعين.

ويمكن أن نتصور هذا الدين الفريد الذي يقبل بتغيير الوسائل دون الغايات والأهداف، بأساليب علمها الله الناس في كتابه، كما علمها رسول الله في سنته، بأساليب متنوعة كالترغيب والترهيب والتحفيز والتعزير والحب والبغض وغير ذلك مما له صلة بفطرة الناس.

ولعل ثبات أحد طرفي هذا الدين ومرونة طرفه الآخر ما هو إلا حكمة الله عز وجل في تماشي هذا المشروع الرباني مع ظروف العباد أين ما كانوا وأين ما وجدوا.

وهنا نطرح مسألة المصطلح العلمي وإشكالية تحديد المصطلحات، ودون الخوض في تحديد مفهوم المصطلح، وعلاقته بالبحث العلمي، نقر أن المصطلح في علم التفسير قد شكل عائقا كبيرا ومنعرجا خطيرا يحول دون وضع اليد على آليات وأسس دقيقة تمكن الباحث من تتبع وتطوير وتحديد هذه الأصول، ووضع اتفاق بين أهل التفسير على خطوات العملية التفسيرية، وكذا شروط المفسر وقواعد التفسير.

ولا تجد أحدا يحدثك مثلا عن قواعد التفسير إلا وأخلط بين ما هو من أصول التفسير وما ليس منه، فيشتبه عليك الأمر، فبات حري بنا تحرير وضبط المصطلحات في علم التفسير.

ومن الممكن هنا أن أشير إلى أن أصول التفسير مثلا هو: كل ما يتعلق بعلم التفسير من ناحية تعريفه وأهميته ومراحله وأنواعه، وكذا مناهجه واتجاهاته، وقواعده، وشروطه سواء تعلق بشروط المفسر من ناحية أخلاقه وآدابه أو تعلق بالعلوم التي ينبغي له الإمام بها.

وأما قواعد التفسير فهي جزء من أصوله، فهي تلك القواعد والقضايا الكلية التي ينتهجها المفسر ويطبقها في العملية التفسيرية، مثل قاعدة اعتماد الظهور القرآني، وقاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب، وقاعدة التركيب، وقاعدة القرائن المتصلة والمنفصلة... وغيرها من القواعد التي عدها العلماء بين موسع ومضيق، ثم إن هناك قواعد هي أخص من هذه القواعد العامة في التفسير، والأحرى أن نطلق عليها اسم

الضوابط¹، وهي التي تصلح لاتجاه معين دون آخر وقد يشترك بعضها في أكثر من اتجاه، مثل قولنا ضوابط التفسير اللغوي، وضوابط التفسير العلمي... الخ.

ومثالها في التفسير اللغوي: قاعدة موافقة التفسير للذي له أصل في لغة العرب، وقاعدة وجوب حمل المعنى على الأفصح والأشهر، وقاعدة وجوب مراعاة أصل الوضع في التركيب،.. وغيرها.

ومثالها في التفسير العلمي: قاعدة الاعتماد على الحقائق العلمية الصحيحة، وغيرها.

وإن الناظر في أصول التفسير والمتطلع إلى خبايا هذا العلم يجد صعوبة في فهم بعض مسأله، ولا يجد مسوغاً يسمح بإدخال بعض المسائل في بعض، أو تسميتها بمصطلح واحد؛ رغم أنها لا تصلح أن تكون تحت مسمى واحد، وهذا يرجع - والله أعلم - إلى عدم ضبط بعض المصطلحات التي تدور على ألسنة بعض الكُتَّاب في هذا المجال، خاصة في ما يتعلق بالتعريفات المتعلقة بالقواعد والأصول وغيرها.

ولنوضح المسألة بتحليل أعمق وأشمل:

مما يُعلم أن علم التفسير له شقان أساسيان: نظري، وتطبيقي، فالأول يعرف بأصول التفسير والآخر يعرف بالعملية التفسيرية.

- أصول التفسير: ويشمل كل ما يتعلق بتعريف هذا العلم وأهميته وأقسامه ومناهجه واتجاهاته، وقواعده وضوابطه وشروطه... الخ. وقد أشرنا لهذا سابقاً.

والشق الثاني وهو:

- العملية التفسيرية: ولكل مفسر فيها مشارب ومثارب بحسب ميولاته، وخلفياته، ولكل عملية خطواتها وضوابطها الخاصة، فخطوات وضوابط التفسير العلمي تختلف عن خطوات وضوابط التفسير اللغوي وهكذا...

والذي نقصده بالضبط في هذا الباب هو الحديث عن الشق الأول وتداخل بعض المسائل فيه مثل مصطلح قواعد التفسير وأصول التفسير تحت مسمى واحد، تارة يطلق عليه قواعد التفسير وتارة يطلق عليه أصول التفسير، مع أن كلمة قواعد التفسير تعني القواعد الكلية الخاصة بالتفسير في حد ذاته، لا القواعد المتعلقة بأصول الفقه أو أصول الدين أو قواعد الفقه أو قواعد العلوم الأخرى الخاصة بالمفسر كعلم القراءات والتاريخ وغيرها، فضلاً عن اشتراك المصطلحين في مسمى واحد.

¹ - الضابط يجمع فروعا من باب واحدة بينما القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى.

وللتفصيل أكثر في هذه المسألة عقدت فصلاً للحديث عن إشكالية مصطلحات هذا العلم أحاول فيه الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بالموضوع.

وقد قرأت مقالا بعنوان: "نظرة في مصطلح قواعد التفسير" للكاتب محمد الخضير، ففرج عمّا كان يخلج في صدري وهو خلط المصطلحات في علم التفسير، خاصة عندما كنت أطرح هذا السؤال على بعض الأساتذة والزملاء وأجد الإجابة منهم مقتضبة شمولية، يقال لي في أحسن الأحوال أن لا فرق بين أصول التفسير وقواعد التفسير، وهذا خلاف ما تعلمناه من أن دقة التعاريف الاصطلاحية مهمة جدا إذا ما أضفنا إليها أن "كل ما تغير المبنى تغير المعنى"، وأن كل كلمة أو لفظة لها مدلولها في التعريف الاصطلاحى، وأنها محسوبة تماما، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى هل لتطور العلوم التي لها علاقة بالتفسير علاقة بالتجديد في هذه الأصول أم لا؟ وأقصد بذلك علم المناسبات القرآنية، وإن كان كذلك فأين تكمن هذه العلاقة؟ وكيف تكون مؤثرة في هذا الأمر؟ هذا ما سنتناوله في هذا الباب إن شاء الله تعالى، ولكن قبل ذلك يجب أن نحدد المفاهيم والاصطلاحات الضرورية.

الفصل الأول

تحديد المصطلحات والمفاهيم

جامعة الأمير

القرآن للعلوم الإسلامية

تمهيد:

إن من الصعب على الباحث أو الكاتب أن يلج في بحثه أو مقالته دون استعمال وسائل وأدوات ومواد تسمح له بالتعبير الدقيق عن المعنى المقصود، والهدف المحدود، والغاية المرجوة، وإذ تُعتبر اللغة - لغة البحث - من أهم هذه الأدوات المستعملة في ذلك؛ إن لم نقل أنها أهم وسيلة على الإطلاق، فمن الضروري أن يستعمل كل باحث في مجال تخصصه لغة تناسب بحثه، حيث تختلف طبيعة هذه الوسائل والمواد من تخصص لآخر، فلغة العلوم الإنسانية مثلا تختلف عن لغة العلوم التجريبية، ولغة المجال التاريخي تختلف عن لغة المجال الفقهي... وهكذا، إذ يحتاج كل علم وكل فن إلى لغة معينة واصطلاحات خاصة. وعلى الباحث المتخصص أن يستعمل المصطلحات التي تعارف عليها أهل ذلك الاختصاص وذلك الفن في ذلك الزمان، لأنَّ في تحديد المصطلحات العلمية لكل فن، تصريح قوي، وبيان دقيق للرسالة التي يبث بها الكاتب، وإدلاء واضح ومحدود لمقصود ما يتحدث عنه، وما يريد إيصاله للآخرين من خلال بحثه، ففُتفهم الرسالة بناءً على ذلك التصور، وتُحمل على ذلك المحمل، فلا يساورها شك، ولا يشوبها غبش.

ومن هنا بات حري بكل باحث أن يحدد جميع مصطلحات فنه أو تخصصه، خاصة إذا تعلق الأمر ببعض التخصصات الحساسة، وفي بعض العلوم التي لم يستقر العلماء بعد على وضع أسسها، وإرساء أصولها، والتي لا تشكل معرض اتفاق بينهم في عناصر درسها، سواء من ناحية التأصيل أو الترتيب أو التقسيم، وإن كان الأمر قد اتضح في بعض العلوم فوضعت لها مناهج متفق عليها، وأبوابا وفروعا مجمع عليها، مثل علم التوحيد والعقائد، وعلم أصول الفقه والفرائض؛ فإن الأمر لم يكن كذلك في بعض العلوم التي لا تزال في المهده، ولم تبلغ مستوى في الضبط والتحريز لمفرداتها من حيث المناهج، ومن حيث تحديد مصطلحاتها، مثل علم التفسير الذي نريد الحديث عنه في هذا البحث.

ولأهمية هذا العلم - علم التفسير - والذي لم يزل في طور النمو كما أشرنا، ولعدم ضبط قواعده ومناهجه، وعدم اتفاق أهله على بعض خطواته، وألوانه ودراساته، فإن من الواجب علينا قبل الولوج في الحديث عن التجديد في علم التفسير وعلاقته بعلم المناسبات، أن نحدد إصطلاحات هذا العلم، حتى نكون واضحين تماما من البداية، مثل بعض التعريفات المهمة في أصول التفسير وقواعده، ليتسنى لنا الحديث بعد ذلك فيما استجد في هذا العلم من خلال علم المناسبات القرآنية.

وفي بداية هذا الفصل نعرّف التجديد، وعلم التفسير، وأصول التفسير، وقواعده، ومعنى الضوابط.

المبحث الأول: تعريفات مهمة

المطلب الأول: تعريف التجديد

لغة: أصل الجدة مأخوذة من جد الشيء إذا صار جديدا، كما قال الإمام الفيروز آبادي في القاموس المحيط: "جَدَّ يَجِدُّ، فهو جَدِيدٌ، وَأَجَدَّهُ وَجَدَّدَهُ وَاسْتَجَدَّهُ: صَيَّرَهُ جَدِيداً فَتَجَدَّدَ"¹. وقال في مختار الصحاح: "وَجَدَّ الشَّيْءُ يَجِدُّ بِكَسْرِ الْجِيمِ فِيهِمَا صَارَ جَدِيداً، وَهُوَ نَقِيضُ الْخَلْقِ، وَجَدَّ الشَّيْءُ قَطَعَهُ وَبَابُهُ رَدٌ، وَتَوَبَّ جَدِيدٌ وَهُوَ فِي مَعْنَى مَجْدُودٍ: يَرَادُ بِهِ حِينَ جَدَّهُ الْخَائِكُ أَي: قَطَعَهُ قَالَ الشَّاعِرُ:

أبي حبي سليمي أن يبيدا*** وأمسي حبلها خلقا جديدا

أي: مقطوعا، ومنه قيل: ملحفة جديد بلا هاء، لأنها بمعنى: مفعولة، وثياب جُدُّ بضمين، مثل: سرير وسرر، وَتَجَدَّدَ الشَّيْءُ: صَارَ جَدِيداً، وَأَجَدَّهُ وَجَدَّدَهُ وَاسْتَجَدَّهُ، أَي: صَيَّرَهُ جَدِيداً"².

وقال صاحب لسان العرب، ابن منظور: "مصدر الجَدِيدِ، وَأَجَدَّ ثَوْباً وَاسْتَجَدَّهُ، وَثِيَابٌ جُدُّ: مِثْلُ سَرِيرٍ وَسُرُرٍ، وَتَجَدَّدَ الشَّيْءُ: صَارَ جَدِيداً، وَأَجَدَّهُ وَجَدَّدَهُ وَاسْتَجَدَّهُ أَي: صَيَّرَهُ جَدِيداً"³.

والتجديد في اللغة له معنيان، أولهما: الجديد وهو ما ليس لك به عهد، وثانيهما: الجدة نقيض البلى، ويقال: شيء جديد⁴، والمعنيان يدلان على مفهومين مختلفين، فالأول: ما لا عهد لك به، أي هو جديد لم يعرف من قبل، وما ليس له نظير، والثاني، نقيض البلى، أي ما خلق وبلى، ثم أعيد جديدا على ما كان عليه أول مرة.

والتجديد مفهوم شرعي دعا إليه الإسلام وطلب من المسلمين أن يباشروه وأن يسعوا إلى تحقيقه بضوابطه وشروطه، وهو يحتوي على ثلاث نقاط مهمة، فالتجديد في الاصطلاح الشرعي: هو إعادة رونق الدين وجماله وصفائه، وإحياء ما أندرس منه، ونشره بين الناس، فهذه ثلاثة محاور للتجديد الشرعي المضبوط المستحب، ومطلوب من الناس أن يشاركوا فيها.

¹ - القاموس المحيط، باب الدال، فصل الجيم، ج1، ص: 551.

² - مختار الصحاح، للإمام الرازي، باب: الجيم، ص: 90.

³ - لسان العرب، ابن منظور، ج2، ص: 202.

⁴ - لسان العرب، ابن منظور، ج1/ص: 386.

والتجديد مصطلح شرعي تناوله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الذي رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود والحاكم والترمذي وسنده صحيح: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"¹، فكلمة تجديد مصطلح شرعي لا غبار عليه، وهو كما قلنا يقوم على محاور ثلاثة «اصطلح عليها علماء الشريعة، فإما أن يكون التجديد في محور إزالة تراكمات الانحرافات التي وقعت على تعاليم الإسلام بفعل سلوكيات المسلمين، أو أن يكون التجديد بإزالة البدع والخرافات التي ابتدعت في هذا الدين وخيمت عليه بسبب سوء الفهم مثلاً، أو أن يكون التجديد في نشر محاسن الإسلام في باب العقائد وباب الأحكام وباب الأخلاق وباب المعاملات وفي سائر جوانب الشريعة ودعوة الناس للعمل به وامثاله!»².

ومفهوم التجديد السني المقصود في الحديث هو: أن يعيد المجدد للإسلام أو للدين جدته وأصالته التي كان عليها، فيقتل البدع ويحي السنن، ويرد المفاهيم الباطلة التي تراكمت عبر عقود وقرون من الزمن، ويصحح المفاهيم المختلفة ويميز بين صحيحها وسقيمها، ويبتكر طرقاً ومناهج تمكنه من مخاطبة جماهير المسلمين بلغة العصر، وبالوسائل والأدوات المتاحة، ويضع ضوابط وقواعد لتناول المواضيع الدينية بيسر دون المساس بجوهر الدين وأصله، وتعصم في الوقت نفسه الناس من الوقوع في الحرج والعسر، وتبسط لهم علاقتهم بالمولى جل وعلى³.

¹ - حديث صحيح أخرجه أبو داود.

² - حسن شبالة التجديد وضوابطه، ص: 04

³ - بحث التجديد في التفسير، الدكتور محمد عويس، القاهرة، سنة: 28 أوت، 2010م.

المطلب الثاني: تعريف علم التفسير

لتعريف هذا المركب الإضافي لا بد من تعريف طرفيه لغة واصطلاحاً، فنبداً بتعريف لفظة: "علم" في اللغة: جاء في القاموس تحت مادة علم: العلم إدراك الشيء بحقيقته¹، وفي تاج اللغة: العلم الجبل والثوب والراية، وعلم الرجل يعلم علماً، إذا صار أعلم، وهو مشقوق الشفا العليا، والمرأة علماء، وعلمت الشيء أعلمه علماً: عرفته، ورجل علّامة، أي عالم جداً، والهاء للمبالغة كأنهم يريدون بهم داهية²، وعلمت الشيء بمعنى عرفته وخبرته³، ومنه العلامة التي يعرف بها الشيء، والذي يتصف بالعلم يسمى عليماً، وعليماً، وذو علم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾⁴، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁵، وقال أيضاً: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾⁶، وقال تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾⁷، وجاء بصيغة المبالغة في قوله تعالى: ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾⁸، والذي يعلم غيره يسمى معلماً، كما كان النبي ﷺ معلماً للناس.

وأما في الاصطلاح: فقد تباينت التعريفات الشرعية لمسمى العلم، لكنها كانت قريبة من بعضها البعض، فلقد جاء في كتاب التعريفات للجرجاني أن العلم هو: «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»⁹، وقيل العلم هو إدراك ما هو به، وقيل زوال الخفاء من المعلوم والجهل نقيضه¹⁰.

¹ - القاموس الجديد للطلاب، علي بن هادية بلحسن البليش، والجيلالي بلحاج يحيى/المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة 4، الجزائر، 1991م، ص: 696.

² - تاج اللغة وصحاح العربية المسمى: "الصحاح" تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري الفراءى، إحياء التراث العربي/لبنان، بيروت، الطبعة 4، سنة 2005م/1426هـ - ج 4/ص: 1612.

³ - معجم تهذيب اللغة لابن منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م/مج 3، ص: 2554.

⁴ - سورة يوسف، آية: 68.

⁵ - سورة فاطر، آية: 28.

⁶ - سورة يس، آية: 81.

⁷ - سورة الأنعام، آية: 73.

⁸ - سورة المائدة، آية: 11.

⁹ - كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني (816هـ)، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، الطبعة 4، (1424هـ/2003م)، ص: 232.

¹⁰ - المصدر نفسه، ص: 233.

ويمكن القول أن العلم هو: الاطلاع على المخفي أو المجهول، حتى يُدرك ويُعرف ويُكشف عنه، فينطبع في العقل ويرسخ في النفس.

تعريف التفسير:

لغة: التفسير في اللغة هو تفعيل من الفسّر؛ الذي هو الكشف والبيان، وفسّر الشيء يفسّره بالكسر، ويفسّره بالضم فسراً، يعني: أبانه، والتفسير كشفُ المراد عن اللفظ المبهم¹، وقال الأزهري: الفسّر: «كشف ما غُطّي، وهو بيان وتفصيل للكتاب [العزير]... والتفسّرة: اسم للبول الذي ينظر فيه الأطباء يستدلون بلونه على علة العليل، [فكذلك المفسر يكشف عن شأن الآية، وقصصها، ومعناها، والسبب الذي أنزلت فيه، وكأنه تسمية بالمصدر، لأن مصدر فعل جاء أيضا على تفعلة]، يعني فسّر تفسّرة. وكل شيء يُعرف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته، وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾²، وقال بعضهم: التفسير: «كشف المراد عن اللفظ المشكل»³، وفسّر وسفّر لغة واحدة، أي اشتقاقهما واحد، ومعناها الكشف، قال الجوهري: «... وسفّرت المرأة: كشفت عن وجهها، فهي سافرة، ومسافر الوجه: ما يظهر منه... وأسفر الصبح، أي أضاء، وفي الحديث: أسفروا بالفجر، فإنه أعظم للأجر»⁴. وأسفر وجهه حسناً، أي أشرق»⁵.

وقال الزركشي في البرهان: «والتفسير هو الكشف أيضاً، فالتفسير كشف المغلق من المراد بلفظه، وإطلاق للمحتبس عن الفهم به، ويُقال: فسّر الشيء أفسره تفسيرا، وفسرته أفسره فسراً، والمزيد من

¹ - لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ، ج6، ص: 134.

² - سورة الفرقان: آية 33.

³ - معجم قهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة: 1، سنة: (1422هـ/2001م)، بيروت، لبنان. المجلد الثالث، ص: 2787.

⁴ - حديث رواه الترميذي، في سننه، باب: ما جاء في الإسفار، ج1، ص: 263، ورواه النسائي في باب: الإسفار بالفجر، ج2، ص: 277، ورواه أحمد في المسند من طريق رافع بن خديج، ج35، ص: 150/48، ص: 157/48، ص: 172. وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ج1، ص: 345، 355، 457، 478. ورواه الطبراني في المعجم: ج9/4/17، ص: 150، 13، 460. ورواه البيهقي في الآثار، باب: الصبح، ج2، ص: 325.

⁵ - تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: 4، 1426هـ/2005م، بيروت لبنان، الجزء: 2، ص: 589.

الفاعلين أكثر في الاستعمال، وقال آخرون هو مقلوب من سفر ومعناه أيضا الكشف، يقال سفرت المرأة سفورا إذا ألت حمارها عن وجهها، وهي سافرة، وأسفر الصبح أضاء»¹. وجميعهم متفقون على أن أصل التفسير الكشف والبيان.

اصطلاحا: لقد تفاوتت التعريفات الاصطلاحية لهذا اللفظ بسبب اختلاف العلماء في تحديد ما يندرج تحته من مدلول ومعنى، فبعضهم يقول: هو علم يُعرف به نزول الآيات، وشؤونها وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيها ومدنيّتها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدتها، ومحملها ومفسرها، وحلالها وحرامها، ووعدتها ووعيدتها، وأمرها ونهيها، وأمثالها وغيرها²، وقد جمع هذا التعريف كل ما يتعلق بعلوم القرآن، وتناول مختلف الدراسات القرآنية.

وهناك من يقول: «هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمت لذلك»³، وقصد بذلك عدة علوم كالقراءات، ومعاني الألفاظ، والنحو، والصرف، والبيان، والبدیع، وهذا يُفهم من خلال قوله: «كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها، وأحكامها التركيبية والإفرادية»، والمجاز من خلال قوله: «ومعانيها التي تُحمل عليها حالة التركيب»، وقصد أيضا علم أسباب النزول والمبهم... وغيره، وهذا يُفهم من قوله: «وتتمت ذلك»، وهو كل ما يتعلق بما جاء في كتاب الله من متشابه ومحكم وقصص... وغيره.

وأما الزركشي فيعرف التفسير بقوله: «التفسير: علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة، والنحو، والتصريف، وعلم البيان، وأصول الفقه، والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ»⁴، وهو الكشف عن مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

وهذا الأخير تعريف عام، يفهم منه أن التفسير هو الجهد الذي يبذله المفسر، للكشف عن مراد الله

¹ - البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ / 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباي الحلبي وشركائه، ج1، ص: 147.

² - كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي النهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية، العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة: 1، 1382 هـ / 1963م، ص: 33.

³ - البحر المحيط، علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، ج1، ص: 14.

⁴ - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص: 13.

تعالى من خلال خطاب الله المتعلق بأفعال العباد، بقدر استطاعته، وبقدر ما آتاه الله من علم، وبما فتح الله به عليه من فهم.

تعريف المركب (علم التفسير)

هو أحد العلوم الشرعية الأساسية المتعلقة بالقرآن الكريم، من حيث إنه يهدف إلى تحصيل القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة من كلام الحق سبحانه، إضافة إلى تذكير المخلوق بحق الخالق وما يترتب على ذلك، ومما يحصله المؤمن نتيجة معرفته بتفسير كلام الله ﷻ وإطلاعه على أسرارهِ وخفاياه.

المطلب الثالث: تعريف أصول التفسير

تعريف الأصل:

في اللغة: قال الليث: الأصل أسفل كل شيء¹، وهو ما يتنى عليه غيره²، ويقال أصَلْتُ هذه الشجرة أي ثبت أصلها فاستقر في الأرض، واستأصل الله بني فلان، أي لم يدع لهم أصلاً، ولا نسلاً، وقيل الأصيل الهلاك، قال أُولَى:

خافوا الأصيل وقد أعيت ملوكهم*** وحملوا من ذوي عوم بأثقال³

وأصول جمع أصل، وأصل الشيء أساسه الذي يبنى عليه، كأساس المنزل ونحوه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿...أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾⁴، ورجل أصيل له أصل⁵، وفي الصحاح: واحد الأصول يقال أصل مؤصل واستأصله أي قلعه من أصله - اجتته من جذوره - قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّيَنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾⁶، وقيل ما يفتقر إليه ولا يفتقر هو إلى غيره ورجل أصيل له أصل، ورأى أصيل له أصل، ورجل أصيل ثابت الرأي عاقل⁷، وقال الكسائي:

¹ - معجم تهذيب اللغة، ج1، ص: 127.

² - كتاب التعريفات، (مصدر سابق)، ص: 85.

³ - الديوان، ص: 03.

⁴ - سورة إبراهيم، آية: 24.

⁵ - معجم تهذيب اللغة، ج1، ص: 128.

⁶ - سورة الحشر، آية: 05.

⁷ - انظر: لسان العرب، مادة (أصل) ج16/11.

قولهم لا أصل له ولا فصل، أي لا حسب له ولا لسان، والأصيل الوقت بعد العصر إلى المغرب¹. وفي الاصطلاح: هناك عدة تعريفات لعلم أصول التفسير اصطلاحاً وكلها تتفق على أنه علم يهتم ببيان الطرق السليمة لتفسير القرآن الكريم وتدبره وفق ما وضعه العلماء من ضوابط، وقواعد، يستطيع من خلالها المفسر وطالب العلم التعرف على كيفية الأخذ من تفاسير العلماء ما يوافق الحق والصواب، ويترك ما عداه.

- وقيل: هي مجموعة القواعد الصحيحة والطرق المثلى التي يحتاج إليها المفسر للكشف بها عن معاني القرآن الكريم².

- وقد عرفه الدكتور فهد الرومي بقوله هو: "القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير، أو هو العلم الذي يتوصل به إلى الفهم الصحيح للقرآن ويكشف الطرق المنحرفة أو الضالة في التفسير"³
- وعرفه مساعد الطيار بقوله: "هي الأسس والمقدمات العلمية التي تعين في فهم التفسير، وما يقع فيه من اختلاف وكيفية التعامل معه"⁴.

إشكال برؤية أصولية:

وإن كان أصل الشيء أسفله، وأساس الحائط أصله، وأصل الشجرة هو الذي تتفرع منه أغصانها، كما قال صاحب المصباح المنير، ونسب هذا التعريف أيضاً للقاضي، وأبو الخطاب، وابن عقيل من الحنابلة... فإن هذا التعريف غير جامع ولا مانع، لأن من شروط الحد أو التعريف أن يكون جامعاً مانعاً، أي جامع لأوصاف المحدود، مانع من دخول غير أفراده في حده، كيف ذلك؟

نلاحظ أن الوالد مثلاً أصل للولد، ولكن لا يقال: أن الولد ينسب على الوالد، وقد قال المردوي: الأولى أن يُقال: ما يتفرع عنه غيره، فيصح أن يقال: الولد فرع من أبيه، وقد تُعقب هذا التعريف أن هناك من أصول الشرع ما هو عقيم لا فرع له، ولا يقع به التوصل إلى ما وراءه بحال، مثل دية الجنين، والقسامة، وتحمل العاقلة، فهذه أصول ليس لها فروع⁵.

¹ - الصحاح، (مصدر سابق)، ج4، ص: 1313.

² - أصول التفسير وقواعده، لخالد عبد الرحمن العك، ص: 30.

³ - بحوث في أصول التفسير، للدكتور فهد الرومي، ص: 11.

⁴ - فصول في أصول التفسير، لمساعد الطيار، ص: 13.

⁵ - التحبير (147/1).

قال الزركشي في البحر المحيط: الأولى أن يُقال: الأصل كل ما ثبت دليلاً في إيجاب حكم من الأحكام ليتناول ما جلب فرعاً أو لم يجلب¹.

واعتماداً على ما سبق نقول: أن الأولى أن يقال: "الأصل كل ما ثبت دليلاً في إيجاب حكم من الأحكام"، فوجود الأغصان دليل على وجود الشجرة، ووجود الجدار دليل على وجود أساسه، ووجود الابن دليل على وجود أبيه، وهكذا، فيدخل فيه ما بني على غيره وما لم يُبنَ، وما له فرع أو ليس له فرع.

وفائدته: استخراج أحكام القرآن وحكمه ومعرفة الأدلة من آياته وكشفها وتوضيح معانيها، إلى غير ذلك على وجه الصحة والدقة.

وغايته: الوصول إلى المعاني المرادة من كتاب الله العزيز للفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

وموضوعه: كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو أشرف العلوم كلها وأجلها².

أما تعريف التفسير فقد سبق في المطلب السابق.

تعريف المركب (أصول التفسير)

بعد أن عرفنا كل من "الأصل" و"التفسير" نخلص الآن إلى تعريف المركب (أصول التفسير)، فنقول: أن أصول التفسير تعني الأسس والقواعد العامة والمقدمات الخاصة التي يجب أن يلج خلالها المفسر ويستعملها أيضاً في العملية التفسيرية، وهي الأصول التي يقوم ويبني عليها، كما تبني العلوم الأخرى، وهو الأمر المتعلق بالجانب النظري لعلم التفسير.

فالحديث عن التأصيل الشرعي لهذا العلم، وكذا الكلام عن نشأته وتطوره ومناهجه، وشروط صاحبه، كل ذلك من أصول التفسير، وأما العملية التفسيرية والتي تقوم أيضاً على قواعد وأسس وشروط وضوابط، ولكنها شروطاً وقواعد تخص جانب المعنى والهدف المباشر لهذا العلم، وهو كشف المراد من كتاب الله، حتى يتسنى فهمه والعمل به، فهي ليست أصوله؛ بل هي جزء منه.

ويعرفه فهد بن عبد الرحمن الرومي في كتابه أصول التفسير، فيقول: أصول التفسير هي القواعد والأسس التي يقوم عليها علم التفسير، وتشمل ما يتعلق بالمفسر من شروط وآداب وما يتعلق بالتفسير من

¹ - الزركشي، البحر المحيط، ج1، ص: 11.

² - أصول التفسير وقواعده - خالد عبد الرحمن العك (مصدر سابق)، ص 31 بتصرف.

قواعد وطرق ومناهج وما إلى ذلك¹، وغايته ضبط التفسير بوضع القواعد الصحيحة والطرق السليمة، والمناهج السديدة للتفسير، والشروط المحكمة، والآداب الفريدة للمفسر². ويمكن القول أن أصول التفسير هي تلك الأصول التي تخص الجانب النظري لعلم التفسير، وقواعد التفسير جزء منها.

المطلب الرابع: تعريف قواعد التفسير

يجب أن نفرق بين قواعد التفسير التي نعني بها أصول التفسير والتي غالباً ما يتبادر إلى الذهن معناها كلما أطلقنا مصطلح قواعد التفسير، ولكن الحقيقة أن هناك خلطاً في هذه المصطلحات التي نحاول في هذه الورقيات أن نضبطها ونحررها، وبين القواعد الخاصة التي تقوم عليها العملية التفسيرية، والتي يركز عليها المفسر لتفسير كتاب الله، من مثل قاعدة عموم اللفظ وخصوص السبب، وقاعدة مراعاة الظهور القرآني، والخبر على عمومته حتى يأتي ما يخصه، وتحكيم السياق عند الاختلاف... وغيرها.

ورغم ما ألف في قواعد التفسير قديماً وحديثاً، إلا أن عدم الوضوح وعدم التحرير الدقيق للمصطلحات لا زال يتكرر، ولأن غالب ما أُلف في قواعد التفسير؛ إنما هو في علوم القرآن الكريم مثل كتاب التيسير في قواعد التفسير للكافيحي (ت879هـ)، وأصول التفسير وقواعده لخالد بن عبد الرحمن العك، وهناك رسالتان فريدتان في القواعد ذاتهما جمعاً ودراسة، وهما: قواعد التفسير لخالد بن عثمان السبت رسالة دكتوراه في مجلدين، وقواعد الترجيح عند المفسرين لحسين بن علي الحربي، وهي رسالة ماجستير، وموضوعها أخص من الرسالة السابقة.

وقد ضمن المؤلفون الأوائل في علوم القرآن، قواعد التفسير، ككتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي (794هـ)، والإتقان للسيوطي (911هـ).

إضافة إلى ما حوته بعض المقدمات في التفاسير، كمقدمة النكت والعيون للماوردي، ومقدمة التسهيل، لابن جزى الكلبي، ومقدمة الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير، ومقدمة ابن كثير الذي أخذ منها ابن تيمية.

وقد قُسمت هذه القواعد بحسب الاعتبارات، منها قواعد عامة يستفاد منها فهم القرآن كقاعدة: "المفرد المضاف يفيد العموم"، وقواعد ترجيحية كقاعدة: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على

¹ - بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد الرومي، مكتبة التوبة، طبعة 4، 1419هـ - ص: 11.

² - المصدر نفسه، ص: 12.

ما خالفه"، وغيرها.

ومصطلح قواعد التفسير من المصطلحات التي لا تزال بحاجة إلى مزيد من التحرير والضبط، وذلك لأسباب منها:

1- أن هذا العلم لم يلق حظه من الكتابة والتحرير كغيره من العلوم المشابهة، كقواعد الفقه، فإن العلماء منذ زمن بعيد قد كتبوا وحرروا قواعد الفقه في كتب كثيرة، بينما نجد أن قواعد التفسير لم يكتب فيها إلى من قبل المعاصرين، وقليل من المتقدمين الذين لم يصل إلينا من كتبهم إلا التزليل.

2- أن ما كتبه المتقدمون وبعض المعاصرين ليس في موضوع قواعد التفسير بل في علوم القرآن، كما أشرنا سابقا، وقد يشمل على بعض قواعد التفسير، كما في بعض الكتب المعاصرة، وربما تحدث عنه بعض المفسرين في مقدمات تفاسيرهم.

3- اختلاط هذه القواعد بقواعد أصول الفقه، حتى أصبح تعداد قواعد الأصول ضمن قواعد التفسير أمر معهود عند من كتب في هذه القواعد.

وأما تعريف القاعدة فهو كالآتي:

لغة: القاعدة في اللغة هي الأساس التي يبنى عليها غيرها، ويستوي في هذا الأمور الحسية والمعنوية، وتعني: الأساس أو الأصل أو هي أساطين أو أعمدة البناء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾¹، ومن ذلك: "قواعد الهودج" وهي خشبات أربع معترضة في أسفله تركب عيدان الهودج فيها² وإن كانت القاعدة في اللغة تعني الاستقرار والثبات، فأقرب المعاني إلى المراد في معنى القاعدة هو الأساس، نظرا لابتناء المعاني عليها كابتناء الجدران على الأساس.

¹ - سورة البقرة، آية: 127.

² - لسان العرب، مادة قعد.

أما في الاصطلاح: فإن لها تعريفات كثيرة، لكن أجمع هذه التعاريف تعريفان: التعريف الأول الذي وصل إليه الجرجاني حيث قال: هي قضية كلية تنطبق على جميع جزئياتها¹، مثال على ذلك: اليقين لا يزال بالشك، فهذه قضية كلية تنطبق على جميع الجزئيات.

وقيل أيضا أنها: حكم كلي يتعرف بواسطته على أحكام جزئياته².

وقولهم أن القاعدة قضية كلية ليس مختصا بعلم بعينه؛ بل هو قدر مشترك بين جميع العلوم، والقضية يجوز أن توصف بالصدق أو الكذب، والكلية: أي المحكوم على جميع أفرادها، فإن أردنا حصر القضية الكلية بميدان معين أضفنا لها قيد مثل: قضية كلية نحوية، أو: قضية كلية فقهية... الخ.

وتحديد معنى القاعدة في أي علم يعرف بإضافة القاعدة إلى العلم، مثل: قواعد التفسير، قواعد الفقه، قواعد النحو... وهكذا، وخلاصة القول أن نقول:

قواعد التفسير: قواعد خاصة يتوصل بها إلى معرفة معاني القرآن وأحكامه، وإذا افترضنا أن أصول الفقه المقصود بها القواعد الأصولية، فقواعد التفسير بالنسبة للتفسير مثل أصول الفقه بالنسبة للأحكام الفقهية العملية، فكما أن أصول الفقه تضبط الاستدلال وتعرف الفقيه كيفية استنباط الأحكام من النصوص، كذلك قواعد التفسير تضبط الاستدلال من القرآن وتعرف المفسر كيف يستدل بالقرآن على معانيه وأحكامه.

ولكن والله أعلم أن الخلط بين قواعد التفسير وقواعد أخرى؛ إنما يعود إلى تعريف التفسير في حد ذاته، فمنهم من أطلقه، ومنهم من قيده، فمن اختصر التفسير على البيان فقط؛ فلا شك أن قواعد بيان القرآن تعد أقل بكثير من قواعد التفسير على المعنى الآخر؛ إذ يدخل فيها على ما عرفه أبو حيان والزرخشفي في قولهم: التفسير هو: قواعد النطق بألفاظ القرآن وقواعد الدلالات وغيرها³، ومن أطلقه فلا شك أن قواعد بيان القرآن تكون كثيرة جدا.

ولكن مهما كانا الاتجاهين متباينين، فإن من المفروض أن هذه القواعد لا تخرج عن التفسير.

¹ - التعريفات للجرجاني، ص: 177.

² - قواعد التفسير (جمعا ودراسة)، للباحث خالد بن عثمان السبت، الطبعة الأولى 1417هـ - الصادرة عن دار ابن عفان - السعودية، ص: 06.

³ - البحر المحيط، علي بن يوسف أبي حيان الأندلسي، ج1، ص: 14.

ولهذا بات الخلط بين ما هو من التفسير وما ليس منه أمراً سهلاً لاقتحام بعض من ليس له اختصاص ولا دراية بهذا العلم، أو بسبب اقتصار بعض المتأخرين على شرح كتب المتقدمين، والتي أخلط أصحابها الحديث فيها عن جملة من العلوم تحت مسمى قواعد التفسير كما أسلفنا، فيمكن أن تدخل القواعد العامة للتفسير تحت مسمى أصول التفسير، ولكن لا يقال أن كل أصل من أصول التفسير هو قاعدة من قواعد التفسير، والله أعلم.

ويمكنني في هذا المقام أن أضيف جزئية صغيرة قد أشرت إليها من قبل في التمهيد، أرى أنها تستحق التنبيه إليها، فأشير إليها على أمل أن تحضى بالنظر ممن يريد أن يكتب حول الموضوع، وهي مسألة التفريق بين القواعد والضوابط في التفسير، حيث أن الضابط أخص من القاعدة، ونفرقه عن غيره بإضافة اتجاه التفسير له فنقول مثلاً: ضوابط التفسير اللغوي، وضوابط التفسير العلمي... وهكذا، وربما الضابط يجمع فروعاً من باب واحد بينما القاعدة تجمع فروعاً من أبواب شتى.

ومن أهم مصادر معرفة قواعد التفسير: القرآن، والسنة، والمأثور عن الصحابة، أصول الفقه، علوم اللغة، علوم القرآن.. وغيرها؟؟

وأما مؤلفاته: فلقد كان الكلام في هذا العلم منشوراً في كتب التفسير، والأصول، وعلوم القرآن، ثم صدرت عدة مؤلفات منها قواعد التفسير لفخر الدين بن الخطيب الحنبلي (621هـ) وكتاب المنهج القويم لابن الصائغ الحنفي (777هـ)، وقواعد التفسير لابن الوزير (840هـ)، والتيسير في قواعد التفسير للكافيجي (879هـ)، والقواعد الحسان للسعدي (1376هـ).

وسأذكر مؤلفات أخرى في هذا المجال في الفصل القادم ان شاء الله تعالى.

المبحث الثاني: معنى التجديد في علم التفسير من خلال علم المناسبات ومقصوده

إن التجديد المطلوب والمنهجية الإصلاحية لا يكفي فيها التطعيم أو الإضافة إلى بعض المقررات والبحوث المعاصرة قلت أو كثرت؛ بل لا بد من إعادة النظر في محتوى مواد التفسير ومقرراته ومناهجه وكيفية أدائها لوظيفتها الاجتماعية والنفسية والفكرية وتفعيل هذا الأداء أو بث الروح فيه من جديد¹، إننا اليوم أحوج ما نكون إلى إحداث نقله هائلة في تدريس التفسير ذلك أن الأحداث المعاصرة كبيرة وكبيرة جداً، يكفي منها ما نراه من تطرف في الآراء المستنبطة من دراسة القرآن الكريم عند بعض ممن

¹ - منهجية التعامل مع علوم الشريعة، عدنان زرزور، بحث مقدم لمؤتمر الشريعة، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام 1995م، ص: 131.

يستشهد بالقرآن لتلبية حاجاته ورغباته، أو نصرًا لمذهبه ونحلته، وحسبنا من هذا التطرف ما جنته الآراء السقيمة والعقيمة غير المتدبرة من بيان علاقة المسلمين بغيرهم من أهل الكتاب أو غيرهم، فغني عن البيان ما أحدثته هذه الآراء غير المدروسة وخصوصًا تلك الآراء التي أنتجت العنف وسيلة للتعامل مع الآخرين حتى تعدى هذا إلى نشوء عقلية إقصاء الآخر، حتى انتقلت هذه العقلية إلى أن تضيق بالمسلمين الذين يخالفون صاحبها الرأي، وغني عن البيان النظر إلى ما أحدثته هذه الآراء وسط مجتمع المسلمين أولاً قبل النظر فيما آل إليه أمر المعاملة مع غير المسلمين، وإذا كانت داعية هذه الآراء في المقام الأول بسبب من النظر الخاطئ في القرآن الكريم أو الفهم الخاطئ للآيات أو حتى الفهم الخاطئ في التعامل مع أقوال المفسرين في التفسير وإسقاطها على الواقع الذي نعيشه، فلا بد من تقويم ذلك وبيان خطئه والحث على الصواب وتسديده¹.

ولا بد من توضيح المقصود بالتجديد في علوم التفسير، فنقول أن التجديد المنشود يدخل في المجالات التالية:-

أولاً: كل ما يحيط بمادة التفسير من علوم مباشرة وغير مباشرة.

ثانياً: العملية التفسيرية وهو الجانب التطبيقي لهذا العلم.

ثالثاً: قواعد ومناهج وطرق أخذ هذه المادة.

وعلينا أن نشير في هذا المبحث إلى أن التجديد له صوراً متعددة نذكرها فيما يلي:

نقل حاجي خليفة عن سبقة أن التأليف في العلم على سبعة أنحاء، إذ لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي:

1- شيء لم يسبق إليه فيخترعه، مثل الرسالة للشافعي.

2- شيء ناقص يتممه، كالمجموع للنووي حيث تعاقب على تتمته السبكي والمطيعي.

3- شيء مغلق يشرحه، مثل شروح المتون الفقهية واللغوية.

4- شيء مطول يختصره دون أن يخل بمعانيه، مثل مختصر تاريخ دمشق لابن منظور.

5- شيء متفرق يجمعه، مثل القواعد الفقهية لابن رجب حيث جمعها من كتب الفقهاء.

6- شيء مختلط يرتبه، مثل ترتيب الحديث لبعض الأحاديث على حروف المعجم.

¹ - التجديد في التفسير مادة ومنهاجا، بحث للدكتور جمال أبو حسان - كلية الشريعة - جامعة الزرقاء الأهلية، مكتبة شبكة التفسير والدراسات القرآنية، الأردن/ ص: 17.

7- شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه، مثل كتب التعقيبات والردود.¹

ولعل أبرز وأدق مجال للتجديد هو التجديد في التفسير، حيث أشار الدكتور عثمان أحمد عبد الرحيم أن هذا الموضوع من أهم المواضيع المطروحة، لأنه يعني معالجة ما تعيشه الأمة الإسلامية من أسقام وعلل وأخطاء في ظل ضوء ما يستلهم من خطاب الله تعالى للبشرية، ويشير أيضا في هذا الصدد إلى أن التجديد برز في ثنايا التفسير، ابتداء من القرن الثاني الهجري إلى عصر الألويسي في القرن الثاني عشر.² ويطال التجديد جميع الجوانب التي تتعلق بالتفسير سواء من ناحية أدوات ومستلزمات فهمه، أو من ناحية فهم معانيه، أي سواء تعلق الأمر بأصول التفسير أو بالعملية التفسيرية. وسنتطرق إلى هذين الجانبين كليهما في مطلبين: معنى التجديد في أصول التفسير، ومعنى التجديد في العملية التفسيرية، وما المقصود منهما؟.

المطلب الأول: معنى التجديد في أصول التفسير وعلاقته بعلم المناسبات

يطلق هذا المصطلح - أصول التفسير - عادة على ما هو نظري في علم التفسير ويقصدون به الحديث عن نشأة التفسير وتاريخ تطوره، ومدارسه واتجاهاته وألوانه وعلومه وقواعده وشروطه ومناهجه، وكل ما يخص التفسير مما قرب منه أو بعد، غير العملية التفسيرية.

واعتمادا على هذا نطرح السؤال التالي هل أصول التفسير قابلة للتجديد أم لا؟ وكيف؟

لقد أطلقت صيحات هنا وهناك تدعوا إلى التجديد في هذا المجال، وألفت بعض المحاولات في ذلك، منها ما كتب ومؤلفات صدرت باسم أصول التفسير، ومنها تفاسير قد شملت في مقدماتها على شيء في الأصول، ومنها ما تناولته كتب علوم القرآن، ومن النوع الأول: التجديد في التفسير مادة ومنهاجا جمال أبو حسان، وأصول التفسير وقواعده، لخالد عبد الرحمن العك، وأصول التفسير ومناهج المفسرين لزبن عزيز العسافي، وبحوث في أصول التفسير لمحمد الصباغ، ودراسات في أصول التفسير ومناهجه لعمر يوسف حمزة، والسفير في أصول التفسير، لعبد الحكيم سرور، والفوز الكبير في أصول التفسير لولي الله الدهلوي، وفصول في أصول التفسير لمساعد الطيار، ومقدمة في أصول التفسير لصالح آل الشيخ، وموجز في علوم القرآن وأصول التفسير لعبد الله سلقيني، وبحوث في أصول التفسير ومناهجه لفهد

¹ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، 1983، ج1، ص: 35. أما الأمثلة فهي ليست له.

² - التجديد في التفسير، نظرة في المفهوم والضوابط، (93) صفحة، عثمان أحمد عبد الرحيم، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الاصدار الحادي عشر، الكويت. المقدمة، ص: 01.

الرومي، ومقدمة التفسير لابن تيمية، والإكسير في أصول التفسير للصرصري الطوفي، وحاشية أصول التفسير لابن قاسم، والنظم الحبير في علوم القرآن وأصول التفسير للشيخ سعود الشريم، والتكميل في أصول التأويل لعبد الحميد الفراهي.

ومن النوع الثاني: معظم التفاسير تشمل على مقدمات في أصول التفسير. ومن النوع الثالث: كتب علوم القرآن نذكر منها فقط لشهرتهما: الإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للزرکشي.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هل لهذا التجديد في أصول التفسير علاقة بعلم المناسبات القرآنية؟ بعد التتبع والتقصي والبحث توصلت إلى أن أي تجديد في هذه الأصول سببه تطور في بعض العلوم المتعلقة بالعملية التفسيرية، مثل علم أسباب النزول، وعلم المناسبات، والسياق، والعلوم الكونية والعلوم الأخرى التي لها مزية في إبراز وإعطاء معاني جديدة لآيات القرآن الكريم، ويظهر ذلك جليا في الجانب التطبيقي لعلم التفسير - مادة التفسير - التي تطورت عبر مراحل تاريخية عرف فيها التفسير نقلات نوعية من عصر النبي صلى الله عليه وسلم مرورا بعصر التأصيل ثم عصر التفرع ثم عصر التجديد، من القرن الثاني إلى العصر الحديث مرورا بعصر الألووسي في القرن الثاني عشر الهجري، اعتمدت كل مرحلة في التفسير على مجموعة من العلوم التي عاصرت هذه المراحل، وبمفهوم آخر أن مطلب التجديد في التفسير إنما يُراد به الوصول إلى نتائج جديدة، وإلى فهم أعمق وأدق للقرآن، ومعلوم أن العملية التفسيرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالجانب النظري، أو قل هي تطبيق للجانب النظري، ولأن تلك العلوم هي مما يحتاجه المفسر للخوض في عملية التفسير، سواء كان لها علاقة مباشرة بالتفسير أو غير مباشرة، فإنه فكلما كان تطورا وتجيديدا في الجانب النظري أرفده تطورا وتجيديدا في الجانب التطبيقي، والعكس صحيح.

وبما أن علوم القرآن وتجيديدا علم المناسبات من العلوم التي لها علاقة مباشرة بالتفسير، والتي تدخل تحت مسمى علوم القرآن التي تعتبر من أصول التفسير، فإن أي تطور فيه ينتج عنه تطور في مادة التفسير.

وعليه نقول أن ظهور وتطور علم المناسبات القرآنية والذي له علاقة مباشرة بالتفسير لعب دورا كبيرا في دفع العلماء والمفسرين إلى التفكير في إيجاد مناخ ومجال لتطبيقه، إضافة إلى احتياج المسلمين إلى حلول لبعض مشاكلهم، وما أفرزته بعض الثقافات في البيئة الإسلامية وغيرها، كل هذا كان له أثر في توسيع

الفهوم والمعاني، ومن أفضل المجالات لتطبيق هذا العلم هو التفسير، أو بالأحرى الجانب التطبيقي له والذي نقصد به مادة التفسير أو العملية التفسيرية¹.

وليس الأمر مقتصرًا على التفسير فحسب؛ فعلم المناسبات ومراعاة السياق يكون في أي كلام متصل سواء كان في الشعر أو النثر أو غيرهما، ولكن في التفسير يكون بشكل أقوى وأدق، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى طبيعة النص القرآني.

ولهذا توالى الدعوات والصيحات منادية بالتجديد في أصول التفسير مع أخذ الاعتبار علم المناسبات كأساس لذلك، كما سأوضح ذلك في المباحث التالية بإذن الله.

ولقد قررنا سابقاً أن التجديد المرغوب والمنشود يساير ثلاثة مسائل، أولاً: ما يحيط بالتفسير من علوم، وثانياً: المادة التفسيرية، وثالثاً: قواعد ومناهج وطرق تدريس هذه المادة.

وأعني بما يحيط بمادة التفسير العلوم أو المباحث التي تدرس قبل الدخول إلى مادة التفسير، وهي ما يعطى عادة ضمن مسميات متعددة منها مثلاً: مدخل إلى التفسير، أو علوم القرآن، وغير ذلك من العناوين التي لا تدخل إلى التفسير مباشرة، وهي موضوعات تكثر أو تقل بحسب ثقافة الكاتب وسعة إطلاعه، وهذا ما ذكره أيضاً الدكتور جمال أبو حسان²، والمدقق في هذه العلوم يرى أن بعض هذه العلوم لا صلة لها بالبتة بالتفسير، وبعضها له صلة مباشرة بالعملية التفسيرية³، وهذا الذي نريد الحديث عنه في هذا المطلب، وهل أن علم المناسبات القرآنية يُعد من هذه المسميات التي لها علاقة بالتفسير أم لا؟

¹ - لا يرتبط علم المناسبات فقط بكشف العلاقة بين آيات القرآن، بل يمكن استعماله في مجالات أخرى كالشعر والنثر والخطب والمقالات وغير ذلك.

² - التجديد في التفسير مادة ومنهاجا، ص: 14.

³ - ولناخذ مثلاً كتاب السيوطي المسمى بالإتقان في علوم القرآن؛ الذي يعد من خير ما أُلّف في علوم القرآن الكريم فإنك تجده وقد جعل علوم القرآن في ثمانين علماً ولو أُلقيت النظر على هذه العلوم لوجدتها على قسمين اثنين:

القسم الأول: علوم ليس لها دخل مباشر في تفسير القرآن بمعنى يمكن تفسير الآية أو الآيات بدون معرفة هذا العلم، أو يمكن أن يقال إن معرفته لا تؤثر إيجاباً أو سلباً على تفسير القرآن الكريم من حيث هو تفسير لكلام الله تعالى.

القسم الثاني: قسم له دخل مباشر في التفسير ويؤثر إيجاباً أو سلباً على فهم الآية الكريمة. انظر التجديد في التفسير، جمال أبو حسان، ص: 18.

لقد ألف الأولون في علوم القران، وذكروا علم المناسبة كعلم من علومها، ووصفوه بأنه علم قد يخفى على كثير من المفسرين الذين اشتغلوا بعلم التفسير، وقالوا بأنه علم ضروري ومفيد للعملية التفسيرية، إلى جانب علم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ... وغيرها. ولارتباط هذا العلم بأصول التفسير كما لاحظنا، فإن له أهمية كبيرة في كشف المعاني وتجليه الأفهام إذا ما روعي في التفسير.

ولهذا السبب بات من الواجب على المفسر أن يأخذ بعلم المناسبات كلما أقبل على تفسير آيات الكتاب، حتى يزيده فهما أوسع وأدق، وهذا ما سنتحدث عنه في الباب الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

- وما يجب أن نحدده في هذا المقام هو علاقة علم المناسبة بأصول التفسير، حيث نسجل ذلك في نقاط:
- علاقة علم المناسبات بمناهج التفسير: ويتجلى ذلك في منهج التفسير الموضوعي خاصة، حيث يركز هذا الأخير أساسا على علم المناسبات، فكلما توسع العلماء في هذا الأخير إلا وفرضت عليهم رؤى وآفاق أخرى في وضع مناهج جديدة لخدمة هذا العلم.
 - علاقة علم المناسبات بقواعد التفسير: ويظهر ذلك خاصة فيما استجد من إضافة واكتشاف بعض القواعد الجديدة في التفسير والتي تدور حول علم المناسبات، مثل قواعد التدبر الأمثل لتفسير القرآن الكريم، للأستاذ: (حبنكة الميداني)، حيث ركز بشكل أوسع ومباشر على قضية المناسبات.
 - علاقة علم المناسبات بخطوات العملية التفسيرية: حيث تسبق جميع المراحل قبل البدء في تحليل الآيات، والتفاسير المعاصرة تزخر بهذا المعنى، وبعض المحاولات تشهد بهذا.
 - علاقة علم المناسبات بشروط المفسر: ويبدو ذلك في العلوم التي ينبغي للمفسر الأخذ بها، وعلم المناسبات من العلوم التي يجب على المفسر الأخذ بها، بل والتوسع فيها.
 - علاقة علم المناسبات باتجاهات التفسير: لا يخضع علم المناسبات لاتجاه معين بل هو يسايرها جميعا، لأنه يكشف عن علاقة الكلام بعبئه ببعض، وقد تكون هذه العلاقة إما في المعاني أو المباني، فإن كانت في المعاني فقد تكون المناسبة نفسية أو اجتماعية أو أخلاقية...، وإن كانت في المباني فقد تكون في النظم من ناحية الترتيب والدقة، ولهذا كان لعلم المناسبات القرآنية أثرا واسعا وكبيرا في تجلية معاني القرآن الكريم وفهمه.

- كما سائر تطور علم المناسبة علم التفسير في جميع مراحلها كما سنرى ذلك في الباب الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وخلاصة هذا المطلب وإجابة عن التساؤلات التي طرحناها فنقول:

أن أصول التفسير قابلة للتجديد أيضا شأنها شأن العلوم الأخرى، حيث يمكن الزيادة عليها والإنقاص منها وترتيب عناصرها وتحرير مصطلحاتها، وتنقيتها مما خالطها مما ليس منها، وذلك بكشف العلاقة بين ما يستجد من علوم تخدم كتاب الله وما يتطور منها، وبين ما له علاقة بهذه الأصول، باعتبار أن أي تطور فيها يؤثر في هذه الأصول، ولعل أهم علم قابل للتطور والنمو وله علاقة وطيدة بالعملية التفسيرية، هو علم المناسبات، الذي له صلة بمناهج التفسير الحديثة، وله علاقة بقواعد التفسير، وبالعملية التفسيرية كخطوة من خطواتها، وله علاقة أيضا بآليات التفسير وأدواته، وباتجاهاته.

المطلب الثاني: التجديد في العملية التفسيرية وعلاقته بعلم المناسبات

كان قوام التفسير القديم على أمور لم تختلف عند واحد من الذين تعاطوا علم التفسير، وهي تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالسنة¹ وتفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين، وهذا هو الإطار العام لما عرف قديما باسم التفسير بالمأثور، وفي داخل هذا الإطار العام يدخل التفسير باللغة وسياق الآيات المفسرة والأحوال المرافقة لتزول الآيات الكريمة وغير ذلك مما فتح الله على كل مفسر من بركات القرآن الكريم، وقد جاء عن علي رضي الله عنه ما يوضح هذا المعنى الخاص بهذا الجانب عندما سُئل هل عنده من خصوصية في علم القرآن؟، فقد أخرج البخاري عن أبي جحيفة قال: سألت عليا رضي الله عنه هل عندك عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدا فهما في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: فكاك الأسير، ولا يقتل مؤمن بكافر²، والذي يفهم من الحديث أن التفسير كان يقتصر على فهم الآية أو مجموعة الآيات على ضوء معاني ألفاظ اللغة العربية، وشرح مفردات الآية وإعطاء مراد الله من الآيات بحسب فهم كل مفسر،

¹ - يختلف التفسير النبوي عن التفسير بالمأثور، ذلك أن التفسير النبوي ما وقف على رسول الله - صلى الله عليه - وما نسب إليه من أنه تفسير للآية، أما التفسير بالمأثور فهو كل ما أثر من تفسير القرآن بالقرآن، أو بالحديث أو من أقوال الصحابة.

² - صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، (ت: 256هـ - 870م)، في عدة مواضع، انظر مثلا: ج6/2662، طبع دار ابن كثير، بيروت، سنة: 1987م، تحقيق: د. مصطفى البغا. وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج9/65، طبع دار المعرفة، بيروت، سنة: 1379م، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب.

وربما كان أقدم تفسير على هذا المنوال هو تفسير مقاتل بن سليمان (150هـ)، وقد عرف التفسير بعد ذلك تطورا وتجديدا منذ القرن الثاني كما أسلفنا سابقا، ولا يخفي على أحد من الناس علاقة تطور علم المناسبات القرآنية بتطور العملية التفسيرية، حيث أُلّف في ذلك عدة أبحاث وكتابات.

ولعل المتبع لتاريخ التفسير وتطوره يدرك ذلك جليا في كتب التفسير المختلفة، فلقد ظهرت مدارس واتجاهات متعددة ومناهج مختلفة اعتمد فيها أصحابها وسائل وأدوات متنوعة، وأسس وقواعد جديدة، ساعدتهم في البحث عن مفاهيم جديدة ومعاني أوسع، حيث وظفوها في التفسير، فتطورَ التفسير من التفسير بالمأثور إلى التفسير بالرأي إلى التفسير العلمي إلى اتجاهات أخرى؛ خلص أصحابها من خلالها إلى معاني جديدة وإلى فهم أوسع تطلبتها كل مرحلة وأملتها كل مستجدات العصر، حيث كان لعلم المناسبات القرآنية أثر في كشف كثير من المعاني القرآنية الفريدة، وكأين من آية بان خطأ تفسيرها عند مراعاة المناسبة والسياق، مثل:

من المعاني المتبادرة إلى الذهن الذم المنسوب للشعراء في قوله تعالى: ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾¹، والحقيقة أنه ليس الكلام ذما للشعراء بحكم السياق والقرينة.

فالسباق هو نفي دعوى المشركين القائلة ببشرية القرآن واختلاقه، والسياق يبدأ من قوله تعالى: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾²، ففيه نفي لتقول القرآن وعدم إنزاله لا ذم للشعراء مطلقا؛ إذ في الشعر من الحكيم والأمثال وبدائع القول ما لا يأتي عليه المداد عدا، وذلك بقرينة قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من الشعر لحكمة"³، أي: قولاً صادقا مطابقا للحق.

قال الإمام الألويسي في "روح المعاني"⁴، في سياق تفسيره للآيات السابقة: «الظاهر من السياق أنها نزلت للرد على الكفرة الذين قالوا في القرآن ما قالوا».

والسياق في مجال تفسير القرآن لا يمكن الحديث فيه بمعزل عن علم المناسبة أو التناسب؛ لأنه قد ينظر إليه نظرة أعم، فيتجاوز المفسر النظر في لُحمة المقاطع المتصلة إلى ما هو أشمل من ذلك، وهو النظر في سياق

¹ - سورة الشعراء، الآيات: 223-224-225.

² - سورة الشعراء، آية: 210.

³ - خرجه البخاري في صحيحه 553/10، باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه، ح: 6145.

⁴ - الألويسي، روح المعاني، ج 19، ص: 147.

السورة كلها، وكيف انتظمت معاني يأخذ بعضها بحجز بعض، وهو في ذلك يوضح المناسبات الخاصة بين آية وأخرى داخل السورة موضع الدرس، أي: دون أن يطغى الاهتمام بالسياق الأعم على السياق الأخص¹. وقد يكون التناسب في الألفاظ كما يكون في المعاني أيضا، ويكون بين أجزاء الآيات كما يكون في فواصلها وتذييلها، إلى غير ذلك من أنواع المناسبات. كما سنرى في الباب الثاني من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

¹ - السياق وأهميته في سلامة الاستدلال، (مصدر سابق)، ص: 21.

الفصل الثاني

ضوابط التجديد في أصول التفسير ومراحله وعلاقته
بالاجتهاد ومصادره

المبحث الأول: ضوابط التجديد في أصول التفسير

لا شك أن التجديد المطلوب هو ذلك التجديد الذي له ضوابط وأسس يُبنى عليها، وإلا كان باطلاً، والقاعدة تقول أن ما بُني على باطل فهو باطل، فليس كل تجديد بغير المعنى المنضبط مقبول، فالسنة أن يقتل المجدد القديمَ فهما وإحاطة، وله بعد ذلك أن يبدع ويزيد وليس له أن يتدع ويعيد، وكل جديد ولد من رحم قديم، وعليه فإن من الواجب على المجدد في أصول التفسير أن يتبع خطوات راسخة، وأسس متينة، وطرق استدلال صحيحة، وأدوات وآليات سليمة، وفي هذا الصدد يقول الطاهر بن عاشور يحذر من مغبة الإقبال على هذا العلم من غير روية ولا تراث: «إن واجب النصح في الدين والتنبه إلى ما يغفل عنه المسلمون مما يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم، قضى عليّ أن أنبه إلى خطر أمر تفسير الكتاب، والقول فيه دون مستند من نقل صحيح عن أساطين المفسرين أو من إبداء تفسير أو تأويل من قائله إذا توفرت شروط الضلالة في العلوم... فقد رأينا تهافت كثير من الناس على الخوض في تفسير آيات من القرآن، فمنهم... من يضع الآية ثم يركض في مجالات من أساليب المقالات تاركا معنى الآية جانبا... وقد دلت شواهد الحال على ضعف كفاءة البعض لهذا العمل العلمي الجليل، فيجب على العاقل أن يعرف قدره وألا يتعدى طوره، وأن يرد الأشياء إلى أربابها، ويأتي البيوت من أبوابها»¹، والعلم كما قال الأولون: إما نقل مصدق أو استدلال محقق.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية ترد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؛ وإلا فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وظلم وجهل في الكليات، فيتولد فساد عظيم»².

وضوابط التجديد في علم التفسير من خلال علم المناسبات تشمل أيضا أصول التفسير، وهو الجانب النظري لهذا العلم كما تشمل أيضا الجانب التطبيقي له، وهنا نتكلم عن ضوابط التجديد في الشق الأول والذي يتناول أيضا عدة مسائل لها علاقة بعلم المناسبات القرآنية، وأتحدث هنا عن الضوابط التي لها علاقة بعلم المناسبات لا غير، وهي:

- 1- ضوابط التجديد في مناهج التفسير 2- ضوابط التجديد في قواعد التفسير 3- ضوابط التجديد في آليات وأدوات التفسير.

¹ - محمد الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد في الكتاب المجيد، ص: 31. من المقدمة.

² - الفتاوى، لابن تيمية، [203/19].

المطلب الأول: ضوابط التجديد في مناهج التفسير

لقد مرَّ التفسير بعدة مراحل عرف فيها هذا العلم تطوراً في مناهجه التي تعددت وتنوعت، حتى ربما أن لكل مفسر منهجاً خاصاً، وذلك لاختلاف مشاربهم ومثاربهم وثقافتهم، إثر متطلبات الفترة التي جاءت بعد النبي صلى الله عليه وسلم، ذلك أن المسلمين وقعوا في افتراق واختلاف أدى إلى خلاف فقهي كبير، وصراع مذهبي عنيف، كل يستدل بالقرآن والسنة بحسب الفهم الذي أوتي، وفي غياب ضوابط ومناهج موحدة، حيث كان التفسير من علوم الخواص ولم يكن لعامة المسلمين في مجالس الوعظ والإرشاد، بقي الحال كذلك من تقليد واجترار للأفكار السائدة، وربما بعضهم قد تأثر بالمذاهب الواردة، وخلق عند آخرين استلاب ثقافي وحضاري بكل ما ينطوي عليه من سلبيات وانحرافات، حتى القرن العشرين أين ظهرت طائفة من العلماء والمفكرين يدعون إلى إعادة النظر في كتاب ربهم قراءة وتدبراً وتفسيراً، متمثلين في ذلك شعار لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها.

ويعرف الدكتور إبراهيم الشريف المنهج ويحدد له مفهومين أحدهما: عام والآخر: خاص، «فأما المنهج بمفهومه العام فهو: الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تقيمن على سير العقل وتحدد عملياته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة، وأما بمفهومه الخاص فهو: - مقابلاً للاتجاه- يدل أساساً على الطريقة التي يسلكها المفسر ليحقق غاية الاتجاه الذي يرمي إليه، أي أنه الوعاء الذي يحوي أفكار الاتجاه»¹، وأعتقد أن أفضل منهج يضعه المسلمون لتفسير كتاب ربهم وفهم مراميهِ أن يكون نابعا من تراثهم الثقافي غير مستورد من ثقافات أجنبية، ويكون في إطار اجتهاد مسلميهم وباحثيهم المشهود لهم بالعدالة والإيمان، لعدم تمكن بعض الزنادقة والمحسوبيين على الإسلام أمثال أركون وأبي زيد.. وغيرهم ممن ليس لهم دين ولا يرقبوا في هذا الدين كرامة ولا تعظيم، يتلاعبون بقُدسية النصوص الشرعية ويَحْكُمُونَ وَيُحْكَمُونَ عقولهم على شريعتهم بدلا أن يَحْكُمُوا شريعتهم على عقولهم، وهم الذين سمو أنفسهم "حديثيين"، حيث وضعوا مناهج تُخدم طريقتهم المتلوي وانحرافهم البين.

¹ - اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، إبراهيم شريف، مكتبة القرآن الكريم للطبع والنشر والتصدير، مصر،

وذهب في هذا الاتجاه صنفان الأول مضل - وهم الصنف الذي ذكرنا- والآخر ضال، وهم أتباعهم الذين ينعقون خلفهم ويروجون لهم، وأما الوسط¹ فكان ديدن العلماء الأفاضل والباحثين الغيورين على دينهم وعلى كتاب ربهم.

وعليه فإن أي اجتهاد خارج الأطر الشرعية وخارج موروثنا الثقافي مرفوض، لا سيما إذا تعلق الأمر بديننا الحنيف وفهم كتاب ربنا الكريم، وليس الأمر كما يفهم بعض الناس في أننا منغلزون على ثقافات العالم؛ بل هذا لا يمنعنا من الاستفادة من ثقافات الآخرين، ولكن في الحدود الطبيعية لأمتنا التي ترتبط بتقاليد وعادات منضبطة نابعة من دينها الحنيف تختلف في جوهرها عن عادات وتقاليد الشعوب الأخرى، وبالتالي فإن استفادة حضارة من حضارات أخرى أمر وارد باعتبار أن هذه هي سنة الله في المجتمعات، ولكن في حدود ما تمليه طبيعة كل أمة.

ونزداد حرصاً في تصفية وتنقية هذه المناهج وهذه الثقافات كلما تعلق الأمر بديننا عموماً وبالأخص إذا كان منوطاً بتفسير القرآن الكريم الذي يعتبر المصدر الأول للتشريع الإلهي، فمناهج تفسير القرآن الكريم وتطويرها يحتاج إلى تضافر كل جهود أبناء هذه الأمة عبر عصور وأجيال، حتى يتمكنوا من وضع أسس وقواعد تمكنهم من فهم كتاب الله وخطاب القرآن الكريم الموجه للعالمين.

ولهذا عندما تطور التفسير عبر القرون الماضية وأطلق الناس العنان للعقل وحده للخوض في غمار تفسير كتاب الله، تطورت معه النظرة الناقدة والضابطة له، ففرق العلماء بين التفسير بالرأي المحمود والتفسير بالرأي المذموم الذي لم ينشأ على قواعد منهجية وشروط متينة، وأن التفسير بالرأي قول على الله بغير علم وهو منهي عنه²، واحتدم الجدل بين المحيزين والمانعين، وكل بأدلتهم يحاجج ويخاصم، كما رفضت بعض التفاسير المنتصرة لمذهب باطل بعينه أو طريقة منحرفة أو مدرسة زائغة كتفاسير الباطنية والمعتزلة، والروافض، وبعض الصوفية والفرق الكلامية... كما سنرى في الفصل القادم تحت مبحث مراحل التجديد في عصر التدوين.

بل إن النقد قد طال حتى بعض المناهج الجديدة كمنهج التفسير الموضوعي رغم الحاجة إليه كما يقول الدكتور يوسف القاسم: «مما لا شك فيه أن هذا النوع من تفسير القرآن الكريم نحن في أشد الحاجة إليه، وخصوصاً في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وتغيرت العادات والتقاليد عما كانت عليه

¹ - يعني الخيار.

² - محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، طبعة دار الكتب الحديثة، ط2، 1976م، ج1، ص: 256

من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرض أعمالنا على القرآن والسنة الشريفة وعمل السلف الصالح، فما وافق أخذنا به وما لا يوافق طرحناه وراء ظهورنا»¹.

حيث يرى البعض أن هذا العمل ليس تفسيراً لكتاب الله بقدر ما يكون دراسات قرآنية، حيث يبحث عن مواضيع معينة من مواضيع الحياة ليغوص بها في كتاب الله ويخرج بعد ذلك بإجابات وحلول لها، حيث لا يخفى على أحد من الباحثين في هذا المجال ما لهذا المنهج من تأثير في تجديد فهم القرآن الكريم وإبراز معانيه، وقد اتسقت بعدة ألوان وأقسام مثل: (التفسير الموضوعي الكشفي، والتجميعي، والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية...)، وكل نوع مستنده واحد هو علم المناسبات، إذ يعتمد على كشف الروابط والعلاقات بين أجزاء الكلام، وبين مواضيع القرآن الكريم سواء كانت في السورة الواحدة أو توزعت في القرآن الكريم كله، أو حتى بين السور والآيات، ويبدو أن تقسيم القرآن إلى مواضيع معينة وتفسيرها، هي الطريقة المثلى في الكشف عن خبايا هذا الكتاب، من تشريعات، وقواعد، وسلوك حميد، وكل ما من شأنه يفيد الناس في حياتهم، وما يتعلق بسلوكهم، وهذا ما يشعرنا بما للقرآن من صلة وثيقة بنظامنا الديني، والاجتماعي، والأخلاقي.

كما أن أهمية هذا المنهج تكمن في التصدي لمبادئ الشيوعية والإلحاد وبعض المادية، خاصة وأنها تدعي إطلاق الحرية، وتتهم الآباء بالغفلة والرجعية، وذلك من خلال إبراز مواضيع القرآن الكريم بصورة علمية جديدة، وبشكل يخدم القضايا المعاصرة، وي طرح الموضوع من جوانبه المختلفة، لتكتمل الصورة، وتقوم الحجة، على كل من يدعي فهم الحياة وحقيقة الإنسان.

كما تتجلى أهمية هذا المنهج في إبراز وجه من أوجه إعجاز هذا الكتاب المحكم المرتب ترتيباً يوحى بأنه من عند حكيم حميد، لا سيما إذا كانت أسباب التزول متعددة، وأزمة التزول متباعدة، حيث يظهر ذلك من خلال جمع الآيات، وصبها في موضوع واحد، كما هو الشأن في هذا المنهج من التفسير. ويرى الأستاذ أحمد رحمان أن أهمية التفسير الموضوعي تكمن في تحديده موضوع معين، وهو تنمة لرسالة الفقهاء².

ويمكن تلخيص أهمية هذا المنهج في الأمور التالية:

الأول: إبراز وجوه جديدة من إعجاز القرآن الكريم، فكلما جدت على الساحة أفكار جديدة - من

¹ - التفسير الموضوعي، يوسف القاسم (مصدر سابق)، ص: 10.

² - التفسير الموضوعي، أحمد رحمان، (مصدر سابق)، ص: 14.

مُعطيات التقدم الفكري والحضاري- وجدها المفسر جلية في آيات القرآن، لا لبس فيها ولا غموض، بعد تتبع مواطن ذكرها فيه، فيسجل عندها سبق القرآن إليها، ويدلل بذلك على كونه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه ودلائل إعجازه.

الثاني: التأكيد على أهمية تفسير القرآن بالقرآن، الذي هو أعلى، وأجل أنواع التفسير، إذ قد يوجد من لا يلجأ إلى القرآن عند إرادة إيضاحه وتفسيره لقصور فيه، أو تقصير منه، وبالتفسير الموضوعي ندرك أهمية هذا اللون من التفسير فتزداد عنايتنا به، وتتعاقد جهودنا لبيان، فنكفي بذلك الوقوف عند كثير من مشكل القرآن، أو مواطن الخلاف بين علماء الأمة في تفسير آياته، ونورد ما يوضح المراد ويشفي العليل ويروي الغليل بالقرآن نفسه.

الثالث: إن تجدد حاجة البشرية، وبروز أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ولا رؤية الحلول لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، إذ عندما نجابه بنظرة جديدة، أو علم مستحدث، فإننا لا نقدر على تحديد الموقف من هذا العلم، وتلك النظرية، وحل المشكلة القائمة، وبيان بطلان مذهب، إلا عن طريق تتبع آيات القرآن، ومحاولة استنباط ما يجب نحو كل أولئك.

وإن جمع أطراف موضوع ما من خلال نصوص القرآن والسنة، يمكن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصل إلى تنظير أصول لهذا الموضوع، وعلى ضوء هدايات القرآن ومقاصده نستطيع معالجة أي موضوع يحدّد على الساحة.

الرابع: إثراء المعلومات حول قضية معينة، فغالباً ما يُطرح موضوع أو قضية أو فكرة أو مشكلة للبحث، ويبقى أيُّ من ذلك محتاجاً إلى إشباع، ومزيد من الدراسة، ويتم تحقيق ذلك من خلال التفسير الموضوعي بحيث تتبين لدوي الشأن أدلة جديدة، ورؤى مستفيضة، وتفتيق لشيء من أبعاد القضية المطروحة.

الخامس: تأصيل الدراسات أو تصحيح مسارها: حيث نالت بعض علوم القرآن حظاً وافراً من البحث والدراسة، إلا أن هناك علوماً آخر برزت جديدة تحتاج إلى تأصيل بضبط مسارها حتى يؤمن عثارها مثل: (علم المناسبات)، و(الإعجاز العلمي في القرآن)، فقد كثر الكاتبون حوله إلا أنه بحاجة ماسة إلى ضبط قواعده ليُنحَب الإفراط فيه أو التفريط، وهذا إنما يتم عبر دراسة موضوعية لآيات القرآن وهداياته في هذا المجال.

وهناك علوم ودراسات قائمة منذ القدم لكن المسار الذي تنتهجه يحتاج إلى تصحيح وتعديل، وإعادة تقويم، كعلم التاريخ الذي أخذ منهجاً في سرد الوقائع والأحداث من غير تعرض لسنن الله في الكون والمجتمع، علماً بأن هذه السنن قد أبرزتها آيات القرآن خلال قصصه بشكل واضح، وهناك انحرافات مبثوثة في كتب التاريخ تخالف ما نص عليه في القرآن الكريم، ولن يتم تعديلها وتقويم مثل هذه العلوم إلا بطريق استقصاء منهج القرآن في عرضها ودراساتها.¹

وكل هذا إنما يعود للحرص على أن تكون هذه المناهج مؤصلة شرعياً، ومقبولة علمياً، خاضعة لضوابط محكمة ولشروط منضبطة.

ويمكن تلخيص هذه الضوابط في نقاط:

- أن تكون هذه المناهج مستلهمة، ونابعة من تراثنا الثقافي وموروثنا الرباني، أصيلة أصالة هذا الكتاب.
- أن تخضع لضوابط منهجية معتبرة لا تخرج عن أصول كلية، يقول الزركشي: «فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها وأدعى لضبطها»²، وأن مما أجمع عليه أولو الاختصاص من العلماء والمفسرين.
- أن تكون مناهج سليمة خادمة لكتاب الله، يستفاد منها في الوصول إلى معارف وعلوم جديدة، وفهم ما استشكل على الناس من أمور دينهم وديناهم.

المطلب الثاني: ضوابط التجديد في قواعد التفسير

إن من أهم الأمور في أصول التفسير قواعده التي هي كما قلنا سالفاً الأسس والقضايا الكلية التي تضبط عملية تفسير القرآن، قال الزركشي: «فإن ضبط الأمور المنتشرة المتعددة في القوانين المتحدة هو أوعى لحفظها وأدعى لضبطها، وهي إحدى حكم العدد التي وضع لأجلها، والحكيم إذا أراد التعليم لا بد أن يجمع بين بيانين: إجمالي تتشوف إليه النفس، وتفصيلي تسكن إليه»³، وتمتاز القواعد بالإيجاز في الصياغة مع عموم المعنى وسعة استيعابها للجزئيات، وسهولة الحفظ والإشارة إلى المناط والعلة.

¹ - مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضيري، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.

² - المنشور في القواعد، للزركشي، ج1/ص: 65.

³ - المنشور في القواعد، للزركشي، مصدر سابق، ج1، ص: 65.

والحاصل أن من عرف قواعد التفسير انفتح له من المعاني القرآنية ما يجلب عن الوصف، وصار بيده آلة يتمكن بها من الاستنباط والفهم مع ملكة ظاهرة تصيره ذا ذوق واختيار في الأقوال المختلفة في التفسير¹. وقد ذكرنا سابقا بعض المؤلفات في قواعد التفسير في الجانب النظري، وأما المصدر التطبيقي لها فهي كتب المفسرين المؤصلة كتفسير الطبري، والمحزر الوجيز لابن عطية، وأضواء البيان للشنقيطي.. وبعض التفاسير الحديثة.

ولقد سلف الذكر أيضا أن القواعد نوعان: قواعد عامة يستفاد منها في فهم القرآن وجزئياته كقاعدة المفرد المضاف يفيد العموم كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾²، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾³، والقصود نعم الله.

وقواعد ترجيحية يستفاد منها في الموازنة بين الأقوال، ومعرفة الراجح منها والمرجوح؛ كقاعدة: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه" كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾⁴، أي بعلمه لأن الله افتتح الآية بالعلم وختمها بالعلم.

وللإشارة هنا أن العلاقة واضحة بين السياق والمناسبة، وهذا أحد أوجه التشابه أو التداخل بين علم المناسبات وقواعد التفسير، والسياق في مجال تفسير القرآن لا يمكن الحديث فيه بمعزل عن علم المناسبة أو التناسب؛ لأنه قد ينظر إليه نظرة أعم، فيتجاوز المفسر النظر في لُحمة المقاطع المتصلة إلى ما هو أشمل من ذلك، وهو النظر في سياق السورة كلها، وكيف انتظمت معاني يأخذ بعضها بحجز بعض، وهو في ذلك يوضح المناسبات الخاصة بين آية وأخرى داخل السورة موضع الدرس، أي: دون أن يطغى الاهتمام بالسياق الأعم على السياق الأخص⁵.

¹ - المصدر نفسه، ص: 67.

² - سورة الضحى، آية: 11.

³ - سورة إبراهيم، آية: 34.

⁴ - سورة المجادلة، آية: 07.

⁵ - السياق وأهميته في سلامة الاستدلال، الكاتب: عبد الرحمن بن عمر آل زعتري، الموقع: المنتقى الفقهي، ص: 21.

كما أن سعيد حوى عُني بدراسة الارتباط العضوي بين جميع سور القرآن ومحاوره ضمن موسوعته التفسيرية الكبرى: "الأساس في التفسير"، وقد استفاد من جهود صاحب الظلال وبعض القدماء، وأتى بلمحات ذكية في أحيان كثيرة، وهو من باب الإعجاز قلّ من طريقه.

وإن القيمة العلمية والعملية في اعتبار السياق والمناسبات عند فهم النصوص الشرعية تظهر جلية في جانبها العلمي والفكري في ترسيخ معاني الاعتدال والمرونة التي تتميز بهما الشريعة الإسلامية، وفي جانبها العملي في تحقيق سلامة العمل بالأحكام المستنبطة من تلك النصوص، وإنه بالرغم من أهمية هذا الموضوع؛ فإنه لم يحظ حتى الآن بعناية كافية في ميدان الدراسات الإسلامية وفقهيات اللغة، اللهم إلا بعض الجهود العلمية المحدودة.

وهناك قواعد أخرى كثيرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم المناسبات القرآنية، لها شواهد وفوائد، وأمّا من كان له الفضل في تفصيل هذه القواعد، فهو الشيخ حبنكة الميداني، حيث يذكر في كتابه: "قواعد التدبر الأمل لكتاب الله" حوالي أربعين قاعدة كلها تصب في هذا المعنى من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وهي قواعد شملت في تقديرنا جميع ما يحتاج إليه هذا المنهج من الحيلولة دون وقوع المفسر في الزلل والخطأ، فضلاً عن توضيح وتحلية المعنى المراد من آيات الكتاب العزيز، بل إن الشيخ في اعتقادنا لم يترك شاردة ولا واردة إلا أشار إليها، فكان كتابه بحق جامعاً مانعاً لهذه الضوابط والقواعد، التي تنتظر من يأخذ بها ويطبّقها، بل يحنثنا صراحة على ذلك فيقول: «وفي هذه الرسالة كتبت هذه القواعد، وشرحتها بالأمثلة، وقد أكون في بعضها مسبوقة إلى كتابته أو الإشارة إليه، وقد يكون بعض المفسرين قد وضع في تصوره مراعاة بعضها، إلا أنني لم أجد من راعاها كلها مراعاة تامة في كل ما تدبر من كلام الله، كما أن بعض هذه القواعد لم يحظ بعناية أحد من المفسرين، وأمام الباحثين المتدربين لكتاب الله طريق طويلة، قد لا يصلون إلى غايتها مهما بذلوا من جهد وكد، إلا أنهم - من دون شك - سيكتشفون بالبحث كنوزاً عظيمة من هذا التريل الرباني العظيم»¹ ولا بأس أن نشير إلى بعض هذه القواعد على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر: إن أول قاعدة تناولها هذا الكتاب هي مراعاة ارتباط الجملة القرآنية بموضوع السورة،

¹ - قواعد التدبر الأمل، حبنكة الميداني، الطبعة الثالثة، دار القلم، سنة: 2004م، ص: 12.

وارتباطها الموضوعي بما تفرق في القرآن المجيد¹، وهي قاعدة نلمسها في محاولات بعض المفسرين في كشف تلك الروابط والمناسبات بين الآيات والسور، وبين مقاطع السورة كما هو الشأن في تفسير سعيد حوى، وتفسير عبد الله دراز، وضرب لهذه القاعدة أمثلة من القرآن ليستدل على صحة ما يذهب إليه، وأورد في القاعدة الثانية حديثا يدور حول الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، حيث سمّاها: وحدة موضوع السورة القرآنية²، وضرب لذلك أمثلة بسورة الرعد، وسورة العلق، والقيامة، وجاء حديثه في القاعدة الرابعة عن بيئة نزول النص البشرية، والمكانية، والنفسية، والفكرية، والفردية، والاجتماعية³، وهي أبعاد متعلقة بجو النزول وأسبابه، ويختم هذه القواعد بما أو ردنا سابقا عن القراءات، ويحددها في القراءات العشر، ويعني بها مراعاة القراءات المتواترة، مستدلا على كل قاعدة يذكرها في الكتاب بأمثلة من القرآن الكريم، يسرد نماذج ومقاطع لبعض التفسيرات التي تصب في الموضوع المطروح، وتخدم المعنى المقصود، وفيما ذكرنا من القواعد والضوابط كفاية، والله المستعان.

واعتمادا على ما قررناه سابقا من تعريف التجديد وتحديد مجالاته، فإن تنقية وتصفية قواعد التفسير من قواعد أخرى خالطتها، مثل قواعد أصول الفقه، يعتبر في تقديرنا من التجديد المطلوب أيضا.

واعتمادا على ما سبق يمكن أن نوجز ضوابط التجديد في قواعد التفسير في نقاط:

- 1- تحرير مصطلح قواعد التفسير تحريرا واضحا وصریحا.
- 2- تصفية وتنقية قواعد التفسير مما خالطها من قواعد العلوم الأخرى ونسبتها إلى علم التفسير، مثل قواعد أصول الفقه واللغة وغيرها.
- 3- إعمال الاجتهاد والنظر في التفاسير السابقة - منذ عصر النبوة - واستخراج بعض القواعد التي لا زالت عالقة وتحديد مسمى لها يليق بها كقاعدة في التفسير.
- 4- إضافة بعض القواعد التي تخدم التفسير وتراعي تطور حركته ومرونته، خاصة إذا تعلق الأمر بتطور بعض علوم القرآن الكريم مثل علم المناسبات القرآنية الذي لم يأخذ حظه من الاهتمام.

1 - المصدر نفسه، ص: 13.

2 - المصدر نفسه، ص: 27.

3 - المصدر السابق، ص: 53.

المطلب الثالث: ضوابط التجديد في آليات وأدوات التفسير

نقصد بآليات التفسير تلك الأدوات والإمكانات التي ينبغي أن تتوفر للخوض في العملية التفسيرية، من مثل ما يجب من علوم التي ينبغي للمفسر الإمام بها، وشروط يتصف بها، وطُرُق فَهْمٍ يتقيد بها، يحكمها في العملية التفسيرية.

لقد مر التفسير بحقبة فوضى وضياع ضاعت معه الحقائق والمعاني الصحيحة والفهوم السليمة إلى حد التناقض، حتى قال قاضي البصرة عبيد الله بن الحسن: «كل ما جاء به القرآن حق، ويدل على الاختلاف، فالقول بالقدر صحيح وله أصل في الكتاب، والقول بالإجبار صحيح وله أصل في الكتاب، ومن قال بهذا فهو مصيب، ومن قال بهذا فهو مصيب لأن الآية الواحدة ربما دلت على وجهين مختلفين، واحتملت معنيين متضادين»¹، ويقول ابن تيمية: «إن الكتب المصنفة في التفسير مشحونة بالغث والسمين، والباطل الواضح والحق المبين»²، وربما عضده ابن حنبل حينما أقر أن التفسير إحدى الثلاثة التي لا أصل لها، كل هذا عائد إلى غياب آليات واضحة لتناول آيات الكتاب بالتفسير.

ومن جانب آخر، فإنه بالرغم من تقديرنا لهذه التفاسير، وعظيم احترامنا لجهود علمائنا فيها، إلا أنه يجب علينا ألا نتخذها قوالب جاهزة جامدة، ومنتاسي بذلك روح العصر الذي نعيش فيه، فإن الله سبحانه وتعالى تعبدنا بألفاظ كتابه الكريم ولم يتعبدنا بألفاظ المفسرين وأقوالهم، لذلك فإنه لا بد لنا أن نتعلم فن الجمع بين الأصالة والمعاصرة لأنهما أمران متلازمان "فإن من ينشد الأصالة بدون المعاصرة، كمن ينشد المعاصرة بدون الأصالة، الأول مقلد والثاني تابع، بل كلاهما تابع ومقلد"³.

كما عبر الإمام الطوفي عن هذه الحقيقة فقال: «إنه لم يزل يتلجلج في صدري إشكال علم التفسير، وما أطبق عليه أصحاب التفاسير، ولم أجد أحدا منهم كشفه في ما ألفه، ولا نحاه في ما نحاه، فتفاضتني النفس الطالبة للتحقيق، الناكبة عن جمر الطريق، لوضع قانون يعول عليه ويصار في هذا الفن إليه»⁴، ولا يخفي على أحد من الدارسين أن هذه الآليات والأدوات كانت ماثورة في التفاسير، منتشرة في كتب اللغة والبلاغة، وأصول الفقه وغيرها من العلوم حتى ادعى بعض الناس أن بعض العلوم كقيلة بضبط العملية

¹ - تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص: 55.

² - مقدمة في أصول التفسير، ص: 33.

³ الجابري، محمد عابد: التراث والحداثة، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1991م)، ص: 60.

⁴ - الإكسير في علم التفسير للطوفي ص: 27.

التفسيرية، مثل السكاكي في مفتاح العلوم حيث يؤكد أن علم أصول الفقه، والبلاغة مؤهلين لضبط العملية التفسيرية، فيقول: «ولله در التزليل، لا يتأمل العالم آية إلا أدرك لطائف لا تسع الحصر... لأن المقصود لم يكن مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان، وأن لا علم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ منهما على المرء لمراد الله من كلامه»¹، وكأنه يحصر آليات وأدوات التفسير في البلاغة وأصول الفقه، مع أن لكل علم قواعده وضوابطه.

وقد حدد الطوفي الصرصري جملة من العلوم التي هي بمثابة آلة للتفسير على المفسر الأخذ بها، وهي: علم الغريب، وعلم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم القراءات، وعلم الحكمة، وعلم أصول الدين، وعلم التاريخ، والوعظ، والناسخ والمنسوخ، وأصول الفقه، والفقه، وعلم المعاني، والبيان²، وذكر الإمام السيوطي نحو ذلك أو يزيد³.

وقد أشار غير واحد من المتأخرين إلى أنه يمكن إضافة علوم أخرى وآليات جديدة لفهم القرآن الكريم، تماشياً مع ظهور مناهج جديدة واتجاهات متنوعة، كالتفسير الاجتماعي، والتفسير العلمي وغيرها وما تحتاجه المناهج الحديثة كمنهج التفسير الموضوعي الذي يركز أساساً على علم المناسبات التي عرفت بدورها تطوراً كبيراً، وربما هي السمة السائدة في تفاسير المعاصرين الذين اعتبروا السياق، والتناسب بين الآيات والمقاطع والسور، وكذا السباق واللاحق والانسجام وغيرها مما له صلة بعلم المناسبات كركيزة يعول عليها في بناء فهم جديد للقرآن الكريم، وإضافات في معانيه.

واقترحوا إضافة علم المناسبات وعلم الاجتماع... وبعض العلوم الدقيقة؛ بل وإن الناظر والمدقق في بعض العلوم أو المباحث في علوم القرآن يكتشف من خلال قضية التناسب وأجواء التزليل رابطاً دقيقاً وخفياً يجمع تلك الأحداث التي وقعت حين التزليل، بالإضافة طبعا لأسباب التزول، وتناسب فواصل الآيات، وتناسب تذييلها، حيث يصور للمفسر جو التلقي فيعينه على فهم الخطاب، ويحمّله محملاً صحيحاً واضحاً.

وسأعطي مثالا حيا على ذلك ذكرته في بحثي المقدم لنيل شهادة الماجستير سنة: 2009م، والمتعلق بمكان وزمان نزول سورة الحج، حيث جاء فيها: جو ومناسبات التزول، ودوره في الكشف عن موضوع

¹ - مفتاح العلوم للسكاكي ص/421.

² - انظر الإكسير في علم التفسير، للطوفي الصرصري، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ص: 17-22.

³ - السيوطي، الإتقان، طبعة دار الندوة الجديدة، بيروت، ج2/ ص: 181.

السورة الرئيس:

مكان النزول: إذا كان لأسباب النزول، دورا هاما في فهم وتحديد معاني آيات وسور القرآن الكريم، فإنه لا يخفى أن مكان النزول أيضا له أهميته في فهم هدي الكتاب، ومعرفة مواطن النزول، والأجواء التي سادت تلك المنطقة، وهي أيضا مهمة في مساعدة قارئ القرآن على تدبر المعنى، وترجيح بعض المسائل على أخرى، فتزول القرآن في بيئة معينة، له خلفياته في فهم المعنى الذي سيقته له تلك الآيات، وله ذلك الأثر النفسي على المتلقي، إذ أن للقرآن النازل علاقة بالمكان الذي نزل فيه، تجعل القارئ والمتدبر لآيات القرآن يتصور حدودا معينة، ويرسم خطة محددة تجعله يعمق النظر في المعنى، ويعيش تلك الأجواء، إن كانت في حالة حرب أو سلم، قحط أو ري، أو غير ذلك، من الظروف المحيطة بواقع التنزيل.

وإذا اعتبرنا أن معرفة القرآن المكي والمدني، والذي له صلة مباشرة بفهم القرآن، وتحديد مفهومه، ومدلول آياته، صُنّفَ على أساس نزوله حسب المنطقة الجغرافية، فهو بهذا الاعتبار يخضع في تقسيمه هذا إلى أن كل ما نزل بمكة، فهو مكي ولو كان في العهد المدني، وما نزل بالمدينة فهو مدني ولو كان بعد الهجرة.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أفردته العلماء بكتب خاصة أو مباحث معينة، كما فعل السيوطي والزرکشي... وغيرهما، كما أن هذا الموضوع له علاقة بالتفسير الموضوعي، من حيث إن القرآن المكي يعالج موضوعات معينة، كالعقيدة، والقصص، وغيرها، وإن القرآن المدني يعالج مواضيع مختلفة عما يعالجه القرآن المكي، كالتشريع والأحكام، وغيرها، وفي امتزاجهما يظهر ذلك الإعجاز الرائع، وهو تناسب مواضيعهما، وصبها في موضوع آخر مختلف، تدوب فيه تلك الفوارق ويتقلص فيه ذلك الزمان، فيخرج من صلبهما جوهرًا مسبوکا، ومحورا تدور حوله تلك المواضيع والأفكار.

ولقد اختلف العلماء والمفسرون في تحديد مكان نزول سورة الحج، ولكن الراجح ما ذهب إليه الألوسي وابن عطية الأندلسي كما سنرى لاحقا، لأن معرفة مكان النزول تساعد المفسر على ترجيح معنى على آخر، خاصة إذا كان الموضوع مُشكلا من مجموع تلك الآيات المختلف فيها.

ولقد أشرنا سابقا إلى هذا الاختلاف، فعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: "أها مكية، إلا ثلاث آيات"¹، وقال ابن عطية: "وعدّ النقاش ما نزل منها بالمدينة عشر آيات"²، فمنهم من يرى أنها نزلت بمكة، ومنهم من يرى أنها نزلت بالمدينة، ومنهم من يرى أنها نزلت في الطريق بين مكة والمدينة.

يقول الطاهر بن عاشور: «ليس هذا القول مثل ما يكثر أن يقولوه في بعض آيات من عدة سور: إنها نزلت في غير البلد الذي نزل فيه أكثر السورة المستثنى منها، بل أرادوا أن كثيرا منها مكى، وأن مثله أو يقاربه مدني، وأنه لا يتعين ما هو مكى وما هو مدني، ولذلك عبروا بقولهم: هي مختلطة»³

وقال ابن عطية: روى عن أنس بن مالك أنه قال: "نزل أول السورة في السفر فنادى رسول الله ﷺ بها فاجتمع الناس إليه، فقال: أتدرون أي يوم هذا؟"، فبهتوا!! فقال: "يوم يقول الله يا آدم أخرج بعث النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون"، قال: فاغتم الناس، فقال رسول الله: "أبشروا فمنكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل"⁴، وإنما أراد ابن عطية بقوله في السفر يعني بعد الهجرة.

وقال القرطبي: «وهي من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحريريا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشاهما، مختلف العدد»⁵.

وجاء عند الألوسي أنها نزلت في طريقهم إلى غزوة بني المصطلق، وهذا يوافق قول من قال أنها نزلت في السفر، أو بعد الهجرة.

وقد روى الإمام أحمد في المسند عن هشام قال رسول حدثنا قتادة عن الحسن بن عمران بن حصين: "أن رسول الله ﷺ قال: - وهو في بعض أسفاره - وقد تفاوت بين أصحابه السير رفع بهتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾، حتى بلغ آخر الآيتين، قال فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشبوها حوله، قال: أتدرون أي يوم ذاك؟ قال ذلك يوم يُنادى آدم فيناديه ربه تبارك وتعالى: يا آدم ابعث بعثا إلى النار، فيقول: يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسع وتسعون في النار، وواحد في الجنة، قال: فأبلس أصحابه،

¹ - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج17/16 ص: 180.

² - المحرر الوجيز، ابن عطية، (مصدر سابق)، ج4، ص: 105.

³ - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، (مصدر سابق)، ج17/16، ص: 180.

⁴ - المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسي، (مصدر سابق)، ج4، ص: 105.

⁵ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مج12، ص: 1.

حتى ما أو ضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: اعملوا وابشروا فو الذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرته، يأجوج ومأجوج، تسع مائة وتسع وتسعين في النار، وواحد في الجنة، ومن هلك من بني آدم، وبني إبليس، قال فأسرى عنهم، ثم قال: اعملوا وابشروا، والذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير، أو الرقمة¹ في ذراع الدابة².

وقد يسأل سائل عن سبب جمع النبي ﷺ الناس حوله، وتأذينه فيهم بسورة الحج، وهم في حالة من سفر على الأرجح، ومعروف ما يلاقه المسافر من عناء وتعب وإرهاق خلال السفر، فماذا أراد بهم نبيهم ﷺ، وهو كما وصفه ربه تبارك وتعالى بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم؟ خاصة أن الحديث كان عن القيامة وأهوالها، والساعة وقيامها، والناس وأحوالهم فيها، وفيها كل ما يحرك عواطفهم، ويهيج مشاعرهم، ويخوفهم من ذلك اليوم؟! والجواب عن هذا التساؤل، هو أن النبي ﷺ لم يبعث ليشدد على الناس، بل بعثه الله رحمة للعالمين، وكيف يفعل بهم ذلك، وهو الذي يقول "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا"، بل أراد لهم الخير كل الخير، يظهر لنا ذلك من خلال عدة أحاديث رويت، ففي عمله هذا عدة لطائف نذكرها بإيجاز:

- أراد رسول الله ﷺ أن يصور لهم حالة من أحوال القيامة وأهلها، هي أشبه بما هم فيه من جهد، ومشقة، وتعب، من قسوة ما يلاقونه في هذا السفر من أشعة الشمس، التي تلفح وجوههم، ومن الرياح المحملة بالحصى التي تملأ أجفانهم وآذانهم، وشدة ما يجدونه فيه، من قلة مشرب ومطعم، وما يساورهم من كلل وملل.

- إن مصاحبة تذكيرهم بهذه المواقف حال السفر، مما يثبت القول في نفوسهم ووجدانهم، ويرسخ الفهم والعلم في عقولهم، ويحول دون نسيان مثل هذه المواقف عند توليهم إلى ديارهم وأوطانهم، مما يجعلهم دائمو التذكر والتفكير، في ما سمعوا وشاهدوا، وما حصل لهم من فزع وخوف، عند ذكر النبي ﷺ لتلك الأهوال، ومشاهدها.

- أراد الرسول ﷺ أن ينشطهم ويحرك هممهم، ربما لما لاحظ عليهم من إعياء، وتخاذل في المشي والحركة، ذلك أن الفرد قد يحتاج أحيانا لمنبه قوي يحرك فيه العزيمة، ويوقظ فيه الحماس والهمة، للعمل، والجد، والاجتهاد.

¹ - يعني العلامة.

² - رواه أحمد في أول مسند البصريين من مسنده، تحت رقم 19055.

- أراد النبي ﷺ أن يسلي أصحابه، ويشرهم بأن لهم أجرا عظيما، وأن المتقين منهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن الله قصد بأن معظم أهل النار، هم يأجوج ومأجوج، يظهر ذلك من خلال حديث خلق آدم، وأمر الله له بأن يخرج من صلبه أهل النار، أو خرج النار فقالوا: وما خرج النار فقال: "من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة..."¹.
- وقد يكون أن النبي قد رأى منهم بعض التقصير في الواجبات، أو بعض التهاون في الشعائر، أو بعض التخاصم، فأراد أن يذكرهم بتقوى الله تعالى، ويحثهم على امتثالها، وينادي فيهم بما يمنع عنهم هول زلزلة الساعة، وشدتها.
- كما أن فيه التبشير بالنصر المبين، وأن الله يدافع عن الذين آمنوا، ولا سيما أنهم يريدون حربا مع المشركين، وفي هذا التذكير، وهذه البشرى بالنصر، دافع قوي، ومحفز لهم على الإقبال على هته الحرب غير آبهين غير خائفين.
- يمكن استخلاص من هذه القضية منهج تربوي نفسي، في طريقة وكيفية، واستغلال الفرصة المناسبة لإعطاء القائد الدفع القوي لأتباعه للإقبال على الأعمال العظيمة، بتحريك نفسي قوي، في أوقات معينة، حيث تصاحب صورته حال المتلقي، أو السامع، آخذة بعين الاعتبار خلفية هذا المتلقي.
- وكل هذا نتيجته واحدة في تقوى الله تعالى، وهو الموضوع الرئيس لسورة الحج، والله أعلم.
- وأنا بدوري أؤمن هذا المسعى وهذا الاقتراح خاصة إذا تعلق الأمر بإضافة علم المناسبات كعلم من العلوم التي ينبغي للمفسر الأخذ به، وليس فقط الاهتمام به بل الغوص في كل جزئياته، وتفصيله للصلة التي ترتبط أطرافه المترامية، وإلى أقسامه وفصوله المتعددة، لأنه على خلاف من العلوم الأخرى اللصيقة بالتفسير، فهي لا تشهد تطورا أو نموا، فأسباب التزول مثلا لا يمكننا الزيادة فيها، وكذلك الناسخ والمنسوخ.. وغيرها، إلا أننا يمكن أن نصحح طرقها ونضعفها، في الوقت الذي عرف فيه علم المناسبات تطورا سريعا، ونموا مذهلا له علاقة بالمعاني القرآنية، فضلا عن كونه الركن الهام في المناهج الجديدة للتفسير، مثل التفسير الموضوعي، والمتمثل في كشف العلاقات والروابط بين أجزاء السور والآيات.
- وعلاوة على ذلك فلا بد للمفسر من صحة الاعتقاد، ولزوم سنة الدين، وصحة المقصد فيما يقول، وأن يكون ممتلئا من عدة الإعراب فلا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام، وأن يكون ملما بعلم أحوال البشر، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن الكريم.

¹ - رواه أحمد، في المسند، وسيأتي تخرجه بتمامه.

المبحث الثاني: مراحل التجديد في أصول التفسير ومصادره:

ونعني بالمصادر ذلك المرجع والمعين الذي يستقى منه التفسير والفهم، أما الأصول فهي ما يبنى عليه هذا الفهم من مناهج وطرق وقواعد سواء مشار إليها أو مستنتجة من عملية التفسير. ولا أريد أن أتحدث في هذا المقام عن تاريخ تطور حركة التفسير بقدر ما أريد أن أشير إلى أهم الأصول التي اعتمدها أصحاب كل مرحلة والتركيز على مصادر ومناهج كل مرحلة ولم أتقيد في هذا التقسيم بما يعرف بالمراحل الأربعة¹ وهي مرحلة التأسيس ومرحلة التأصيل ومرحلة التفريع، ومرحلة التجديد، بل قسمت المراحل تقسيم تقليدي يبدأ بعهد النبي ثم الصحابة ثم التابعين، ثم مرحلة التجديد، وهي بدورها امتداد لهذه المراحل حتى العصر الحديث.

المطلب الأول: عهد النبي ﷺ

مما لا شك فيه أن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم علاقة إيضاح وتبيين، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾². وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾³. ونوعية بيان النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن الكريم تتجلى في: تبيين حلاله وحرامه، أو تخصيص عامه، أو تقييد مطلقه، أو تفسير لفظه، ومن أمثلة ذلك: المثال الأول: قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾⁴، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر⁵. المثال الثاني: قال تعالى: ﴿وَأَيُّ فَضْلَتِكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾⁶، فهذه الآية خرج العموم إلا أنه أريد بها الخصوص بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ألا إنكم وفيتم سبعين أمة"¹.

¹ - عند الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، ص 35.

² - سورة النحل، آية: 44.

³ - سورة النحل، آية: 64.

⁴ - سورة البقرة، آية: 238.

⁵ - وهو قول علي بن أبي طالب، فقد روى الترمذي والنسائي من طريق زر بن حبیش قال:

قلنا لعبيدة: سل علياً عن الصلاة الوسطى، فسأله فقال: كنا نرى أنها الصبح، حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب: (سَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوَسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ).

⁶ - سورة البقرة، آية: 47.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿فاقطعوا أيديهما﴾²، حيث بين النبي صلى الله عليه وسلم بأن القطع يكون إلى الكوع.

المثال الرابع: قوله تعالى: ﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾³، حيث حددهما النبي صلى الله عليه وسلم: بسواد الليل وبياض النهار.

المثال الخامس: قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾⁴، حيث فسر رسول الله ﷺ الظلم في هذه الآية بالشرك.

وخلاصة القول في تفسير النبي صلى الله عليه وسلم هو أنه صلى الله عليه وسلم لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى فسر من القرآن ما يحتاج إليه المسلمون من أمور الحلال والحرام⁵.

¹ - (حديث مرفوع) قَالَ ابْنُ مَاجَةَ فِي سُنَنِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ بْنِ خِدَاشٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَلِيَّةَ، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: "إِنَّكُمْ وَقَيْتُمْ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ"، وَقَالَ أَيْضًا قَبْلَ هَذَا: حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ مُحَمَّدٍ النَّحَّاسُ الرَّمْلِيُّ، وَأَيُّوبُ بْنُ مُحَمَّدٍ الرَّقِّيُّ، قَالَا: حَدَّثَنَا ضَمْرَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، عَنْ ابْنِ شَوْذَبٍ، عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تَكْمُلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةً نَحْنُ أَحْرَبُهَا وَخَيْرُهَا". وَخَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ، عَنْ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ، عَنْ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ بَهْزِ بِهِ، وَلَفْظُهُ: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ سِوَةَ آلِ عِمْرَانَ آيَةَ 110، قَالَ: "إِنَّكُمْ تُتَمُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ". وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ رَوَاهُ بِنَحْوِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ، عَنْ بَهْزِ دُونَ ذِكْرِ الْآيَةِ. وَهُوَ فِي مُسْنَدِي الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَأَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدَ بْنَ هَارُونَ الرَّوْيَانِيَّ لِبَهْزِ، وَخَرَّجَهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ وَصَحَّحَهُ.

² - سورة المائدة، آية: 38.

³ - سورة البقرة: آية: 187.

⁴ - سورة الأنعام، آية: 82.

⁵ - التطور التاريخي لحركة التفسير، محمد بن جماعة، ص: 03.

وقد كان منهج رسول الله في غالبه تفسير "عملي" حيث ترجم رسول الله ﷺ آيات القرآن الكريم إلى أفعال وأقوال، بمعنى أنه حين يرد في القرآن مصطلح أو لفظ خاص، مثل الحج أو الصلاة، أو خلق من الأخلاق أو الآداب، تأتي أفعال النبي وممارساته مبينة للمراد من هذا الأمر، أو مطبقا له، وليس بالضرورة في هيئة حديث تفسيري، أما ما أثر من أحاديث نبوية في التفسير فلم يتجاوز شرح بعض المفردات والتراكيب.

ولقد كانت أصول التفسير في عهد النبي ﷺ هي نفسها مصادره، فكانت قاعدته "الوحي" ومنهجه "الوحي"، ومصدره "الوحي" باعتبار أنه هو صاحب الرسالة ومبلغها، وله أيضا خصوصية لم تكن لنبي قبله وهي مسألة التشريع، فقد كانت السنة -الوحي- هي المصدر الثاني له -للتفريق بين القرآن والسنة-، وقد قال النبي ﷺ: "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"¹، ولا شك أن ما خرج من فم رسول الله إلا حقا، وعليه فإن الرسول هو الذي وضع اللبنة الأولى لمنهج التفسير، وقواعده، حيث تنوعت تفاسيره ﷺ بين تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وهذا ما يعرف بالتفسير النبوي، ولكن مرجعه عموما "الوحي" والوحي فقط.

وعرف تفسير النبي ﷺ تطورا منذ بداية الدعوة في المدينة إلى نهايتها في مكة، حيث نُسخ ما نسخ ووسع ما كان ضيقا وربما غيرت الرخصة عزيمة وفصل في أمور لم يكن قد فصل فيها من قبل كتحريم الخمر، وأجمل ما فصل وفصل ما أجمل، بعد إن اشتد عضد الإسلام وصلب عوده، وهذا طبعا مراعاة للتدرج التشريعي، وليس فيه شيء من التناقض أو التضاد إذ لا يعقل أن يقول رسول الله شيئا ثم يعود إلى غيره إذا لم يوضح ويبين السبب في أوانه، وكذلك الحال في جميع ما فسره رسول الله ﷺ، وبينه.

ونلخص مصادر التفسير في عهد النبي ﷺ إلى:

1- القرآن الكريم نفسه، 2- سنة الرسول ﷺ باعتبارها وحي أيضا.

¹ - رواه أحمد (130/4)، والطبراني في مسند الشاميين (137/2) عن المقدم بن معدي كرب، والحديث: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ألا يوشك رجل ينثني شعبانا على أريكته يقول عليكم بالقرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع ألا ولا لقطة من مال معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروهم فان لم يقروهم فلهم أن يعقبوهم بمنل قراهم".

المطلب الثاني: عهد الصحابة

رغم أن عدد الصحابة كان كبيراً، إلا أن من اشتهر منهم بالتفسير لا يتجاوز العشرة: الخلفاء الأربعة (أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب)، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير¹، وبعد وفاة النبي ﷺ، تواصلت حاجة الصحابة إلى فهم القرآن وبيانه للناس، وإضافة لاعتمادهم على عدد من الأدوات المساعدة في ذلك (معرفتهم باللغة العربية، ومقارنة الآيات بعضها ببعض، وما نقل عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال، وتدبرهم الذاتي)، فقد ساعدتهم في الفهم ومعاصرتهم للسياق الاجتماعي، ومعاشتهم لتزول الوحي، ومخالطتهم للنبي ﷺ وتأثرهم به وبطريقة تعامله مع القرآن، إضافة لمعرفتهم بمعهود العرب اللغوي والسلوكي والفكري.

وبالرغم من أن ما صح نقله عنهم ليس كثيراً²، إلا أن ثلاثة من بين هؤلاء اشتهرت أقوالهم بسبب صحبة بعض التابعين لهم وتلقيهم العلم عنهم: عبد الله بن عباس، وأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود. وامتاز تفسير الصحابة بسمات ثلاث هي³:

¹ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، طبعة البغا (1227/2)

² - التفسير والمفسرون، حسين الذهبي، مكتبة وهبة، ج1، ص: 52

³ - مميزات التفسير المأثور عن الصحابة رضي الله عنهم:

1- كان تفسيرهم مقتصرًا على توضيح بعض المفردات الغريبة والمعاني المشككة، أو بيان ما يتعلق بأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد ونحو ذلك، ولم يكن تفسيراً شاملاً لكل القرآن الكريم، وذلك لأنهم كانوا عرباً خالصاً يفهمون المعنى دون شرح، إضافة إلى إمامهم الواسع بأحوال نزول الآيات ومعرفة أسباب النزول وزمانه ومكانه مما يعين على فهم المعنى، ولذا فإن أقوالهم في التفسير جاءت في أمور مهمة لا يمكن لأحد من بعدهم أن يستغني عنها.

2- اعتمدوا في تفسيرهم على الكلمات الجامعة والعبارات الواضحة التي تدل على المعنى دون استطراد إلى ما لا صلة له بالتفسير أولاً فائدة كبيرة في الخوض في تفاصيله.

3- الصفاء من كل أنواع البدع التي وقعت بعدهم في الأمة، فأقوالهم أصفي الأقوال عقيدةً ومنهجاً، وذلك لعدم ظهور أهل الأهواء في تلك الحقبة المباركة.

4- قلة الاختلاف بينهم في التفسير، وما وجد يرجع غالبه إلى اختلاف التنوع لا التضاد؛ وذلك لأنه كلما قرب الإنسان من عهد النبوة نجد الاجتماع والائتلاف علماء وعملاً كان هو الذي يسود، وكلما بعد الإنسان عن تلك الحقبة المباركة وجد العكس تماماً، والله المستعان، ولم ينقل عنهم خلاف إلا في رؤية النبي ﷺ تعالى في ليلة الإسراء والمعراج.

5- قلة الأخذ بالإسرائيليات، وتناولها في التفسير ولعل لتربية النبي ﷺ الخاصة لهم لها أثر على ذلك في الاعتزاز بما عندهم، وعدم الالتفات إلى ما عند أهل الكتاب؛ خاصة وهي روايات أغلبها محرفة وفيها الكثير من الأباطيل والخرافات، ولهذا غضب حينما

السمة الأولى: متعلقة بغياب التدوين تقريباً، ويعود ذلك لعدم تفشي ثقافة التدوين والكتابة، والاقتصار في ذلك العهد على تدوين المصحف فقط، ولذلك نقلت أغلب أقوال الصحابة في التفسير للجيل اللاحق شفويًا.

السمة الثانية: متعلقة بغياب التفسير المطول والشامل لجميع الآيات، خلافاً لما نقل عنم جاء بعدهم، وتطور في العصور اللاحقة، حيث لم تتجاوز أقوالهم شرح بعض المفردات والتراكيب، وبيان المناسبات مما له علاقة بالأماكن والوقائع وأسباب التزول.

السمة الثالثة: متعلقة بندرة اختلاف التضاد فيما نقل عنهم من تفاسير لنفس الآيات. وكانت مصادر الصحابة في تفسير القرآن الكريم¹:

1- القرآن الكريم: لأنه يفسر بعضه بعضاً، ولأن ما أطلق في موضع قيد في موضع آخر، وما أو جز في سورة فصل في سورة أخرى، وما عم في آية خصص في أخرى.

2- الحديث النبوي: وذلك بما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ولأنهم عايشوا معه الحياة التي أنزل فيها القرآن.

3- مصادر أهل الكتاب: وهي رواية الإسرائيليات وما جاء في كتب أهل الديانات السابقة.

4- فهم اللغة العربية: حيث يقفون عند مدلولات اللغة العربية ومعانيها وفهم مراميها.

5- الاجتهاد: وذلك لمعرفتهم بأسباب التزول وسعة إدراكهم وعلو كعبهم في الفصاحة وإطلاعهم الدقيق على أسرار اللغة العربية وعادات المجتمع العربي، مما يكشف لهم النقاب على أسرار كتاب الله ويمكنهم من الفهم الصحيح لآياته.

رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة من التوراة، كما جاء عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي ﷺ فغضب وقال: " أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جتكم بما بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً، ما وسعه إلا أن يتبعني). رواه أحمد في المسند ح رقم 14865، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم 171.

6- كان تفسيرهم منقولاً بالرواية شأنه شأن الحديث، فلم يدون التفسير في عصرهم، وما دون منه كتوبر المقياس في تفسير ابن عباس جُمع في فترة متأخرة جمعها أبو طاهر الفيروز أبادي، وفيه الكثير من الأقوال المكذوبة والمنسوبة إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ؛ ولذلك نجد أقوالهم جاءت منتشرة في كتب السنة.

¹ - يذكر حسين الذهبي أربعة مصادر هي: القرآن الكريم، النبي ﷺ، الاجتهاد وقوة الاستنباط، أهل الكتاب من اليهود والنصارى. انظر التفسير والمفسرون، ج1، ص: 37.

المطلب الثالث: عهد التابعين وتابعيهم

لقد شهد آخر عصر الصحابة اتساع نطاق الحاجة إلى تفسير القرآن بسبب الفتوحات ودخول أعداد كبيرة من العرب والأعاجم في الإسلام، وعدم إحاطة كثير منهم باللغة وظروف التزليل الذي امتد لبضع وعشرين سنة، فكان لاستقرار بعض الصحابة المشهورين بالتفسير في مكة والمدينة والعراق أثر في نشأة حركة علمية للإجابة عن التساؤلات المتعلقة بفهم القرآن، كان على رأسها: - عبد الله بن عباس (ت: 68)، الذي استقر في مكة، ونسبت له "مدرسة التفسير" فيها، وتلمذ عليه: مجاهد بن جبر (ت: 104)، وسعيد بن جبير (ت: 95)، وطاووس بن كيسان اليماني (ت: 106)، وعكرمة البربري (ت: 104)، وعطاء بن أبي رباح (ت: 114)¹، وأبو الشعثاء بن زيد الأزدي (ت: 93)².

- أبي بن كعب، الذي استقر في المدينة، ونسبت له "مدرسة التفسير" فيها، ومن تلاميذه: أبو العالية رافع بن مهران (ت: 90)، ومحمد بن كعب القرظي (ت: 118)، وسعيد بن المسيب (ت: 95)، وزيد بن أسلم (ت: 136)³.

- عبد الله بن مسعود (ت: 35)، الذي استقر بالكوفة في العراق، ونسبت له "مدرسة التفسير" فيها، ومن تلاميذه: علقمة بن قيس النخعي (ت: 61)، ومسروق بن الأجدع (ت: 63)، وزر بن حبيش (ت: 82)، وعبد الله بن حبيب السلمي (ت: 73)، والأسود بن يزيد النخعي (ت: 74)، وعامر الشعبي (ت: 109)، والحسن البصري (ت: 110)، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت: 117)، وعبيدة السلماني (ت: 72).

وقد تطورت أصول التفسير وتوسعت مصادره في عصر التابعين وهذا يعود لعدة أسباب منها⁴:

- ملازمتهم لصحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم عنهم.
- إختلاف مدارسهم ومداركهم وتنوع توجهاتهم وميولاتهم وتفاوت فهمهم.

¹ - هو عطاء ابن يسار، مولى ميمونة، ثقة فاضل صاحب عبادة ومواعظ، توفي سنة 103هـ. أنظر: -الأعلام، للذهبي: ج1، ص: 62.

² - التفسير والمفسرون، الذهبي، ج1 ص: 78-86.

³ - المرجح نفسه.

⁴ - مميزات التفسير في هذه المرحلة. انظر التفسير والمفسرون، ج1، ص: 131.

- الخلافات السياسية التي زادت حدتها إثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان (سنة 35)، والتي اختلط فيها السياسي بالديني.
- بداية الكلام في مسائل الاعتقاد، وظهور القول بالقدر والإرجاء في مقابل غلو الخوارج، واستمرار ذلك إلى أواخر القرن الثاني للهجرة، مع ظهور القول بخلق القرآن ونفي الصفات.
- ظهور الوعّاظ والقصاصين الذين اهتموا بأحاديث الترغيب والترهيب، وبالقصص القرآني.
- التأسيس لنشأة ثلاثة تخصصات جديدة: علم اللغة، والأدب، ورواية الحديث النبوي¹.
- وفي هذا العصر أيضا، بدأ تدوين التفاسير المستقلة، وجمع أقوال بعض التابعين وأتباعهم في كتب، ومنها²: تفسير مجاهد³، وتفسير ابن عباس وتفسير الحسن البصري، وتفسير قتادة، وتفسير سفيان الثوري، وتفسير السدي الكبير، وتفسير عبدالرزاق الصنعاني، ثم توالى التفاسير على هذا المنوال وهذا المنهج بعد ذلك، وأصبح ما يعرف بالتفسير بالمأثور.
- ومن أهم الكتب في هذا النوع أي التفسير بالمأثور:
- جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري، وبحر العلوم للسمرقندي، والكشف والبيان من تفسير القرآن لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، ومعالم التزئيل للبعوي، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، وتفسير القرآن الكريم لابن كثير، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، والدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي... وغيرها.
- وأما أصول التفسير في هذه المرحلة فنوجزها في نقاط محددة:
- إن الغالب في منهج التفسير في هذه المرحلة هو منهج التفسير التحليلي الذي يركز على اللغة والبيان، والذي يُعنى ببيان معاني المفردات القرآنية من خلال الشواهد الشعرية وأقوال العرب. وممن تميز بذلك:

¹ - مع نهاية العهد الأموي وبداية العهد العباسي (في القرن الثاني للهجرة)، اتسع نطاق الاهتمام بالقراءات القرآنية ومصادرها وأساسينها ليمد حركة التفسير بأدوات جديدة.

² - الخالدي، تعريف الدراسات بمنهج المفسرين، ص 38.

³ - هو الإمام أبو الحجاج مجاهد، المخزومي المقرئ، المفسر الحافظ، ولي السائب بن أبي السائب، سمع سعدا، وعائشة، وأبا هريرة، وأم هاني، ولزم ابن عباس مدة وأخذ عنه، وروى عن قتادة، والحكم ابن عتيبة، وعمر بن دينار، ومنصور الأعمش، توفي سنة 103هـ، عن عمر يناهز 83 سنة. أنظر: طبقات الحفاظ، للسيوطي، ج1، ص: 5.

أبو عبيدة مَعَمَر بن المَثْنَى (ت: 210) في كتابه "بجاء القرآن"، والفرّاء (ت: 207) في كتابه "معاني القرآن"، والأخفش (ت: 215) في كتابه "معاني القرآن".

- غلب فيه اتجاه التفسير بالمأثور الذي يعتمد على الروايات والأحاديث المنقولة عن الصحابة رضي الله عنهم، ويعنى برواية الأقوال مسندةً إلى أصحابها، على نمط أهل الحديث، وممن تميز بذلك في تفسيره: مجاهد (ت: 102)، والحسن البصريّ (ت: 110)، والسديّ الكبير (ت: 128)، وسفيان الثوريّ (ت: 161).

وأما مصادرهم فهي:

- القرآن الكريم، والسنة والمأثور من أقوال الصحابة، ومصادر أهل الكتاب، واللغة العربية والبيان، والشعر، وأقوال العرب كالأمثال والحكم.

المطلب الرابع: عصر التدوين:

وتبدأ هذه المرحلة من أواخر عصر بني أمية، وبداية عصر بني العباس، وقد مر التفسير من هذه الناحية التاريخية بخمس خطوات¹ هي:

الخطوة الأولى: حيث كان يُتناقل بالرواية بين الصحابة والتابعين.

الخطوة الثانية: بداية التدوين مع بداية تدوين الحديث النبوي.

الخطوة الثالثة: انفصل فيها التفسير عن الحديث، ووضع لكل آية من القرآن تفسيرها من الأثر موصول الإسناد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة.

الخطوة الرابعة: لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور، ولكن تجاوزت روايته بالإسناد طلباً للاختصار، فدخل الوضع في التفسير، واختلط الصحيح بالعليل.

الخطوة الخامسة: وهي أو سع الخطى، وأفسحها، امتدت من العصر العباسي إلى يومنا هذا، وفيها امتزج الفهم العقلي بالتفسير النقلي، وكان ذلك على تدرج، ابتداءً بالمباحث اللغوية والنحوية والبلاغية إلى القضايا الكلامية، والفلسفة والأصولية، والتصوف، ثم العلوم الرياضية والكونية، ثم كان آخرها العلوم الإنسانية في العصر الحديث، حتى أصبحت حركة التفسير تمثل المسحة الثقافية والعلمية للمسلمين عبر العصور، والمرآة العاكسة لتطور الحياة العقلية عندهم.

¹ - حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص: 141 وما بعدها.

وكان التفسير في عهد نشوئه إنما يتلقى شفاهاً ويحفظ في الصدور، ثم يتناقل نقل الحديث يدا بيد هكذا كان التفسير على عهد الرسالة، وعلى عهد الصحابة والتابعين الأول أما في عهد تابعي التابعين، فجعل يضبط ويثبت في الدفاتر والألواح، وبذلك بدأ عهد تدوين التفسير إلى جنب كتابة الحديث، وذلك في أواسط القرن الثاني، حيث راج تدوين الأحاديث المأثورة عن السلف.

ولعل أول من سجل التفسير في الدفاتر والألواح هو مجاهد بن جبر، توفي سنة (101هـ) يقول ابن أبي مليكة: "رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن، ومعه ألواحه فيقول له ابن عباس: أكتب قال: حتى سأله عن التفسير كله"¹ وكان أعلم الناس بالتفسير قال الفضل بن ميمون: "سمعت مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة"².

ويذكر ابن حجر عند ترجمته لعطاء بن دينار المصري — وكان من ثقات المصريين، توفي سنة (126) — أن له تفسيراً يرويه عن سعيد بن جبيرة، قتل سنة (95)³.

ويذكر ابن خلكان: أن عمرو بن عبيد — شيخ المعتزلة، توفي سنة (144) — كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري المتوفى سنة 116هـ⁴.

ولابن جريج، توفي سنة (150هـ) تفسير كبير في ثلاثة أجزاء، يرويه بواسطة عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس، توفي سنة (68هـ)، ويرويه عنه محمد بن ثور وقد صححته الأئمة⁵ وذكر أحمد بن حنبل: أنه أول من صنف الكتب⁶.

وأمثال هذه التفاسير مما كتب على الألواح أو في صحائف ذلك العهد كثير، كانت تقتضيه طبيعة الأخذ والتلقي ذلك الحين، وقد قل الاعتماد على الحفظ والضبط في الصدور.

غير أن هذه التفاسير كانت مقتصرة على نقل المعاني وروايتها عن التابعين والأصحاب، وثبتها في الدفاتر خشية الضياع، ولم يكن التفسير قد توسع أو دخله الاجتهاد في شكل ملحوظ¹.

¹ - تفسير الطبري، ج1، ص: 31.

² - تهذيب التهذيب لابن حجر، ج: 10، ص: 43.

³ - تهذيب التهذيب، ج7، ص 198 — 199، رقم (382).

⁴ - وفيات الاعيان لابن خلكان، ج3، ص 462، رقم (503).

⁵ - الاتقان للسيوطي، ج4، ص: 208.

⁶ - تهذيب التهذيب، ج6، ص 403.

ولعل أول من توسع في التفسير وضم إلى جانب المعاني جوانب آخر ولاسيما التعرض لأدب القرآن وذكر خصائص اللغة، واجتهد في ذلك، هو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء المتوفي سنة (207هـ). يذكر ابن النديم في "الفهرست" أن أبا العباس ثعلب قال: كان السبب في إملاء كتاب الفراء في معاني القرآن، أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء: أن الأمير الحسن بن سهل، ربما سألتني عن الشيء بعد الشيء من القرآن، فلا يحضرنى فيه جواب فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً، أو تجعل في ذلك كتاباً أرجع إليه، فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت إليه الفراء، فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها، ثم نوفي الكتاب كله فقرأ الرجل ويفسر الفراء قال أبو العباس: لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه². ولا شك أن تفسير الفراء هذا هو أول تفسير تعرض لآيات القرآن آية آية، حسب ترتيب المصحف وفسرها على التابع، وتوسع فيه وكانت التفاسير قبله تقتصر على تفسير المشكل، وبصورة متقطعة، غير مستوعبة لجميع الآيات على التابع وقد جنح إلى هذا الرأي الأستاذ أحمد أمين المصري في "ضحى الإسلام"³.

وعلى أي تقدير، فإن ذلك يعد أول بذرة غرست للتفسير المدون بشكل رتيب، فقد كان القرن الثاني من بدايته إلى نهايته، عهد تطور التفسير، من مرحلة تناقله بالحفظ إلى مرحلة كتابته بالثبوت كما أخذ بالتوسع والشمول أيضاً بعد ما كان مقتصرًا على النقل بالمأثور. ويمكن القول بأن مرحلة التدوين مرت بفترتين الأولى: التفسيرُ بابٌ من أبواب الحديث؛ حيث بدأ التدوين في أواخر عهد بني أمية، ومُسْتَهْلٌ عهد بني العباس، وقد شَمِلَ سائرَ الفنون، فدُوِّنَ الحديثُ بمختلفِ موضوعاته وأبوابه، بما في ذلك علم التفسير. وقد جَمَعَ الحديثَ - من مختلف الأمصار - زمرة من العلماء، منهم: يزيد بن هارون السلمي، وشعبة بن الحجاج، ووكيع بن الجراح وسفيان بن عيينة وغيرهم.

¹ - الاستاذ المحقق الشيخ محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في شكله القشيب، تنقيح قاسم النوري، الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، ط1، بتاريخ: 1377 هـ ش - 1419 هـ ق.

² - الفهرست لابن النديم، ص: 105.

³ - ضحى الاسلام، ج2، ص 140 - 141.

الفترة الثانية: التفسيرُ علمٌ قائمٌ بنفسه، حيث أصبح التفسيرُ علماً قائماً بنفسه، فأفرد لكل آية من القرآن تفسيرها، ورُتّب ذلك على حسب ترتيب المصحف، وكان ذلك على أيدي أئمة أعلام منهم: ابنُ ماجة صاحبُ السنن، وابن جرير الطبري، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري، وابن أبي حاتم، والحاكم، وأبو بكر بن مردويه، وغيرهم. وجدير بالذكر أن التفسيرَ كان مروياً بالإسناد المتصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو إلى الصحابة أو التابعين.

وذهب الزركشي إلى أن تفسير القرآن قسماً، منه ما ورد تفسيره بالنقل، ومنه ما لم يرد، وبهذه الطريقة المنهجية الرائعة استطاع هذا العالم الجليل أن يبين أن مصادر التفسير الأساسية - والتي كاد العلماء يجمعون عليها أمرهم - خمسة:

1- القرآن الكريم. 2- السنة النبوية الشريفة. 3- أقوال الصحابة. 4- أقوال التابعين. 5- اللغة وعلومها. وفي ذلك يقول: "واعلم أن القرآن قسماً أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد"¹.

والأول على ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو عن الصحابة، أو عن رؤوس التابعين، فالأول يبحث فيه عن صحة السند، والثاني ينظر في تفسير الصحابي، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه، وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشره بذلك حيث قال: "اللهم علمه التأويل"، وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض، لقوله -صلى الله عليه وسلم- "أفرضكم زيد"، فإن تعذر الجمع جاز للمقلد أن يأخذ بأيها شاء، وأما الثالث وهم رؤوس التابعين إذ لم يرفعوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا إلى أحد من الصحابة -رضي الله عنهم- فحيث جاز التقليد فيما سبق، فكذا هنا، والأوجب الاجتهاد، الثاني: ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين، وهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها، واستعمالها بحسب السياق..."².

¹ - الزركشي، البرهان ج2، ص: 65.

² - ابن عطية (481هـ/546هـ) في تفسيره "المحرز الوجيز في تفسير الكتاب العزيز".

وازداد في القرن الثالث فما بعد، في الأخذ في التنوع، وتلونه بألوان العلوم والمعارف والثقافات التي كانت دارجة في تلك العصور.

المطلب الخامس: عصر التجديد

بدأ هذا الطور مع بداية القرن الرابع عشر للهجرة (القرن العشرين الميلادي)، نتيجة تواصل المسلمين بالحضارة الغربية، والنقاش الذي شهده جامع الأزهر حول مناهج التدريس والحاجة للتجديد، والذي ترجم إلى صدام بين الداعين للتغيير والرافضين له على أساس الارتياب في أن تكون مطالب التغيير جاءت لخدمة مصالح استعمارية خفية.

وبالرغم من هذه المعارضة الشديدة، بدأ الشيخ محمد عبده (ت: 1323 هـ/1905 م) في إلقاء سلسلة من المحاضرات في التفسير، وأملى فيها تفسيراً جزئياً، ضمنه فيما بعد تلميذه محمد رشيد رضا (ت: 1354 هـ/1935 م)، في كتابه "تفسير القرآن الحكيم" المشهور بتفسير المنار، الذي جاء بمنهجية مختلفة عما سبق في كتب التفسير، وأحدث مع بعض التفاسير التي تلتها تجديداً في تفسير القرآن والتعامل معه، غير النظرة التقليدية التي طغت طيلة القرون السابقة.

ويقوم المنهج التجديدي لمحمد عبده في التفسير على أساس اعتبار القرآن "كتاب هداية"، وعلى هذا جاء انتقاده الشديد لمناهج وأدوات التفسير السابقة والتي كانت تركز على القضايا الكلامية والبلاغية، واصفاً منهج التفسير القائم عليها بالجفاف والإغراق في قضايا بعيدة عن مقاصد القرآن. ولبين هذا الموقف، نقل كلام محمد عبده كما أورده رشيد رضا، حيث ذكر أن التفسير قسمان:

(أحدهما): جافٌ مبعثٌ عن الله وعن كتابه، وهو ما يقصد به حل الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما ترمي إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً، وإنما هو ضرب من

التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما.

(وثانيهما): وهو التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية، هو الذي يستجمع تلك الضروب لأجل أن تستعمل لغايتها، وهو ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوهما من الأوصاف، فالمقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون: هو الاهتداء بالقرآن، قال الأستاذ الإمام: وهذا هو الغرض الأول الذي أرمي إليه في قراءة التفسير.

وعلى هذا الأساس، وصف رشيد رضا تفسير أستاذه قائلاً: "هذا هو التفسير الوحيد الجامع بين صحيح المأثور وصريح المعقول، الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الكون، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان، ويوازن بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أعرضوا عنها، وما كان عليه سلفهم المعتصمون بجلها، مراعى فيه السهولة في التعبير، مجتنباً مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث يفهمه العامة، ولا يستغني عنه الخاصة"¹

وكان من آثار جهود محمد عبده وتلميذه رشيد رضا التجديدية في التفسير والتعامل مع القرآن، أن نشأت حركة إصلاحية كبيرة في العالم العربي تركت آثاراً ملحوظة في فهم القرآن والإسلام، ونتج عنها تأسيس ما يعرف بالعمل الحركي الدعوي، ونشوء طبقة واسعة من العلماء والدعاة المنخرطين فيه، وقد كان من أثر ذلك تأليف تفسير سيد قطب (ت: 1965م) "في ظلال القرآن"، والذي بناه بشكل فريد على نظرية (التصوير الفني في القرآن).

وشهدت هذه الفترة التاريخية أيضاً نشوء اتجاه أدبي في التفسير، متمثلة في مدرسة أمين الخولي، والتأصيل لنظرية التفسير البياني للقرآن، ثم تلى ذلك ظهور فن جديد في التفسير سمي بالتفسير الموضوعي، مثل نمطاً من الاستجابة للتطورات الحديثة التي استجدت في حياة المسلمين، باعتباره منهجاً يساعد المفسر على استجلاء نظريات القرآن وقواعده في شتى شؤون الفكر والحياة، وقد مثلت مدرسة المنار والمدرسة الإصلاحية، والاتجاه الأدبي في التفسير، أهم الحواضن للتفسير الموضوعي.

وعلى الرغم من نقص التأصيل والضبط المنهجي لهذا الفن من التفسير، يمكن القول إن التفسير الموضوعي شكّل بداية لنقلة هامة في دراسة القرآن من مستوى التفسير النصي إلى مستوى تحليل الخطاب، وهو ما يجعله قادراً على تشكيل أرضية متينة للدرس القرآني المعاصر، وذلك من خلال تطوير الأدوات المنهجية وربطها بالعلوم اللسانية، والتي يمكن من خلالها الكشف عن بنية القرآن ومفاهيمه ونظرياته وأحكامه، بطريقة أشد تماسكاً.

¹ - تفسير المنار، رشيد رضا، ص: 24.

المبحث الثالث: ارتباط التجديد بالاستنباط والاجتهاد والعوامل المساعدة في ذلك

إن سر صلاح هذا الدين يكمن في الدين نفسه، فالإسلام دين الفطرة ودين العقل، ولعل طبيعة هذا الدين ومرونة أحد طرفيه هو سبب تلاؤمه مع كل جيل في أي مكان وفي كل زمان، رغم اختلاف طبيعة البشر وتفاوت قدراتهم وإدراكاتهم، ويستفيد كل جيل من هذا الموروث الرباني بحسب فهمه لهذا الدين وبحسب الأخذ منه، فكلما كان الإقبال عليه قراءة وفهما وتطبيقا كلما بدت طلائعه في الحياة وأثمرت بذوره وجناها ذلك الجيل، واستفاد منها.

ولهذا فإن دعوتنا للتجديد تكمن في الدعوة إلى التمسك به، والأخذ منه وفهم مراميه، وجعله قانونا عاما لحياتنا بالوسائل والأدوات المتاحة، وهذه الدعوة هي دعوته هو؛ بل وقد فتح بابا لن يغلق أبدا وهو باب الاجتهاد والاستنباط.

فمن آيات إعجاز القرآن وخلوده، أننا نستمد منه في كل عصر ما يمكننا من مواجهة الآراء المستحدثة والقضايا المستجدّة، فالقرآن كتاب كل زمان وكل مكان، لذلك فإنه يجب علينا أن لا نتوقف عند ما كتبه السابقون، بل لا بدّ من إمعان النظر في كتاب الله وإعمال الفكر فيه في كل عصر، لأنه كتاب حيّ لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الردّ.

وهذه حقيقة أقرّها الإمام الرازي من قبل، حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾¹: "أثبت في أصول الفقه، أنّ المتقدّمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها، ولولا ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في التفسير مردودة باطلة، وذلك لا يقوله إلا مقلدٌ خَلَفَ"².

وقد ظهرت بوادر الاجتهاد منذ عهد النبي ﷺ، وقد فرق العلماء بين اجتهادات النبي ﷺ، في الأفضية وبعض المسائل وما كان أمرا من عند الله، ولا زال الاجتهاد يمتد منذ ذلك الزمان إلى يوم الناس هذا، وسنذكر في المبحث أهم مظاهر هذا الارتباط بين التجديد والاجتهاد في التفسير، وأهم العوامل المساعدة في ذلك.

1 سورة النساء: الآية 3.

2 الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط1، 1412هـ/1992م)، ج5، ص76.

المطلب الأول: مظاهر الاجتهاد في التفسير

تعتبر أواخر القرن الثاني بداية الاجتهاد الأكثر وضوحا في الدين خاصة مع ظهور مناهج جديدة، وفي غياب نصوص شرعية تنص على ما استجد في الحياة، مع حاجة الناس الملحة والضرورية لفهم بعض المسائل، والتي ليس لها سابقة وليست لهم بها عهد، في شتى مناحي الحياة المختلفة والمتنوعة.

وتظهر ملامح الاجتهاد بعد وفاة النبي ﷺ خاصة في عهد الخلفاء الراشدين بشكل عام مثل جمع الناس على صلاة التراويح، وجمع القرآن الكريم... الخ، ولاحت بعض الاستنباطات والاجتهادات في التفسير بوجه خاص مثل بعض مسائل الميراث، والمؤلفة لقلوبهم، وعدة الحامل... ثم ازدادت حاجة الناس لفهم القرآن لاستنباط أحكامه وحكمه في عصر التابعين حيث أضافوا لمكتبة التفسير مسائل أخرى واجتهادات عدة، ولا زال الناس يركزون على نزعتين أساسيتين في التفسير -اللغة والمأثور- حتى عصر التأصيل حيث كان عمل أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310) علامة فارقة في حركة التفسير، باعتباره أول من أصّل لعلم التفسير وأرسى أسسه وقواعده، وأيضا باعتباره أول من فسّر القرآن آية آية وجملَةً جملَةً، وذلك في نهاية القرن الثالث للهجرة.

وقد أفاد الطبري منهجيا من جهود سابقه القائمة على أساس النزعتين الأثرية واللغوية، لتأصيل أول منهجية متكاملة في التفسير، من خلال الجمع بين الاتجاهين وإضافة استنباطاته وترجيحاته، ويعتبر كتابه "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" أول تفسير كامل للقرآن على أساس منهجي، وقد أملاه ابن جرير على تلاميذه من سنة 283 هـ إلى سنة 290، ثم قرئ عليه سنة 306 هـ.

وتقوم منهجية الطبري في التفسير، التي نقلت حركة التفسير من طور التأسيس إلى طور التأصيل، على أصول ثلاثة: اللغة، والأثر، والترجيح والاستنباط.

وبسبب تعدد العلوم والمعارف، وتنوع الفرق والمذاهب، واختلاط العرب بثقافات أقوام أخرى داخلية في الإسلام، وبداية من دخول تيارات فكرية جديدة اجتماعية نتيجة الاختلاط الحضاري.

وتوسيع دائرة المعارف العقلية والفلسفية والعلمية حول كثير من الآيات، وبناء العقائد الإسلامية التي وردت في القرآن على مرتكزات عقلية وفلسفية منطقية، وظهور اللاهوتيين من أهل الأديان الأخرى ومنكري النبوات، وظهور المدارس الكلامية المتنوعة من أشعرية ومعتزلة وغيرها... بدأت تبرز تدريجيا نزعة عقلية في التفسير متحررة من الاعتماد المطلق على اللغة والأثر، فظهرت تفاسير تذكر أوجهها تفسيرية جديدة مختلفة عما ورد عن السلف، فركز بعضها على الاستنباطات الفقهية أو الأدبية، واتخذ

البعض أسلوب المتكلمين في الاستدلال للمسائل العقديّة، وظهرت التفاسير الصوفية قائمة على التأويل العرفاني، إلى غير ذلك، ومن أمثلة التفاسير التي اشتهرت في طور التفريع: تفسير "الجامع لأحكام القرآن" لكلّ من القرطبي والخصّاص، وتفسير "مفتاح الغيب" للفخر الرازي (أشعري)، وتفسير الكشاف للزمخشري (معتزلي).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا، أن فكر السلف في التفسير لم يكن بمنأى عن الصراعات الفكرية التي كانت تدور في عصر كلّ مفسّر، وكثيراً ما كان هذا المفسّر أو ذاك يمثّل اتجاهاً معيناً، فهو بالتالي كان ناصراً ومؤيداً لفكرته واتجاهه، ونرى أن ذلك انعكس بشكل واضح وملموس على تفسيره، حتى دخلت إلى التفسير بعض التأويلات الفاسدة الباطلة التي ما جاءت إلا لتساند فكرة ما، حتى قال بعض الشيعة في تفسير قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾¹ هما أبو بكر وعمر، كما اعتمد الجبرية على مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾² في اعتبار الإنسان مسيراً لا إرادة له ولا اختيار، وأنه كريشة في مهبّ الريح تحركها الأقدار كيف تشاء، وحتى الزمخشري صاحب الفكر المعتزلي، لم يخجل تفسيره من بعض الشطحات الاعتزالية، وهناك تفسيرات أخرى غريبة للقاديانية والبهاية وغيرهما.

وقد ظهرت انتقادات على هذا النوع من التفسير لمخالفته الصحيح المنقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين لهم بإحسان، وكذا مخالفته للمنطق اللغوي في أساليب الأداء العربي.

وظهرت تفاسير أخرى متنوعة في عدة مجالات نذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر:

التفسير الصوفي:

ومن مظاهره:

تحكيم نظريات في الوحدة والحلول في تفسير القرآن، وجعل تفسيرها لبعض الآيات يأخذ طابعا غامضا وأسطوريا.

ومن أمثلة هذا النوع من التفسير:

تفاسير الشيخ محي الدين بن عربي في الفتوحات وفصوص الحكم لبعض الآيات القرآنية.

التفسير الشيعي للقرآن الكريم

ومن أمثلته:

1 سورة المسد: الآية 1.

2 سورة الصافات: الآية 96.

مجمع البيان للطبرسي، وتفسير علي بن إبراهيم القمي، تفسير الملا محسن الكشي.

تفسير الخوارج للقرآن الكريم

من مظاهره:

النظر إلى ظاهر النصوص بدون تعمق في فهم كلام الله تعالى وعدم التماس الحكم والأسرار. ومن أمثلته: تفسير هميان الزاد إلى يوم المعاد للشيخ محمد يوسف أطفيش.

تفاسير الباطنية

ومن مظاهرها:

حطمت مدلولات الألفاظ تحطيما، ووجود تفسيرات مضحكة لا تمت لألفاظ القرآن بصلة. ومن أمثلتها:

قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم: فسروها بالإمام، وقوله تعالى: وألنا له الحديد: فسروها: أي سهلنا له الكلام، وقوله تعالى: ولها عرش عظيم: فسروها أي دعوة كبيرة، وقوله تعالى: ولقد آتيناك سبعا من المثاني: فسروها بالأئمة السبعة، أي أئمة الإسماعيلية.

وخلاصة القول في هذه الأنواع من التفسير:

أنه أدى إلى العبث باللغة ومعانيها وقواعدها، وأن فيها انحرافات تفسيرية، وانحرافات عقديّة، وظهور متاهات وضلالات قطعت الصلة بينه وبين الضوابط اللغوية والأصولية والعقلية التي أجمع عليها علماء الإسلام.

التفاسير اللغوية

يتسم هذا النوع بجمع المفردات وتنسيق الأشعار وتدوينها وكذا إعراب القرآن والقراءات. ومن أمثلته:

معاني القرآني للرؤاسي وقطرب وخلف النخوي والزجاج، ومجاز القرآن لأبي عبيد، وإعراب القرآن للزجاج، وإعراب ثلاثين سورة من المفصل لابن خالويه، وتفسير ابن حيان، والقراءات لابن مجاهد، والقراءات للدارقطني، والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني، والنشر في القراءات العشر لابن الجزري.

التفاسير الفقهية:

وهي: التي تهتم بآيات الأحكام عموما وذكر مذاهب الفقهاء.

ومن أمثلتها:

أحكام القرآن للحصاص، وأحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، وكثر العرفان في فقه القرآن لمقداد السيوري، والثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة ليوסף الزبيدي.

التفاسير المعاصرة:

ظهور منهج جديد في تفسير القرآن الكريم حاول إعادة النظر في المناهج القديمة وذلك بسبب الأوضاع التي تعرض ويتعرض لها العالم الإسلامي كالاختلال والغزو العسكري والفكري.

ومن الداعين إلى هذا النهج: جمال الدين الأفغاني، حيث إنه مؤسس المنهج العقلي الاجتماعي الحديث. وقد قام بهجوم على المناهج التفسيرية التي أقحمت علومها ومصطلحات غريبة منها ما هو عقلي أو لغوي أو خرافي في القرآن الكريم، ودعا إلى فهم القرآن الكريم في ظل القرآن والسنة وأعمال السلف الصالح، وكذا عدم التعويل على آراء الرجال واستنباطهم ولكن يستأنس بها كراي، ومن تأثروا بهذا المنهج أيضا محمد عبده، الذي بني هذا المنهج على الأسس التالية:

1- عدم الإكثار من العلوم والمصطلحات والتفصيل فيها، والنظر إلى القرآن من حيث هو كتاب هداية وإرشاد للناس إلى طريق الخير وإلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.

2- العودة إلى الكتاب والسنة وعدم إخضاع القرآن الكريم للمذاهب الفقهية والآراء الكلامية والصوفية والفلسفية وضلالات أهل الفرق المنحرفة.

3- بيان حكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية والتجديد الكامل لفقه الإسلام واستنباط الأحكام الأكثر انسجاما مع روح العصر وإثبات أن الإسلام دين عالمي صالح لجميع الشعوب وملابسات الحضارة.

4- الاستفادة من العلم الحديث في تفسير القرآن الكريم.

5- الدفاع عن الإسلام أمام الغزو الفكري الذي تعرض له ودفع المطاعن المختلفة عنه.

6- إنكار الروايات الإسرائيلية وعدم الاعتماد عليها وكذا على الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

ومن أهم هذه التفاسير التي سارت على هذا النهج:

تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير المراغي، وتفسير جزء تبارك لعبد القادر المغربي، تفسير عبد الحميد باديس الجزائري، تفسير الطاهر بن عاشور، في ظلال القرآن لسيد قطب.

التفاسير العلمية:

ترجع جذور هذا النوع من التفسير للإمام الغزالي في كتابه جواهر القرآن، وللرازي في تفسيره مفاتيح الغيب، ومن أهم الكتابات في هذا الموضوع أو هذا النوع: الجواهر للشيخ الطنطاوي، والإسلام في عصر العلم للدكتور أحمد الغمراوي، والتفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد.

المطلب الثاني: حاجة الناس لرؤية تفسيرية جديدة

في ظل المتغيرات الجديدة والأحداث المتسارعة ومتطلبات كل مرحلة بات من الطبيعي أن يتطلع المسلمون إلى رؤية جديدة تشبع رغباتهم وتجيّب عن تساؤلاتهم وتشفي جراحهم التي تدمى من طول الركود الذي عاشوه في شتى المجالات، وفي ظل الغزو الثقافي والفكري من شتى الحضارات، بسبب بعدهم عن كتاب الله منهجا وطريقا خاصة بعد توسع الرقعة الجغرافية للدولة الإسلامية واختلاطهم بالعجم، وإحجام بعض العلماء عن الخوض في تفسير لم يسبق له مخافة من الوقوع في محذور الخروج عن السلف بدعوى الابتداع في دين الله، إضافة إلى غياب أدوات وعوامل تمكنهم من وضع مناهج تعليمية جديدة، بسبب غياب الإرادة السياسية.

كل ذلك أدى بدوره إلى عدم تفعيل هذا الموروث الثقافي فهما ومنهجا وتطبيقا، وبالتالي عدم الاستفادة من هذا المنهل الرباني والمنهج القويم.

والمسلمون اليوم في حاجة ماسة للعودة إلى القرآن الكريم قراءة وتدبرا واستنباطا من أجل استئناف السير الحضاري، وتقويم ما ظهر من اعوجاج وتحريف في الفهم والسلوك، باعتبار القرآن الكريم مصدرا في التشريع والمعرفة والأخلاق، وقد صار التجديد في الدين أمرا ضروريا؛ بل إنّه يفرض نفسه بالحاح، وأن أي تجديد لا بد أن يتوجه إلى تجديد الفهم قبل أي شيء آخر، وأمراض الأمة الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية ما هي في الحقيقة إلا أعراضا في فهم الدين، خاصة فهم نصوص الشريعة قرآنا وسنة.

ويقول الرازي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾¹: "أثبت في أصول الفقه، أن المتقدمين إذا ذكروا وجهاً في تفسير الآية، فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجه آخر في تفسيرها. ولولا ذلك لصارت الدقائق التي استنبطها المتأخرون في التفسير مردودة باطلة، وذلك لا يقوله إلا مقلدٌ خَلَفَ"².

1 سورة النساء: الآية: 3.

2 الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: مفاتيح الغيب، (القاهرة: دار الغد العربي، ط1، 1412هـ/1992م)، ج5، ص76.

ويقول الدكتور محي الدين بلتاجي في هذا الشأن: «والواقع أن الحياة الانسانية قد تغيرت معالمها ومعارفها تغيرا كبيرا منذ بدأ التأليف في التفسير عند القدامى، بمساراتهم التي ارتضوها حتى هذا القرن الذي نعيشه، والذي تشكلت في مطلع حضارة مادية أظلت حياة الناس، تغلب عليها النظرة العلمية، وتوجه الكثير من اتجاهات الفكر فيها... ومما لاشك فيه أن كثيرا من القضايا التي عرض لها القدامى من المفسرين، لم تعد تساير العصر، لأنها ليست من معطياته الفكرية في شيء، ومن هنا اتجه الكثير من المحدثين إلى التفسير، وهم يحاولون الربط بين ما جدّ في حياتهم من قضايا وبين كتابهم»¹.

ويقول الدكتور محمد البويسفي: «..فلا بد من مراجعة شاملة ونقد الذات نقدا منهجيا جريئا للوقوف على مواطن الخلل في العقل الإسلامي، الذي صار لا ينتج فما بالك أن يرسل، وأغلق باب الاجتهاد واكتفى بالتقليد»².

ولكن كما قيل: "لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلحها أولها" بات البحث عن الدواء واجب شرعي وتكليف رباني ومسؤولية عظيمة على عاتق العلماء والدعاة.

وعليه فإن الحاجة ماسة والطلب ملح لرؤية جديدة مستلهمة من موروثنا الثقافي، في أطر محددة ومنهجية سليمة للبحث في القرآن الكريم عن حلول لمشكلات العصر التي يعاني منها العالم كله.

¹ - دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، الطبعة: 1، ص: 193 سنة: 1987م، بيروت.

² - د.محمد البويسفي، مقال: التجديد في التفسير حاجة ضرورية، 2008/07/12م

المطلب الثالث: خصائص النص القرآني

يقال أن القراءة الصحيحة للنص نصف تفسيره، وتتصل صحة القراءة بمعرفة القارئ اللغوية للنص المقروء، وقد شغل علماء المسلمين في كيفية تفسير القرآن الكريم وما ينبغي للمفسر أن يعتمد في "تفسير ألفاظه وتراكيبه ومعانيه وصور دلالاته"¹ كما تخرجوا من استخدام الهوى والرأي في التفسير واستشهدوا بالحديث الشريف عن ابن عباس "من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار"²، وقد أكدوا على اكتمال عدة المفسر في تفسيره لكي لا يبعد به التأويل إلى خلاف التضاد على حين أجز في تفسيره خلاف التنوع وهو ما يسميه المحدثون تعدد القراءة³.

وروى ابن عباس أنه قسم التفسير على أربعة أقسام: "قسم تعرفه العرب في كلامها وقسم لا يُعذر أحد بجهالته، وقسم يعلمه العلماء خاصة، وقسم لا يعلمه إلا الله"⁴ إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾⁵.

وقد اختلفت الأقوال في تفسير المحكم والمتشابه، وقد جاءت أحاديث وأقوال تدفع إلى الحذر في قراءته وتأويله وتدعو للدقة في تفسير ما يحتمله من وجوه وما تخفيه تراكيبه من معانٍ وأسرار، حيث روي عن الرسول (ص): "أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منه ظهر وبطن"⁶ وروي عنه

¹ البرهان للزركشي: 178/2، وانظر أيضا: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 2/389.

² الاتقان للسيوطي: 2/389، والميزان في تفسير القرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي 3/72.

³ المعرفة اللغوية وتفسير النص القرآني، د. زهير غازي زاهد، ص: 01.

⁴ البرهان للزركشي: 2/181.

⁵ - سورة آل عمران، آية: 07.

⁶ - ضعيف أخرجه ابن جرير الطبري في "تفسيره" (11/23/1)، وأبو عمر الرقي الباهلي في "حديث زيد بن أبي أنيسة" (ق 2/32)، وأبو الفضل الرازي عبد الرحمن بن أحمد في "معاني: أنزل القرآن على سبعة أحرف" (ق 1/64) عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن ابن مسعود مرفوعا به، قلت: وهذا سند ضعيف، إبراهيم هذا - وهو ابن مسلم - ضعيف، وقد تابعه أبو إسحاق عن أبي الأحوص به، وأخرجه أبو يعلى في "مسنده" (1309/3)، وابن حبان (1781)، والبخاري (226 - زوائده) وابن مغلدة في "المنتقى من أحاديثه" (2/81/2) عن إسماعيل بن أبي أويس: حدثني أخي عن سليمان بن محمد بن عجلان عنه. وقال الهيثمي في "زوائد البخاري": "وهذا إسناد حسن". كذا قال: وقلده المعلق على "مسند أبي يعلى" (83/9) وأبو إسحاق - وهو السبيعي - مدلس وقد عنعنه، فيحتمل أن يكون تلقاه عن إبراهيم الهجري أو غيره من الضعفاء، ثم هو إلى ذلك

أيضاً: "ما نزل من القرآن من آية إلا ولها ظهر وبطن ولكل حرف حد ولكل حد مطلع" وكثرت تأويلات الظهر والبطن والحد والمطلع.¹

وروا قول الإمام علي لابن عباس حين بعثه للخوارج: لا تخصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ولكن خصمهم بالسنة²، وروي عن أبي الدرداء قوله: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً³. وتعدد قراءة النص من خصائص النص الخالد؛ لذلك تعددت قراءات القرآن وتفسيره في العصر الواحد وفي العصور المختلفة، ولكن يبقى الاختلاف في قراءته وفهمه في حدود التنوع مقبولاً، على أن لا تكون القراءة خلاف تضاد في تأويله وفهمه كما ذكرنا سابقاً، فليس بكاف في فهمه معرفة ظاهر معني الألفاظ، فذلك لا يوصل وحده إلى حقائق المعاني، وإنما تطلب الدقة في فهم السياق الذي وردت فيه الألفاظ ووظائفها في نصّها⁴.

فظاهر الآية الكريمة ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾⁵ واضح وحقيقة معناها غامضة فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر، وكذلك قوله تعالى: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾⁶، "فإذا كانوا هم القاتلين فكيف يكون الله سبحانه هو المعبذب وإن كان تعالى هو المعبذب.. فما معنى أمرهم بالقتال"⁷.

كان اختلط! لكن تابعه عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي الأحوص به وزاد: "ولكل حد مطلع". أخرجه الطحاوي في "مشكل الآثار" (182/4)، وابن جرير (10/23/1)، وأبو بكر الكلاباذي في "مفتاح المعاني" (2/297) من طرق عن جرير بن عبد الحميد عن مغيرة عن واصل بن حيان عن عبد الله بن أبي الهذيل. قلت: وهذه متابعة قوية، لولا أن في الطريق إليها مغيرة - وهو ابن مقسم الكوفي - فإنه مع ثقته كان يدلس؛ وقد عنعنه، وجملة القول؛ أنه ليس في هذه الطرق ما يمكن الاطمئنان إليه، وتصحيح الحديث اعتماداً عليه.

¹ انظر البرهان: 2 / 185 - 186، وانظر المعجم الكبير للطبراني 9 / 136، جامع البيان للطبراني 1 / 25.

² البرهان: 1 / 388

³ السابق: 2 / 171.

⁴ المعرفة اللغوية، غازي زاهد، (مصدر سابق)، ص: 03.

⁵ - سورة الأنفال، آية: 17.

⁶ - سورة التوبة، آية: 14.

⁷ البرهان: ج2، ص: 172.

وقال الشيخ محمد عبد الله دراز: (أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسسٍ و أصولٍ، وأقيم على كل أصلٍ منها شعب وفصول، و امتد من كل شعبةٍ منها فروعٌ تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيانٍ واحدٍ قد وضع رسمه مرةً واحدةً، لا تحس بشيءٍ من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيءٍ من الانفصال في الخروج من طريقٍ إلى طريقٍ، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام، والالتحام، كل ذلك بغير تكلفٍ ولا استعانةٍ بأمرٍ من خارج المعاني أنفسها، إنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرضٍ ومقطعه وأثنائه يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً¹.

ولقد سلك المفسرون مذهبين في التفسير: أحدهما تفسير إعراب أي تطبيق قواعد النحو، والآخر تفسير معنى "والفرق بينهما إن تفسير الإعراب لا بد فيه من ملاحظة الصناعة النحوية، وتفسير المعنى لا يضر مخالفة ذلك"²، وبهذا قد يقع المفسر بما تقتضيه الصناعة النحوية، خصوصاً إذا التزم بأقوال مذهب نحوي وتجاوزته في تفسيره لقضية وقوع المجاز أو عدمه ووقوع الزيادة في القرآن أو عدم وقوعها، فقد يتجاوز الإعراب والمعنى الشيء الواحد "يوجد في الكلام أن المعنى يدعو إلى أمر والإعراب يمنع منه.. والتمسك بصحة المعنى يؤول إلى صحة الإعراب"³، ويعود هذا أيضاً إلى الصناعة النحوية وخلاف النحويين، وإن المتأمل في استعمال الكلمة في النص القرآني يخرج بتصورات منها ما يتصل بإيقاعها الصوتي ومنها ما يتصل بخصوصية استعمالها القرآني.

ومن خصائص تناسب النص وبلاغته أربعة على رأسها السجع، ثم الجناس، ثم الموازنة، فالإزدواج. فالجناس: "أن يكون تركيب الألفاظ في الكلام من جنس واحد"⁴، والتجنيس في عرف البلاغيين اتحاد شكلي كلي أو جزئي بين لفظتين أو أكثر داخل سياق الكلام؛ إما من جهة خط الحروف، أو من جهة شكلها وحركتها، أو من جهة نقطتها أو إهمالها، مع اختلاف نوعي في المعنى، كما في قوله تعالى: (ويوم

¹ - النبا العظيم، ص: 195.

² - المصدر السابق: ج 1، ص: 380.

³ - المصدر السابق: ج 1، ص: 385.

⁴ - المثل السائر، ج 1/ ص: 142، والجامع الكبير، ص: 256.

تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة¹، فمعنى (الساعة) الأولى: يوم القيامة الموعود، ومعنى (الساعة) الثانية: قدر الزمن الأرضي المعلوم.

وأما الموازنة وهي هنا أقرب ما تكون إلى مفهوم الميزان الصرفي الذي يدرس أصول اشتقاق الكلمات العربية، تعني: توالي المفردات داخل الجمل والفواصل النثرية على نفس الميزان الصرفي، مما يتولد عنه تماثل في الحركات الإيقاعية وانتظام في المسافات الصوتية.

وقد دافع ابن الأثير أيضا عن خاصية الموازنة هذه، واعتبرها أساس الاعتدال في الكلام المنثور، قال في تعريف الموازنة وشرح خصائصها: "الموازنة أن تكون ألفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن، وللكلام بذلك طلاوة ورونق سببه الاعتدال، لأنه مطلوب في جميع الأشياء، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان"².

وأما السجع كما يقول ابن الأثير³: "فيكون الكلام مسجوعا بتواطؤ الفواصل النثرية على حرف واحد"⁴.

والمراد بالتواطؤ هنا: التابع المنتظم للسجعات من غير نقص وتقطع أو إخلال، ومن غير تغيير لحركاتها وسكناتها، كما في قوافي الشعر المتحدة الصافية عندما تخلو من عيوب القوافي البشعة المرذولة كالإيطاء والتضمين وغير ذلك، مما هو مقرر وثابت بالشواهد والأمثلة في كتب العروض والتقفية.

وأما الازدواج فهو أن يكون الكلام مزدوجا "إذا قسم إلى فقر متساوية ومتوازية في الطول أو القصر"⁵، وبعبارة أخرى أوضح أن يكون عدد الكلمات في الجملة النثرية الأولى ماثلا للعدد الموجود في الجملة الثانية، أو لسائر الجمل المتتالية.

وينبغي هنا أن تتقارب الفقرات أو الجمل فيما بينها طولا وقصرا حتى يتحقق التناسب بصورة أكمل وأوضح، و"لئلا يبعد على السامع وجود القافية فتذهب اللذة"⁶.

¹ - سورة الروم، الآية: 55

² - المثل السائر، ج1/ ص: 377.

³ - ضياء الدين ابن الأثير أحد وجوه النقد والكتابة العربية في العصر الأيوبي، توفي سنة 637 هجرية.

⁴ - ضياء الدين بن الأثير الجزري ك (المثل السائر)، ج1/ ص: 333، و (الجامع الكبير)، ص: 251.

⁵ - سر الفصاحة، ص: 165.

⁶ - ينظر: ثمرات الأوراق، لابن حجة الحموي، ص: 412.

وهذه المكونات الأربعة إذا اجتمعت كلها، وكان السجع قائدها تحقق التناسب الكامل والتناغم العالي الرفيع بين أجزاء الكلام المنشور: نظام الفقرات، و نظام الجمل والفواصل، ونظام الكلمات والحروف. ونضرب أمثلة تطبيقية من القرآن الكريم زيادة في الفهم والتوضيح، وفي هذه الأمثلة تظهر خصائص الاعتدال والانسجام بين عناصر التناسب النثرية الأساسية المشار إليها سابقا، إن بشكل جزئي أو بشكل كلي:

فمن الآيات القصيرة المناسبة التي جاءت مبنية على كلمتين قوله تعالى: (ياأيها المدثر قم فأندر وربك فكبر — وثيابك فطهر — .) سورة المدثر، آية: 1-2-3..
ونلاحظ في هذا المثال من سورة المدثر أن سجعة الراء ترد على الأذن في مسافات زمنية صوتية قصيرة جدا، وخاصة السجع القصير في الآيات المكية تتناسب مع طبيعة مضمونها وأسباب نزولها، حيث يتحقق منها إيقاع الرعب في نفوس المشركين بالتهديد بالنار، وبالوعيد بالويل والثبور.
أما ما جاء في القرآن الكريم من الآيات المناسبة المبنية على ثلاث كلمات فمثل قوله تعالى: (وآتيناهما الكتاب المستبين — وهديناهما الصراط المستقيم —) سورة الصافات، 117 و 118.

ونلاحظ في هذا المثال من سورة الصافات أن كل كلمة في الجملة الأولى لها نظير في الجملة الثانية، على مستوى الحركات والميزان الصرفي، فآتيانها على وزن هديناهما، والكتاب على وزن الصراط، والمستبين على وزن المستقيم.

وهكذا يكون المثال الأول من قوله تعالى في سورة المدثر، قد جاء مزدوجا مسجوعا من غير موازنة، أما المثال الثاني من قوله تعالى في سورة الصافات فقد جاء مزدوجا متوازنا من غير سجع.
أما الآية السابقة (قوله تعالى: (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة)، سورة الروم، الآية: 55) من سورة الروم فقد جاءت مجنسة مسجوعة، من غير ازدواج أو موازنة، والجملة الثانية تطول عن الأولى بقدر كبير.

وأخيرا فإن كتاب الله قطعي الثبوت ظني الدلالة في عمومها، وظنية الدلالة هذه مرجعها طبيعة القرآن المعجز، ذلك أن منه الواضح أو البين - كما قال الطوفي في الإكسير - الذي تفهمه العرب من لغتها

ليانه ووضوحه، فهذا لا حاجة له إلى تفسير، ومن القرآن ما هو غير واضح، إما لاشتراك أو غرابة أو ظهور تشبيه، وهذا القسم هو المحتاج إلى التفسير والبيان¹.

كما يذكر الأستاذ فهد بن عبد الرحمن بعض خصائص القرآن الكريم من ناحية أسلوبه ولغته فيقول: «أنه لا يعلو عن أفهام العامة، ولا يقصر عن مطالب الخاصة... ومن خصائص أسلوب القرآن: تصوير المعاني»²

وبالجمله فإن النص القرآني يسمو على كل نص أدبي، شعرا كان أو نثرا أو منظومة أو مقامة أو مقالة أو خطبة أو أي كلام للبشر، ولهذا كان لا بد من التعامل مع خصائصه بجذر ودقة، وأختم بما قاله الشقي الوليد بن المغيرة في قولته المشهورة: والله إنكم لتعلمون أني أعلم العرب بأشعارها وأرجازها، بل بأشعار الجن وأرجازها، والله إن الذي جاء به محمد إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلوا ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته³.

المطلب الرابع: بين المنهج الإحيائي والتوجه التجديدي.

الإحيائية والتجديد خطان متلازمان، لا يجيد أحدهما عن الآخر، فالإحيائية تعني محاولة النهوض بالتراث الثقافي والموروث الديني وبث الروح فيه لبعثه من جديد، حتى يكون مناخا نحيا فيه كما عاشه الأولون، والتجديد هو محاولة فهم هذا التراث في ضوء ما أملت المتغيرات، وفي ضل مستلزمات العصر.

¹ - الطوفي الصرصري، الإكسير في علم التفسير، ص: 33.

² - فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن، ط14، ص: 65-66.

³ - جاء ذلك في كتب السيرة والسنة، فمن ذلك ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكانه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا! قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول؟! فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه! قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحر (يؤثر بآثره عن غيره)، فترلت: ذرني ومن خلقت وحيداً. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

وقد دأب المصلحون والمجددون على هذا النهج محاولين جهد أيمانهم أن يعيدوا للدين رونقه، وللأمة أمجادها التي تخلى عنها الخلف، ولم يعطوها حقها من الدراسة والنقد، وأرادوا إعادة الدين الذي افتقروه إلى حياتهم، ورد الناس إليه ردا جميلا.

وعليه فقد باشرنا وسائل وأدوات لحل قضايا ومشاكل ما تعانيه الأمة من أسقام وعلل، ووضعنا مناهج وخطوات محاولين الوصول إلى ما يمكن الوصول إليه، لأن المثالية حسب رأي كثير منهم كانت في عصر الرسالة، ثم ما فتأت تُفقد جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن¹، وأن الوصول إليها اليوم بات أمرا مستحيلا، ولكن الاقتراب منه ممكن ومعقول.

وفي إطار هذا الفهم تحرك زعماء الإصلاح عبر قرون قد خلت رافعين راية التغيير والتجديد بسم الله والدين، لإحياء ما اندثر من السنة، وما اندرس من الدين، متمثلين شعار "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها".

ويقسم عدد من الدارسين للفكر الإسلامي تطوره التاريخي الحديث إلى مرحلتين؛ الأولى هي الإصلاحية والنهضوية، ومثلها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وأبي ضياف وخير الدين التونسي، ومحمد رشيد رضا (في أحد مراحل تطور خطابه الفكري)، واعتبر كل من مالك بن نبي وابن باديس وغيرهم امتدادا لهذه المدرسة الفكرية، التي حاولت التجاوب مع تحدي التخلف والاستبداد ومواجهة الحملة الغربية والاستعمار، ولئن تعددت اتجاهات وسبل الإجابة عن التحديات السابقة عند رواد المدرسة، فإنهم جميعا اتفقوا على إدانة الظروف الحضارية التي عايشوها والسعي الحثيث إلى التجديد الحضاري والفقهي، واتفقوا كذلك على ضرورة الإفادة من الغرب والحداثة والنظر في الأسباب التي أدت إلى تقدم الغرب وتخلف المسلمين، وقد تجلّى الجواب من خلال عدة فرضيات: محاربة الاستبداد (عبد الرحمن الكواكبي)، الإصلاح الديني والتجديد السياسي (جمال الدين الأفغاني)، السنن الكونية (مدرسة محمد عبده)².

¹ - إشارة للحديث الذي ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خيرُ الناسِ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال: ثم يتخلف من بعدهم خلفٌ تسبقُ شهادةُ أحدهم يمينه ويمينه شهادته .

² - محمد سليمان أبو رمان، ما بعد الإحيائية الإسلامية، مجلة العصر، الجمعة، 30 أبريل 2010 م.

تلا هذه المدرسة تاريخياً بروز الاتجاه الإحيائي، والذي تحول في بؤرة خطابه الفكري والسياسي من الاهتمام بمسألة النهضة والإصلاح إلى جدل "الهوية" في ضوء إرهابات الاستقلال والصراع الفكري الذي احتدم بين التيارات الفكرية والسياسية العربية العلمانية والإسلامية، فقد أدت وفاة الإمام محمد عبده إلى انقسام مدرسته التجديدية إلى اتجاهين؛ علماني يمثله: (قاسم أمين وسعد زغلول) وإسلامي يمثله: (محمد رشيد رضا، وجمعية الشبان المسلمين)، ومثلت جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها الشهيد حسن البنا تلميذ رشيد رضا البداية الحقيقية للإحيائية الإسلامية وعبرت عنها بشكل كبير الحركات الإسلامية المتعاقبة بتنوع أطيافها الفكرية والسياسية¹.

ويعتمد العديد من المحللين والدارسين للظاهرة الإسلامية من الغربيين بخصوص تفسير أسباب موجة الأصولية الإحيائية وأبعادها المعادية للغرب على الدراسات الاستشراقية والأنثروبولوجية المعاصرة على وجه الخصوص، ويدين صموئيل هنتنغتون² الذي نال شهرة عالمية بسبب نظريته "صدام الحضارات" إلى هذه الرؤية الاستشراقية الجديدة، وبشكل رئيسي إلى تحليلات كل من برنارد لويس³ ودانيال بايس⁴ من جهة، وخطاب الحركات الإسلامية ذات التوجهات المعادية للغرب من جهة أخرى⁵.

¹ - المصدر السابق.

² - صامويل فلبس هنتنغتون Samuel Phillips Huntington. (ولد 18 أبريل 1927م - توفي 24 ديسمبر 2008م)، أستاذ علوم سياسية اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية. انظر: <http://ar.wikipedia.org/wiki>

³ - برنارد لويس (من مواليد 31 مايو 1916م، لندن) أستاذ فخري لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. وتخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب، وتشتهر خصوصاً أعماله حول تاريخ الامبراطورية العثمانية، ولد من أسرة يهودية من الطبقة الوسطى في لندن، اجتذبه اللغات والتاريخ منذ سن مبكرة، اكتشف عندما كان شاباً اهتمامه باللغة العبرية ثم انتقل إلى دراسة الآرامية والعربية، ثم بعد ذلك اللاتينية واليونانية والفارسية والتركية، تخرج عام 1936م من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية (SOAS)، في جامعة لندن، في التاريخ مع تخصص في الشرق الأدنى والأوسط. حصل على الدكتوراه بعد ثلاث سنوات، من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية متخصصاً في تاريخ الإسلام.

⁴ - دانيال بايس (بالإنجليزية: Daniel Pipes) (بوسطن 9 سبتمبر 1949م) مؤلف ومؤرخ أمريكي متخصص في نقد الإسلام. انظر: <http://ar.wikipedia.org/wiki>

⁵ - الإحيائية الإسلامية وفرضية الصدام مع الغرب، مجلة كتاب الغد، <http://www.alghad.com/index.php/article/444298.html>، يوم 2011/07/25م.

إلا أن الإحيائية الإسلامية ذاتها شهدت مراحل تاريخية متعددة أدت إلى خطابات فكرية متباينة في النظر إلى القضايا الرئيسة والمحورية، كمفهوم الدولة الإسلامية والتعددية السياسية، والنظر إلى الحداثة والحريات العامة، ومنهج التغيير السياسي، وتمثلت المدرسة الإحيائية في اتجاهين رئيسين: مدرسة حسن البنا وحسن الهضيبي والقرضاوي والغزالي ومجموعة من الرموز الذي كانوا أكثر انفتاحاً وتفاعلاً مع الحالة السياسية العربية برؤى غير راديكالية تقوم على التعايش، ويسجل المفكر الإسلامي إبراهيم غرايبة¹ أن جماعة الإخوان المسلمين -صيغة حسن البنا- لم يحتو نظامها الأساسي على هدف إقامة الدولة الإسلامية وإنما الدولة الصالحة².

ويجادل المستشرقون بأن الإحيائية الإسلامية تتكئ دائماً في خطابها على عنصرين ذاتيين يطبعان التجربة التاريخية للإسلام، وقد ساهما في عملية انبعاث الإسلام الحديث كطاقة اجتماعية وقوة سياسية فضلاً عن جعله عنيفاً بصورة حاسمة، العنصر الأول: يتمثل في الرغبة العارمة بالربط الحتمي بين الدين والسياسة، انطلاقاً من مقولة أن الإسلام كان دائماً ديناً ودولة لا ينفصمان، أما العنصر الثاني: فهو يتمثل في التأكيد على الصيرورة التاريخية لوحدة الأمة الإسلامية ككيان عابر للقوميات والإثنيات³.

في مقابل الاتجاه السابق ظهر الاتجاه الإحيائي المتشدد الذي شكلت كتابات كل من سيد قطب والمودودي أيدلوجيته الرئيسة، ومثلت الأدبيات الرئيسة له، وكما يسجل عدد كبير من الباحثين، فإن هذا الاتجاه سيطر على الحركة الإسلامية طيلة فترة الخمسينيات والستينات، وامتد إلى العالم العربي انطلاقاً من مصر، حيث كان الإخوان في السجون يتعرضون لأبشع أنواع التعذيب والقتل، في حين

¹ - باحث وكاتب صحفي أردني، يكتب في الصحف والمجلات الأردنية والعربية، وصدر له عدد من الكتب والدراسات في مجالات الفكر الإسلامي، والعمل الاجتماعي، والتنمية والإصلاح، وعروض الكتب، والثقافة، كما عمل في مجال الدراما وقدم برنامجاً تلفزيونياً عن الكتب. انظر: <http://ar.wikipedia.org/wiki>.

² - إبراهيم غرايبة، الخطاب الإسلامي والتحويلات الحضارية والاجتماعية، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/>.

³ - الإحيائية الإسلامية والصدام مع الغرب، (مصدر سابق)، وانظر أيضاً: مجلة المقتطف الإسلامي، مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد: 163، 13 كانون الثاني، 2012، 19 صفر، 1433هـ.

*- الإثنيات (Ethnic) تعني: الأقليات.

اعتبر كتاب "معالم في الطرق" (لسيد قطب) بمثابة "المنفستو¹ الإسلامي" الذي قدّم للرؤية الراديكالية الإسلامية والتحول في منهج جماعة الإخوان المسلمين من انفتاح وتعايش البناء إلى تشدد سيد قطب ومحمد قطب وعبد السلام فرج، إلا أن هناك اتجاه داخل الفكر الإحيائي ما يزال يرفض أن هناك اختلافًا بين مدرسة البناء وقطب، وربما أبرز من يمثل هذا الاتجاه هو د. محمد أبو فارس²، والذي لا يرى في سيد قطب ورؤيته سوى امتدادًا تاريخيًا لحسن البناء.

ومن رحم الإحيائية المتشددة ولدت مدرسة الغلو والتطرف، وتأسست جماعات الجهاد، والتي اعتمدت بداية على أفكار سيد قطب ومحمد قطب والمودودي إلا أن دائرة أدبياتها السياسية تحولت بشكل أكبر -فيما بعد- للتراث السلفي (ابن تيمية والشوكاني)، وعكس كتاب عبد السلام فرج "الفريضة الغائبة" بوادر أيولوجيا التحالف القادم بين السلفية والجهادية، الأمر الذي ظهر بوضوح -فيما بعد- مع التيار السلفي الجهادي (التنظيم الحركي أيمن الظواهري، أسامة بن لادن) والتنظير الفكري (أبو قتادة الفلسطيني، أبو محمد المقدسي، أبو بصير الشامي).

مع فترة السبعينات حدثت مراجعات داخل الحركات الإحيائية الإسلامية، وعاد الإخوان المسلمون في مصر -ثم في الدول الأخرى- من رؤية سيد قطب إلى رؤية البناء مرورًا بكتاب المهضيبي "دعاة لا قضاة". في مقابل الاتجاه الإحيائي الإخواني برافديه السابقين، بدأت الحركة الإحيائية السلفية تنتقل من الديار السعودية إلى الدول المختلفة في العالم العربي والإسلامي، وساهم في نشر هذه الدعوة وازدهارها الكبير في الثمانينات أموال النفط التي نفخت فيها بتواطؤ من النظم العربية المحافظة والعالم الغربي لمواجهة خطر الثورة الشيوعية الإيرانية 1981م، ولاحقًا خطر الشيوعي، إلا أن المدرسة السلفية، بصيغتها السعودية الوهابية التقليدية، قد انقسمت في التسعينات إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية: التقليدي (المتحالف مع النظام المحافظ العربي)، والإصلاحي (محاولة الاقتراب بخجل من إصلاحية رشيد رضا وابن باديس العقلانية

¹ - المنشور أو المخطط.

² - محمد عبد القادر أبو فارس، نائب أردني، من مواليد بلدة الفالوجة لعام 1940م، الفلسطينية، وهو أستاذ شريعة سابق بالجامعة الأردنية، وأستاذ مشارك في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية، ورئيس مجلس الثقافة والتربية والتعليم لجمعية المركز الإسلامي الخيرية، ومدير مجلس الثقافة والتربية والتعليم في جمعية المركزي الإسلامي الخيرية، وعضو المكتب التنفيذي الأسبق لجماعة الإخوان المسلمين، وعضو مجلس شورى الإخوان والحزب.

المستنيرة، أو التأثير بأدوات النشاط الاجتماعي للإخوان المسلمين: السلفيون الإخوان، السروريون¹..)، والجهادي (برز بقوة بعد حرب الخليج الثانية ويشكل امتداداً للجماعات السلفية المصرية وعولمة للجهاد بعد تجربة أفغانستان وتمثل جماعات العنف السلفي المنتشرة اليوم هنا وهناك أبرز تعبيراته الحركية). واليوم يسجل عدد من الباحثين والخبراء العرب والغربيين عودة الحياة إلى مدرسة الإصلاح من خلال التيار الفكري السابق، فأوليفيه روا² (المفكر اليساري الفرنسي) يرصد في كتابيه "فشل تجربة الإسلام السياسي" و"عولمة الجهاد"³ الكثير من الظواهر التي تدل على نمو اتجاهات إسلامية متعددة كلها تشير إلى تجاوز المجتمعات الإسلامية اتجاه الإحيائية الإسلامية، كما يسجل في كتابيه حالة التراجع للحركات الإحيائية، فيما يتحدث رضوان السيد عن الإسلاميين الجدد، ويراجع مازن النجار كتاب "إسلام بلا خوف"...

إلا أن الذي يعبر بوضوح عن التيار الجديد وتصوراته هو أحمد كمال أبو المجد في كتابه: "رؤية إسلامية معاصرة"، ثم عاد عبد الوهاب المسيري قبل سنوات قليلة ليؤكد على وجود "خطاب إسلامي جديد" في مقابل الخطاب القديم، ولعل أبرز ملامح الخطاب الجديد - كما يسجلها المسيري نفسه - هي في الانتقال مرة أخرى من السلطة ومحوريتها إلى الأمة ونهضتها، وإعادة قراءة التاريخ وفق منطق الصيرورة والتحول، كما يختلف هذا الخطاب مع الخطاب الإسلامي القديم من الحداثة، فالخطاب الجديد يتفاعل مع الحداثة من المنظور النقدي الموضوعي، ويقدم رؤيته المنبثقة من النظرية المعرفية الإسلامية للوجود والإنسان والمجتمع⁴.

¹ - نسبة إلى محمد بن سرور بن زين العابدين صاحب هذا التيار الديني، والسرورية حركة فكرية دينية انشقت عن السلفية وولدت من رحم الإخوان المسلمين. انظر: <http://beidipedia.wikia.com>.

² - أوليفيه روا كاتب وباحث فرنسي متخصص في الشؤون الإسلامية، فرض نفسه منذ الثمانينيات واحداً من أهم المختصين بدولة أفغانستان مع صدور كتابه أفغانستان: إسلام وعصرية سياسية الصادر عن منشورات Seuil عام 1985م. وقد وسع لاحقاً مجال أبحاثه لتشمل الإسلام السياسي بمجمله، ويعد "روا" اليوم من أهم المطلعين على الشبكات الإسلامية في العالم. انظر: www.daralsaqi.com.

³ - الترجمة التي أنجزتها دار الساقى في العام 2004م.

⁴ - أبو المجد، أحمد كمال، رؤية إسلامية معاصرة، القاهرة، دار الشروق، 1991م.

ومن المشاريع التجديدية التي يدعوا إليها المفكرون الإسلاميون اليوم مسألة قراءة التراث الإسلامي قراءة معاصرة، الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للتقويم وإعادة النظر، التجديد في التفسير.... الخ. وكان جمال الدين أول مفكر مسلم في العصر الحديث يؤكد بصراحة أن السبيل الوحيد لنجاة المسلمين هو العمل بأحكام القرآن وتطبيقها في الحياة¹، ويرى أن بعث الأمة واستنهاضها لن يتحقق من دون «بعث القرآن، وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت، من حيث يأخذ بها إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرة»².

وقد تنبه جمال الدين باكراً إلى العلة التي أقعدت المسلمين عن صياغة تفسير للقرآن يوائم مستجدات الزمان ويستجيب لرهانات العصر، فصرح أن هذه العلة تكمن بتقديس التفاسير الكثيرة التي تراكت حول النص القرآني، عبر مختلف عصور الحضارة الإسلامية، وتشبعت بملابسات الزمان والمكان، وعقيدة المفسر، ورؤيته، المنبثقة من بيئته الخاصة، وما تمور به من أسئلة ومعارف لا تتجاوز الفضاء الداخلي للبيئة، فحين يتعامل البعض مع رأي المفسر كما يتعامل مع الوحي، يتحول هذا الرأي إلى نص ثانٍ يطمس النص القرآني، ويجول دون استنطاقه واستيحاء دلالاته المتجددة، التي لا تنضب أبداً، فان القرآن كما يقول الإمام علي عليه السلام «بحر لا يئزفه المستترفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون»³.

واستأنف لاحقاً تلميذه الشيخ محمد عبده الامتداد بتجربة أستاذه، في أسلوب التعامل مع تراث المفسرين، ومنهجه في الكشف عن المداليل الاجتماعية للذكر الحكيم، وهو ما يتجلى في رسالة*⁴ سياسية بعث بها محمد عبده إلى أحد أعضاء جمعية العروة الوثقى، يكتب فيها «وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه، واحمل بنفسك على ما يُحمل عليه، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة

¹ - جمال الدين الأفغاني، الأعمال الكاملة، تحقيق: د. محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م، ج2، ص: 67.

² - عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني: ذكريات وأحاديث، القاهرة: دار المعارف، 1948 م، ص 27.

³ - الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغة، خطبة 198 «في صفة القرآن» فقرة 28.

⁴ - بهذا العبارات القوية اوجز الاستاذ الامام محمد عبده منهجه في التفسير عندما كتب من باريس الى احد اعضاء جمعية العروة الوثقى في رسالة سرية. انظر نادي الفكر العربي، <http://nadyelfikr.com>.

النبوية، واقفاً عند الصحيح المعقول، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبدول»¹. واقتفي التلميذ عبده خطى الأستاذ في تفسيره، و«طبق فيه منهج أستاذه الأفغاني»²، وتحدث بصراحة في مقدمة دروسه في التفسير التي قررها تلميذه السيد محمد رشيد رضا، عن أن التفسير الذي يرمي إليه «هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة»³. وعلى هذه الأسس اعتمد مجددوا العصر في تصحيح المسار التاريخي للأمة، وإعادة النظر في الموروث الثقافي دراسة وفهما وتطبيقاً، وعليه أيضاً بنوا المفاهيم القرآنية وعملوا على تجديد المناهج والسبل لفهم كتاب الله عبر تفاسير جديدة للقرآن الكريم، وذلك بمحاولة وضع مناهج تفسيرية جديدة، واتجاهات تخدم واقع المسلمين.

¹ - محمد عبده، الاعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 1، ص: 589.

² - المصدر السابق. ص: 28.

³ - محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار المعرفة، ج 1: ص: 17.

الفصل الثالث

اتجاهات التفسير التي نحتاج إليها لبناء نظرة جديدة

تمهيد:

لقد أورد محمد عبده تساؤلاً يتكرر في عصره والعصر الذي تلاه، ويتلخص في قول البعض، بأنه لا حاجة إلى التفسير والنظر في القرآن، لأن الأئمة السابقين نظروا في الكتاب والسنة، واستنبطوا الأحكام منهما، فما علينا إلا أن ننظر في كتبهم ونستغني بها، ثم أجاب بصيغة استفهام استنكاري، بأن هذا الزعم لو صح لكان طلب التفسير عبثاً، يضيع به الوقت سدى، وهو مخالف لإجماع الأمة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى آخر واحد من المؤمنين، ولا أدري كيف يخطر هذا على بال مسلم؟!، وشدد على أن المخاطب في القرآن هم أفراد النوع الإنساني في كل زمان، والقرآن أنزل لهداية هذا النوع، فهل يعقل أنه يرضى منا بأن لا نفهم قوله هذا، ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه، لم يأتنا من الله وحي بوجوب إتباعه لا جملة ولا تفصيلاً؟!، وأردف هذا الاستفهام بنفي قال فيه: كلا، إنه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته، لا فرق بين عالم وجاهل¹.

وفي محاولات التفسير اللاحقة حرص المصلحون من علماء الدين على ترسيخ صلة الأمة بالقرآن، وباشروا تجارب رائدة في التفسير، اتخذوا كتاب الله تعالى فيها محوراً لخطابهم الإصلاحية، ووظفوا تعاليمه في مقولاتهم، واهتموا بإحياء مصطلحاته ومفاهيمه، وصرح الكثير منهم بعجز التفاسير السابقة عن تلبية متطلبات الأمة المتنوعة، وحرصوا جميعاً على تدريس التفسير، وتدوينه بيان ينتفع به كل الناس، لأنهم وجدوا أن إحياء الأمة غير ممكن ما لم يستند إلى بعث القرآن، وإشاعة تعاليمه وأفكاره، فاقترنت دعواتهم باستلهام روح القرآن، وفهم قضايا الأمة في ضوء توجهاته على الدوام؛ ولا شك أن الأمر الذي يساعد على الفهم السوي السليم للقرآن هو "حُسن تفسيره بما يبيّن مقاصده ويوضح معانيه، ويكشف اللثام عما فيه من كنوز وأسرار، ويفتح مغاليقه للعقول والقلوب"²؛ حتى أن المجاهد الشيخ عبد الحميد بن باديس «أثر البدء بتفسيره درساً تسمعه الجماهير، فتتعجل من الاهتداء به، ما يتعجله المريض المنهك من الدواء، وما يتعجله المسافر العجلان من الزاد»³، وعكف عليه إلى أن ختمه في خمس وعشرين سنة، فاحتفلت الجزائر احتفالاً بهيجاً عام 1357 هـ بمناسبة ختمه لتفسير القرآن، وقد ضاق المستعمر الفرنسي ذرعاً بروح المقاومة، والوعي الجديد، الذي أجمته دروس بن باديس التفسيرية في

¹ - محمد عبده، تفسير المنار، (بيروت: دار المعرفة)، ج1، ص38.

² - يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، (بيروت: دار الشروق، ط1، 1419هـ/1999م)، ص217.

³ - د. عفت محمد الشرقاوي، اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص: 278.

الأمة، وكان بن باديس قد تنبأ بانفجار الثورة على المستعمر الغازي، «فعبأ لها الجهود، وأشار إلى جبال أوراس الحصينة، وقال لأبنائه وطلابه: من هنا تبدأ الثورة.. وبيع بعضهم فرداً فرداً، استعداداً للتعبة وإعلان الجهاد الإسلامي والحرب ضد فرنسا، ولكن المنية عاجلته»¹.

وكان الشيخ أبو الأعلى المودودي يعمل على تفسير القرآن، وهو في غمرة مهامه في العمل في سبيل الله، فأمضى ثلاثين عاماً من حياته في إعداد تفسيره «تفهم القرآن»، ولم تشه العوائق المتنوعة كالسجن وملاحقة السلطة عن أداء هذه المهمة²، وهكذا أمضى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور خمسين عاماً كاملة في تأليف تفسيره «التحرير والتنوير»³.

أما السيد محمد حسين الطباطبائي فقد أنفق ثماني عشرة سنة تقريباً في تدريس وتدوين تفسيره «الميزان في تفسير القرآن»⁴، وستحدث إن شاء الله تعالى في المباحث التالية عن أهم اتجاهات التفسير في العصر الحديث، مثل الاتجاه الاجتماعي والإصلاحي، وكذا الاتجاه البلاغي البياني والاتجاه العلمي، والموضوعي.

المبحث الأول: الاتجاه الاجتماعي للإصلاحي لتفسير القرآن الكريم

يعتمد الاتجاه الاجتماعي على تفسير القرآن الكريم حسب ما تقتضيه متطلبات العصر، وبأسلوب يتبنى معالجة المشاكل الاجتماعية، ويهدف هذا الاتجاه إلى ترويح الحركة الإصلاحية ورفض غبار العادات والخرافات والتحريف والجمود عن الدين، والسعي لإيجاد هوية دينية مستقلة في ظل المعارف القرآنية في المجتمع، حيث كان العالم الإسلامي في القرون المتأخرة ينطوي على كثير من عوامل الضعف والتخلف، وكان الجهل بأحكام الإسلام ومفاهيمه من جهة، واستحكام العادات المحلية من جهة أخرى، من أبرز ما يميز الوضع الاجتماعي والفكري لهذا العالم.

¹ - دائرة المعارف الإسلامية (مادة التفسير)، ص: 368 — 374.

² - د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). التفسير البياني للقرآن، القاهرة: دار المعارف، ص: 10 — 11.

³ - د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم. الكويت، دار القلم، ص 155.

⁴ - نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، صدر عن دار الشروق، في 560ص، سنة 1996 م.

ونستطيع أن نلخص واقع العالم الإسلامي في القرون الأخيرة: الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر بما يأتي:

- 1- كانت العادات والتقاليد القومية والمحلية لها قدسية في نفوس الجماهير.
- 2- كانت البدع والخرافات وبعض الطقوس الدخيلة تلبى ثوب الدين، وتخفي وراءه حقيقتها، وتحجب بمساوئها عظمة الإسلام وعدالته ورفعته.
- 3- كان للامة والغوغاء سلطان كبير، فلا يجروا العلماء على مخالفتهم.
- 4- أكثر علماء المسلمين يقفون من الحضارة الغربية موقفاً سلبياً لا يقتربون منها ولا يأخذون من علومها شيئاً.

5- تقاسمت دول أوروبا العالم الإسلامي، وأعدت مخططات ومحاولات لإبعاد المسلمين عن دينهم¹. وأصبح العالم الإسلامي يتطلع إلى اتجاه يروم الإصلاح، حتى كان جمال الدين الأفغاني الذي قام بحركة فكرية هامة، تصدع بصوت عامر بالإيمان، ومعتز بالقرآن، ويدعوا إلى معالجة الفساد الاجتماعي، وذلك بالرجوع إلى الإسلام الحق، فكان من ذلك الاتجاه إلى إصلاح المجتمع من خلال تفسير آيات القرآن الكريم، وقام عدد من العلماء بحمل هذه المهمة مهمة التفسير الإصلاحي الاجتماعي للقرآن منهم الأفغاني ومحمد عبده والسيد محمد رشيد رضا والعلامة ابن باديس... رحمهم الله جميعاً. وتقول الدكتورة معصومة حسيني ميرصفي²: «إن الاتجاه الاجتماعي يُعدّ إحدى الاتجاهات الهامة والمؤثرة في علم التفسير في العصر الحاضر، والنقطة الهامة في هذا الاتجاه، هو التغير الذي طرأ على نظرة علماء التفسير إلى القرآن الكريم واهتمامهم بالبعد الاجتماعي للقرآن بدل مجرد الرؤية الفردية والأخروية، وعلى هذا الأساس نراهم يسعون وراء إيجاد حلول للمشاكل المادية والمعنوية في المجتمع من خلال تفسير القرآن الكريم، وقد قام علماء التفسير المعاصرون، عبر فهمهم ونظرهم الخاصة لمتطلبات

¹ - تلخيص كتاب لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، تأليف: الدكتور محمد بن لطفي الصباغ، ص: 52، وانظر أيضاً:

اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة الأولى 1407 هـ، 1986م.

² - كاتبة وباحثة في مجال العلوم الدينية والقران الكريم وعضو الهيئة العلمية في جامعة آزاد الإسلامية؛ شاركت بهذه الورقة في ندوة اقيمت بجامعة المذاهب الاسلامية في طهران بتاريخ الاحد 27-11-2011م، تخليداً لذكرى العلامة الشيخ محمد عبده و العلامة الشيخ محمد رشيد رضا، من رواد الإصلاح والتجديد ونبذ العصبية ووحدة العالم الإسلامي.

العصر الذي كانوا يعيشون فيه، بيان الدلالات القرآنية والإجابة على تساؤلات واستفهامات المخاطبين»¹.

كما إن التأكيد على هداية القرآن في جميع العصور، وشمول القرآن الكريم على الأحكام والتعاليم الاجتماعية، واهتمامه بموضوع الإصلاح الفردي والاجتماعي، والسعي لمواكبة الدين للمستجدات والمتغيرات العصرية، يعتبر ذلك من أهم أسس الاتجاه الاجتماعي.

ويمكن أن نجد رابطاً وصلة قوية بين هذا لاتجاه والعلوم الاجتماعية المعاصرة باعتبار أن القرآن جاء ليخاطب الناس في واقع مرتبط بالمكان والزمان، ويصف لهم أحوالهم ومتطلباتهم في ذلك العصر الذي يعيشونه، ومثال ذلك أنني حينما أرى ظاهرة عزوف الشباب عن الزواج في هذا العصر، وأجد أن السبب الرئيسي لهذا هو الفقر وعدم استطاعتهم البقاء، وأجد في الوقت نفسه آية من القرآن تقول: ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم﴾²، أتعجب من أن القرآن قد سبق خطابه للناس واقعهم، وأقر أن تكون ظاهرة الفقر هي سبب ظاهرة العزوف عن الزواج، فيعطيك الحل ويطمأنك، فالحل في التماس الزواج، والاطمئنان في أن الرزق سيأتيك من هذا الباب الذي كنت تخاف منه، ولهذا جاء في الحديث أن التمسوا الرزق في الزواج، طبعاً بعد دفع قدر الفقر بقدر الغنى، بواسطة الجد والعمل، لأن أول واجب يترتب على الزواج النفقة التي فرضها الله على الزوج ولا تكون إلا بالتكسب والعمل.

وانظر إلى هذه السورة -سورة النور- التي تتحدث عن العرض وعن الحقوق الاجتماعية للمرأة... وكل هذا يعد إشارة من القرآن الكريم إلى العلوم الاجتماعية كما سنوضح الصلة بين هذه العلوم بهذا الاتجاه التفسيري.

¹ - الدكتورة معصومة حسيني ميرصفي، العلامة الشيخ محمد عبده والاتجاه الاجتماعي في تفسير المنار، ديسمبر 2011م، <http://taghribnews.ir/vdcjyyea.ugetozf3fu.html>

² - سورة النور، آية : 17.

صلة الاتجاه الاجتماعي في التفسير بالعلوم الاجتماعية

إن العلوم التي تشترط في المفسر تعدد وتنوع بحسب الاتجاه التفسيري، فحين نتحدث عن التفسير الفقهي يبرز الفقه وأصوله من أهم العلوم التي يحتاجها المفسر، وحين يكون التفسير لغوياً تكون علوم النحو والبلاغة ونحوهما من أهم العلوم التي يطلبها، وهكذا تنوع العلوم التي يحتاجها المفسر وتعدد بحسب الاتجاه الذي يتجهه المفسر، كما يمكن التمييز بين مستوى من العلوم يجب في كل اتجاهات التفسير ومدارسه وبين مستوى متخصص في علوم معينة بحسب الاتجاه.

فلا نتصور تقدماً للاتجاه الاجتماعي في التفسير دون الإحاطة بما تعرف هذه العلوم من توسع وثورة حقيقية، إلا الاستفادة من هذه العلوم لا يمكن أن تتم إلا وفق ضوابط تميز في المضامين بين المستويات الثلاثة المشهورة¹:

المستوى الأول: ما يتوافق توافقاً بيننا مع ما دل عليه الوحي: وهذا الذي لا مانع من الاستفادة منه، وهو الذي يكشف عن المساحات المشتركة.

المستوى الثاني: وهو ما يتعارض تعارضاً بيننا: وهذا الذي ينبغي رده وإبطاله ونوسع بذلك دائرة النقد والتسديد للفكر البشري.

المستوى الثالث: وهو الذي لم يترجح فيه شيء: وهو الذي يكون مجال البحث والتناظر ليترجح الموقف السليم منه.

ثم لا بد أن نخرج من دائرة أن نكون مع أو ضد إلى مستوى الإبداع والمبادرة واستعادة دور الريادة في هذه العلوم.

وقد ذكر العلماء والمفسرون تعاريف عديدة للتفسير الاجتماعي في مؤلفاتهم:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي: «يمتاز التفسير في هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك: أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف، الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلون بلون يكاد يكون جديداً وطارئاً على التفسير، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار

¹ - الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان، الأستاذ منصور زويد المطيري، ضمن سلسلة كتاب الأمة رقم: 33، ربيع الأول 1413هـ.

مواضع الدقة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخذ، ثم يطبق النص القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونُظّم العمران»¹. ويرى آخرون أن أدوية الأمة من الأسقام التي تعيشها موجودة في كتاب الله، وهذا سبب كاف للرجوع إلى مثل هذا اللون من التفسير، حيث يقول الدكتور فهد الرومي: «ففي القرآن علاج للأمراض الاجتماعية، وحلول للمشكلات السياسية، والقضايا الأسرية، ولهذا اتجهت طائفة من المفسرين يعنون بهذه الآيات ويتوسعون في تفسيرها طالبين علاج مشكلات مجتمعاتهم فينظر المفسر إلى مجتمعه نظرة الطبيب الفاحص يلتمس داءه، ويتعرّف علي علته، حتى إذا عرفه نظر في القرآن يطلب الدواء والعلاج فإذا وجدته توسّع في شرحه ويقترن الاتجاه الاجتماعي في التفسير مع الاتجاهات العامة المتداولة في عصر المفسر كالاتجاه الجهادي، والاتجاه التربوي والإرشادي، والاتجاه التقريبي، كذلك الحركات الثورية ونهضات الإصلاح الاجتماعي، كما يعتبر هذا الاتجاه أحد أبرز اتجاهات التفسير في العصر الحاضر»².

وليس الاتجاه الاجتماعي في التفسير إخضاعاً للقرآن الكريم للنظريات الاجتماعية الغربية، وليس مجرد نقل لنتائج الدراسات الاجتماعية وترديد لها، كما أنه ليس توفيقاً بين ما جاء في القرآن الكريم من أحكام اجتماعية وبين معطيات العلوم الاجتماعية. إنه يهدف إلى دراسة المساحة الاجتماعية بالقرآن مستعينا بكل ما يخدم هذا الهدف دون أن يكون أسيراً لشيء من ذلك.

ويمكن أن نقسم في هذا المقام التفسير الاجتماعي إلى وجهتين متكاملتين³:

أ. التفسير برؤية اجتماعية:

التفسير الاجتماعي هو تفسير الآيات وتبيين المفاهيم القرآنية من زاوية اجتماعية ناظرة إلى الأبعاد الوجودية للإنسان وتغيرات المجتمع والأهداف التربوية والإصلاحية وتشريع القوانين، ويسعى المفسر

¹ - حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، طبعة دار الكتب الحديثة، ط2، ج2، ص: 547.

² - اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة الأولى 1407 هـ، 1986م.

³ - هذا التقسيم للدكتورة حسيني ميرصفي.

الاجتماعي إلى إيجاد حلول بالاعتماد على فهمه للمتطلبات الفردية والاجتماعية عبر المفاهيم القرآنية.

ب. التفسير المبني على أساس اجتماعي علمي:

التفسير الاجتماعي يسعى - بالإضافة إلى تبين المسائل الاجتماعية المذكورة في القرآن الكريم - إلى كشف الأصول والقواعد والسنن التاريخية والاجتماعية في القرآن الكريم، وفي هذا الاتجاه التفسيري، يحاول المفسر إيجاد انسجام في العلاقة بين الأهداف الدينية والأهداف الاجتماعية والعلوم الإنسانية.

الفرق بين التعريفين

إن التفسير الاجتماعي حسب التعريف الأول يمتاز بكون المفسر يسعى إلى مجرد شرح وتوضيح المفاهيم الاجتماعية في القرآن، إلى جانب بيان المسائل الدينية الخاصة بالمجالات الفردية، لكنه يختلف عن غيره من المفسرين بأنه يهتم باستخلاص المفاهيم الاجتماعية في القرآن، ومن ثم بيان سبل تطبيق تلك المفاهيم على أرض الواقع، بمعنى معالجة المسائل التربوية والاجتماعية في الحياة الإنسانية بالاعتماد على تلك المفاهيم التي استنبطها هو من القرآن.

وبعبارة أخرى فإن المفسر الاجتماعي حسب التعريف الأول هو كالمفسر ذو الرؤية الفردية، الذي يتناول المسائل الدينية الخاصة بالمجالات الفردية في القرآن الكريم، لكنه يختلف عنه بأنه بالإضافة إلى ذلك يسعى للعثور على السبل الكفيلة بمعالجة المشاكل والآفات المستشرية في المجتمع، ويتحرى بحثاً عن المفاهيم الاجتماعية في القرآن الكريم وتوضيح آيات تجسيد تلك المفاهيم بصورة ملموسة.

أما المفسر الاجتماعي حسب التعريف الثاني، فهو الذي يحاول إيجاد علاقة بين النظرية القرآنية في المجال الاجتماعي، وبين النظريات المطروحة على ساحة العلوم الاجتماعية، فالمفسر الاجتماعي بناءً على هذا التعريف هو في الحقيقة عالم اجتماعي يقوم بتفسير القرآن الكريم، ولذلك نراه يطرح نظريات علمية في المسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية¹.

ويمتاز هذا الأسلوب من التفسير بمحاولة التوفيق بين القضايا الإسلامية وقضايا العلوم الإنسانية المعاصرة، ولا يخفي ما لهذا الأمر من أبعاد عديدة، فمن جهة يجب تطبيق الأفكار القرآنية على المتغيرات الاجتماعية ومستجدات العصر الحديث ومتطلباتها، ومن جهة أخرى يجب طرح حلول واضحة بهدف إيصال المجتمع الإسلامي إلى أعلى قمم السعادة والفلاح.

¹ - الدكتور حسيبي ميرصفي، (مصدر سابق).

ومن هنا يتضح لنا أهمية هذا الاتجاه في التفسير لأن الحاجة ماسة لتقويم أحوال المسلمين، وتصحيح اعتقادهم وكذا توضيح علاقتهم مع خالقهم ومع الآخرين، خاصة ونحن نعيش هذه الظروف الصعبة بين تكالب الغرب حول مقومات ومقدرات أمتنا الإسلامية من جهة وبين ضياعنا وجهلنا بكتاب الله وبأحكامه وحكمه في شتى الميادين خاصة السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

ومن أهم كتب التفسير لهذا النوع:

- 1- تفسير المنار، الشيخ محمد عبده (1323 - 1266هـ.ق)، ومحمد رشيد رضا (1354-1282هـ.ق).
- 2- تفسير المراغي، الشيخ أحمد مصطفى المراغي (1371 - 1300 هـ.ق).
- 3- تفسير في ظلال القرآن، سيد قطب (1386-1326هـ.ق).
- 4- تفسير الوسيط، وهبة بن مصطفى الزحيلي (الولادة: 1351هـ.ق).
- 5- مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، عبد الحميد ابن باديس، (ت 1941م)-ألف سنة: 1982م.

وقد تميزت صبغة كل تفسير عن غيره بعدة مميزات فنجد التفسير "في ظلال القرآن للسيد قطب" يرتب ضمن التفسير الإصلاحي، كما يرتب ضمن التفسير الأدبي، ويستوي معه تفسير المنار في نهجه الإصلاحي، بينما يفارقه في أدبيته ويختص بالدراسة الاجتماعية. ولصلة هذا الاتجاه بالاتجاه البياني والأدبي نذكر خلال هذا المبحث أهم مقومات هذا الاتجاه وعلاقته بإحياء مفاهيم جديدة للقرآن الكريم، وتجديد بعض المعاني القرآنية التي تمم المجتمع المسلم المعاصر.

المبحث الثاني: الاتجاه البياني لتفسير القرآن الكريم

لقد ظهرت على مستوى ساحة الفكر الإسلامي تفسيرات جديدة للقرآن الكريم من أبرزها: التفسير البياني، والتفسير العلمي، والتفسير الإصلاحي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي، فضلا عن التفسير الحضاري للقرآن¹ الذي بدأه الدكتور سيد دسوقي²، وإن كان لا يزال في طور الإعداد.

¹ - رسالة في آفاق التفسير الحضاري للقرآن الكريم، د. سيد دسوقي حسن، ط1، 16 سبتمبر 2004م.

² - أ.د. سيد دسوقي حسن رئيس قسم هندسة الطيران بكلية الهندسة جامعة القاهرة، ورئيس هيئة تنمية الابتكارات باتحاد المنظمات الإسلامية، تلميذ للمفكر الإسلامي مالك بن نبي، وأحد أعلام دعوة الإخوان المسلمين في مصر مواليد قرية المرج ضواحي القاهرة في 17 من نوفمبر عام 1937م. انظر: <http://ar.wikipedia.org/wiki>. له اسهامات عديدة

والتفسير البياني هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصبّ فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير¹.

ويبرز في مجال التفسير البياني للقرآن بعض المحاولات المتميزة، مثل ما أنجزه سيد قطب تحت عنوان "في ظلال القرآن"، وما أنجزته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) بعنوان: "التفسير البياني للقرآن الكريم"، وما تركه الشيخ محمد متولي الشعراوي وقد كان أقرب إلى الخواطر حول القرآن، وما كتب الدكتور حسن باجودة² وغيرهم

وقد نسبت بنت الشاطئ منهجية التفسير البياني لأستاذها أمين الخولي، ثم جاءت مساهمتها في بنائه بدورها مقتفية أثر أستاذها، وما لبث المشروع أن توسع فيه عن طريق د. فاضل صالح السمرائي.

وقد اعتبر الدكتور: محمد جابري كتاب الجرجاني دلائل الإعجاز في علم المعاني هو أساس هذه الدراسات وقال: "لا أخفي ما كان للإيديولوجيين من يد في إبعاد هذا المساق عن سبيل الدراسات اللغوية والأدبية والتي اقتصرت على الشعر، تاركة جوهر المعاني البيانية وفنون النظم القرآني جانبا"³.

ومن أهم دعائم التفسير البياني: التبحر في علم اللغة، والتبحر في علم التصريف، وعلم النحو، وعلوم البلاغة، والقراءات فبالقراءات يترجح بعض الوجوه على بعض، بالإضافة إلى أسباب التزول وهو من الدلائل المهمة على فهم المعنى فبه تعرف كثيرا من الأمور التي قد يصعب فهمها لولاه، والنظر في السياق: فإن ذلك من ألزم الأمور للمفسر عموما، وللمفسر البياني على الخصوص، فبالسياق تتضح كثيرا من المعاني ويتضح سبب اختيار لفظة على أخرى، وتعبير على آخر، ويتضح سبب التقديم والتأخير

منها: تأملات في التفسير الحضاري للقرآن الكريم، 1- دراسة قرآنية في فقه التجدد الحضاري، 2- في آفاق التفسير الحضاري للقرآن الكريم، 3- مقالات في الإصلاح، 4- نظرات حضارية في القصص القرآني، 5- رؤى إسلامية في التنمية التقنية المستقلة.

¹ - فاضل صالح السمرائي، على طريق التفسير البياني، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، 1423هـ/2002م، الجزء الأول، المقدمة.

² - هو الأستاذ الدكتور حسن محمد باجودة، ولد في مدينة الطائف في صيف 1360هـ في قلب المدينة في زقاق يسمى زقاق المهراس. انظر: ترجمته في كتاب: "حسن محمد باجودة دراسة وقائمة ببيوجرافية" ص: 15: 19 بتصرف يسير للدكتور: عبد اللطيف عبد الحكيم سمرقندي، طبعة دار الأمين للنشر والتوزيع.

³ - الاتجاهات المعاصرة في التفسير، محمد جابري، انظر: <http://www.dahsha.com/threads>

والذكر والحذف ومعاني الألفاظ المشتركة، ومراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير الذي يراد تبينه ليستخلص المعنى المقصود، ومراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها، وأن يعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني كاستعمال الريح للشر، والرياح للخير، والغيث للخير والمطر للشر، والعيون لعيون الماء، والصوم للصمت والصيام للعبادة المعروفة وغير ذلك، وأن ينظر في الوقف والابتداء وأثر ذلك في الدلالة والتوسع في المعنى أو التقييد فيه وما إلى ذلك، وأن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة والعبارة ولو كان فيما يبدو له غير ذي بال فإنه ذو بال، فإن وجد له تعليلاً فذاك وإلا فسيأتي من يسر الله له تعليله وتفسيره كالإبدال في المفردة نحو (يَطَهَّر) و(يَتَطَهَّر) و(يَذْكُر) و(يَتَذَكَّر)، والذكر والحذف نحو (تذكرون) و(تتذكرون) و(يستطيع) و(يسطع) و(لاتفرقوا) و(لاتفرقوا)، وتغيير الصيغة نحو مغفرة وغفران، وعداوة وعدوان، ونخل ونخيل، والإدغام والفك نحو: (من يرتد) و(من يرتدد) و(يشاق) و(يشاقق) وما إلى ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة إلى العبارة، وأخيراً عليه إدامة التأمل والتدبر وهما من أهم ما يفتح على الإنسان من أسرار، ويهديه إلى معان جديدة، وقد قيل: "أصل الوقوف على معاني القرآن التدبر والتفكير"¹.

وجاء في البرهان: "وليس لغير العالم بحقائق اللغة ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين"²، وجاء في الإتيان أن المفسر يحتاج إلى التبحر في لسان العرب³.
وجاء فيه أيضاً أن المفسر يحتاج إلى اللغة والنحو والتصريف لأن به تعريف الأبنية والصيغ والاشتقاق والمعاني والبيان والبديع⁴.

¹ - فاضل صالح السمرائي، على طريق التفسير البياني، (مصدر سابق)، المقدمة.

² - انظر تفصيل ذلك في البرهان، ج2، ص: 165.

³ - الإتيان، ج2، ص: 182.

⁴ - الإتيان، ج2، ص: 180.

ويمكننا أن نحمل ملامح أو خصائص منهج الاتجاه البياني في تأملات أستاذنا الدكتور حسن باجودة لسور القرآن الكريم فيما يلي:

أولاً: إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية فالوحدة الموضوعية في السورة الكريمة، أو وحدة الهدف في السورة القرآنية، أو الوحدة العضوية في السورة القرآنية، أو الوحدة الفكرية في السورة القرآنية، أو ما إلى ذلك من هذه العبارات التي تختلف في ألفاظها ومبانيها، وتتفق في مدلولاتها ومعانيها، موضوع يعتبر امتداداً لموضوع تناسب الآيات في السورة القرآنية، فإن التناسب بين الآيات حين يمتد من أول السورة إلى آخر آية فيها، يؤول أمره في النهاية إلى وحدة الهدف والفكرة، وترابط المعاني بعضها ببعض ترابطاً يجعل من السورة الكريمة كلها وحدة واحدة وموضوعاً كلياً واحداً¹.

ومن هنا قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -: "إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويتراعى بجملة إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة، وأنه لا غنى لفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها"².

ثانياً: بيان أن كل سورة من سور القرآن الكريم لها مظاهر إعجاز خاصة، ويدل على ذلك ما ذكره عن سورة آل عمران فقال: "ومن مظاهر إعجاز السورة الكريمة البلاغة بالحذف، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى في الآية الكريمة الثالثة عشرة: ﴿فَفَتْةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾³، وكأن أصل الكلام - والله تعالى أعلم -: "فئة أولى مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان".

ثالثاً: إبراز هداية القرآن الكريم، والتأكيد على أن الهدف الأول من إنزال القرآن هو هداية الناس، والأخذ بأيديهم إلى الله تعالى، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وذلك من خلال إبراز الدروس المستفادة من السورة الكريمة.

رابعاً: إبراز التطور الدلالي للكلمة القرآنية، وذلك من خلال بيان الأصل اللغوي للكلمة، ثم المعاني الجديدة التي تطورت إليها الكلمة واستعملت فيها.

¹ - مقال بعنوان: "الوحدة الفكرية في السورة القرآنية"، للأستاذ الدكتور: عبد الغني عوض الراجحي، مجلة منبر الإسلام، عدد رجب، سنة: 1394هـ / يوليو 1974م.

² - الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج3 / 416.

³ - سورة آل عمران من الآية: 13.

خامساً: الوقوف على أسرار الكلمة القرآنية، حيث يوظف الأستاذ الدكتور حسن باجودة تخصصه اللغوي، وحسه البياني، فيقف مع كلمات القرآن الكريم، محاولاً إبراز سر التعبير باللفظة القرآنية، من حيث إثارتها بها على قريبتها في المعنى أو الدلالة.

سادساً: توجيهه متشابه النظم القرآني الكريم.

سابعاً: التنبيه على الدور العظيم للفاصلة القرآنية، وأهميتها من الناحية البيانية، وإبراز مدى موافقتها للمعاني.

ثامناً: التحليل اللغوي والبياني للآية القرآنية الكريمة.

كما اتسم تفسير الدكتورة عائشة تلميذة الخولي المصري بميزات خاصة، حيث يقول الدكتور محمد جابري: «ولا شك أنه نمط بديع بين التفاسير، إذ لا يماثل شيئاً مما أُلّف في القرون الماضية من زمن الطبري إلى العصر الأخير الذي عرف فيه تفسير الإمام عبده وتفسير المراغي، فهذا النمط لا يشابه التفاسير السابقة، غير أنه لون من التفسير الموضوعي أولاً، وتفسير القرآن بالقرآن ثانياً، والنقطة البارزة في هذا النمط هو استقرار اللفظ القرآني في كل مواضع وروده في الكتاب»¹.

ويمكن تلخيص ضوابط هذا الاتجاه في نقاط كما يلي:

أ: تناول الموضوعي لما يراد فهمه من القرآن، ويُبدأ بجمع كل ما في الكتاب المحكم من سور وآيات في الموضوع المدروس.

ب: ترتب الآيات فيه حسب نزولها، لمعرفة ظروف الزمان والمكان كما يستأنس بالمرويات في أسباب النزول من حيث هي قرائن لا يست نزول الآية دون أن يفوت المفسّر أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت فيه الآية.

ج: في فهم دلالات الألفاظ يُقدّر أن العربية هي لغة القرآن، فتلتصق الدلالة اللغوية الأصلية التي تعطينا حس العربية للمادة في مختلف استعمالاتها الحسية والمجازية.

ثم يخلص للمح الدلالة القرآنية بجمع كل ما في القرآن من صيغ اللفظ وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة وسياقها العام في القرآن كله.

¹ - مقال للدكتور: محمد عابد جابري، الاتجاهات المعاصرة في التفسير، 2010/12/26م. انظر:

د: وفي فهم أسرار التعبير يحتكم إلى سياق النص في الكتاب المحكم ملتزمين ما يحتمله نصاً وروحاً، ويعرض عليه أقوال المفسرين فيقبل منها ما يقبله النص.

هذا المنهج الذي ابتكره الأمين الخولي المصري، عبارة عن استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده للوصول إلى دلالاته وعرض الظاهرة الأسلوبية على كل نظائرها في الكتاب المحكم، وتدبر سياقها الخاص في الآية والسورة ثم سياقها العام في المصحف كله التماساً لسره البياني، إنه سبيل الدرس المنهجي الاستقرائي ولمح أسرارها في التعبير.

ولمعرفة الحاجة لهذا الاتجاه من التفسير نذكر في هذا المقام مقتطفات من الأمثلة التي أوردها الدكتور فاضل السامرائي نقلاً عن بعض الكتب¹:

فمعرفةنا بالنحو تجنبنا الوقوع في الخطأ، والنحو هو أوضح من أن تبين أهميته في هذا الشأن فإن تغيير الحركة قد يؤدي إلى الكفر والعياذ بالله، فلو غيرت الحركات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ من فتحة إلى ضمة، ومن ضمة إلى فتحة فقرأها (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) لفسد المعنى وأصبح كفراً، ولو غيرت العبارة (خلق الله الناس) إلى (خلق الله الناس) لكانت كفراً وكان ذلك أكبر من الشرك الأكبر.

وإذا كان لا يعلم الفرق في المعنى بين الحروف والأدوات فقد يؤدي ذلك في أحيان كثيرة إلى الإحالة في المعنى وربما إلى الكفر، وأظن أنه لا يخفى عليك قول ابن عباس وغيره في قوله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم" أنهم لو قالوا (نعم) لكفروا.

وبمعرفةنا للقراءات يترجح بعض الوجوه على بعض²، وقد تكون القراءتان أو القراءات مما يدل على كمال البلاغة تمامها، فمن ذلك على سبيل المثال قراءة (مالك يوم الدين) وقراءة (ملك يوم الدين) فقد جمع له بالقراءتين الحكم والتملك، ذلك أن (مالك) من التملك، و(الملك) هو الحاكم الأعلى، فجمع لنفسه تعالى كمال الأمرين.

وبمعرفة أسباب التزول يتضح الأمر ويزول الإشكال ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتَعْفِيفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنًا

¹ - انظر التفصيل في المقدمة، السامرائي، على طريق التفسير البياني، (مصدر سابق)، الصفحات الأولى.

² - الإتيان، ج2، ص: 181، البحر المحيط، ج1، ص: 7.

لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ¹، وقد يظن ظان أن النهي عن البغاء مشروط بإرادة التحصن، فإن لم يردن التحصن جاز، وهذا لا يكون، وبالاطلاع على سبب التزول يتضح المعنى، فإن "هذا الشرط باعتبار ما كانوا عليه فإنهم كانوا يكرهونهن وهن يردن التعفف"²

وبمعرفة السياق يتضح المعنى، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، كيف تجد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق³.. هذا وقد ظهرت اتجاهات أخرى مثيرة للجدل مثل التفسير العلمي والعددي وغيرها، وستعرض الآن للتفسير العلمي للقرآن الكريم.

المبحث الثالث: الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم

إن مصطلح "التفسير العلمي للقرآن الكريم" من المصطلحات الحديثة في الأوساط العلمية، وهو يشير إلى تأويل بعض الآيات القرآنية أو تفسيرها بما يتفق وبعض النظريات العلمية أو الاكتشافات الحديثة، يقول الشيخ محمد حسين الذهبي: "نريد بالتفسير العلمي التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن الكريم ويجتهد في استخراج العلوم والآراء الفلسفية منها"⁴، وعرفه بنحوه أيضا كل من الدكتور مصطفى شاهين⁵، والأستاذ محمد الصباغ⁶، والدكتور عبد المجيد المحتسب⁷، وقد عرفه بنحو

¹ - سورة النور، آية: 33.

² - فتح القدير، ج4، ص: 28.

³ - البرهان، ج2، ص: 200-201.

⁴ - حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (مصدر سابق)، ص: 474.

⁵ - وُلِد مصطفى شاهين، عام 1935م عالم الفلك الأميركي من أصل لبناني، نشأ وترعرع في منطقة رأس النبع في بيروت، وبعد استكمال علومه الثانوية، سافر إلى أميركا والتحق بجامعة واشنطن 1954م. وانتقل إلى جامعة كاليفورنيا في بيركلي حيث نال شهادة الدكتوراه في فيزياء السوائل fluid physics عام 1960م، ثم رجع إلى لبنان في 1971م، وعلم لمدة سنة في الجامعة الأميركية. انظر جريدة الحياة 3 يوليو 2009م.

⁶ - يعرفه الصباغ: "التفسير العلمي هو تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآيات، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبي والفلكية والفلسفية. انظر: مخات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، لطفي الصباغ، ص: 51.

⁷ - يعرف التفسير العلمي بقوله: "هو التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية، وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها". انظر اتجاهات التفسير في العصر الراهن، للدكتور عبد المجيد المحتسب، ط3، منشورات مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، 1982م، ص: 247. ولد في الخليل عام

هذا التعريف كل من: الشيخ عبد المجيد الزنداني، والدكتور عبد القهار العاني، والدكتور صلاح الخالدي.

فقال الزنداني: "التفسير العلمي هو الكشف عن معاني الآيات أو الحديث في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية"¹.

وقال العاني: "التفسير العلمي هو بيان معنى الآيات القرآنية مرتبها بحقائق العلوم الكونية وما يشابهها وفق القواعد المشهورة في تفسير القرآن الكريم"².

وقال أيضا في موضع آخر: "هو بسط الحقائق العلمية الثابتة للعلوم الكونية والطبيعية المختلفة بمعاني الآيات القرآنية بدلالة الألفاظ اللغوية على المعاني في المشهور من المأثور والمعهود في اللغة"³.

وقال الخالدي: "هو النظر في الآيات ذات المضامين العلمية من الزاوية العلمية وتفسيرها تفسيراً علمياً، وذلك بالاستعانة بالعلوم والمعارف والمكتشفات الجديدة في توسيع مدلولها وتقديم معناها"⁴.

وقد اختلفت وجهات أنظار العلماء وأبناء المسلمين فيه، فتعددت الآراء وتباينت في الأخذ بهذا الاتجاه لتفسير القرآن الكريم، فمنهم من أيده بإطلاق، ومنهم من اعترض عليه، ومنهم من توقف فيه، وكل له أصولاً تعلق بها.

فالمؤيدون يرون أن هذا اللون من التفسير موجود منذ القديم، واحتجوا ببعض الأمثلة منها: أن أبو حامد الغزالي (ت505هـ) ممن سلك هذا المسلك، وحاول أن يروجه بين الأوساط العلمية⁵، فيرى أن القرآن يحوي على العديد من العلوم⁶، كما أنه تحدث عن الكيفية التي انشعبت بها سائر العلوم من القرآن، فيذكر الطب والنجوم والفلك والتشريح... الخ، ثم يؤكد على أن العلوم التي عددها أو لم يعددها ليست أوائلها خارجة من القرآن، ولكنها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى الذي لا

1937م، حصل على الدكتوراه من جامعة القاهرة ويعمل أستاذاً في قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة الأردنية، من أعماله:

«نقائض جرير والأخطل»، «طه حسين مفكراً»، «اتجاهات التفسير في العصر الراهن»، «في ميزان الإسلام» ثلاثة كتب.

¹ - انظر: المعجزة العلمية للقرآن والسنة، (ص25) نشر رابطة العالم الإسلامي.

² - انظر: بحث التفسير العلمي معاملة وضوابطه، ص: 214.

³ - المصدر نفسه، ص: 229.

⁴ - انظر: البيان في إعجاز القرآن، للدكتور صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ص: 266.

⁵ - محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون، (مصدر سابق)، ج 2، ص: 474.

⁶ - الغزالي: إحياء علوم الدين، ج 1، ص: 289، ط. دار المعرفة، بيروت 1403هـ/1983م

ساحل له، ثم أعطى بعض الأمثلة لما يقول، منها قول الله عز وجل حكاية عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾¹، عقب على ذلك بأن هذا الفعل الواحد لا تحصل معرفته إلا لمن عرف الطب بكامله، وسار على هذا المنوال في بيان الطريقة التي يمكن بها معرفة ما جاء في القرآن الكريم عن الشمس والقمر، وتركيب السماوات والأرض، ومعرفة الإنسان وخلقته²... الخ .

ومنها: أن هناك من سلك هذا الدرب من المفسرين الأقدمين، ولمح إلى مثل هذه الأمور أبو بكر بن العربي (ت 543 هـ) في كتابه: (قانون التأويل)، والفخر الرازي (ت 606 هـ) في (مفاتيح الغيب)، وأبو الفضل المرسي (ت 655 هـ) في تفسيره³ .

على أن السيوطي (ت 911 هـ) انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁴ وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾⁵، تحمس لهذا النوع من التفسير في كتابيه⁶ (الإتقان في علوم القرآن)⁷ و(الإكليل في استنباط التنزيل)⁸ .

ودأب المعاصرون على هذا النهج، حيث يرون أن هذا الاتجاه يعكس نظرة الأسلاف المتقدمين الذين يرون أن القرآن بحر العلوم جميعها، كالشيخ طنطاوي جوهرى في «تفسير الجواهر»، والدكتور محمد محمود عبد الله في كتابه «مظاهر كونية في معالم قرآنية».

¹ - سورة الشعراء، آية: 80.

² - الغزالي: جواهر القرآن ودرره، ص 25-28، ط. الخامسة، دار الآفاق الجديدة، 1983م.

³ - حسين الذهبي: المرجع السابق، ص 487 وما بعدها.

⁴ - الأنعام: 38.

⁵ - النحل: آية: 89 .

⁶ - حسين الذهبي، المرجع السابق، ص 477.

⁷ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، (مصدر سابق)، ج 2، ص: 190، وما بعدها.

⁸ - السيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ص 5-11.

والمعارضون يتمسكون بموقف أبي إسحاق الشاطبي (ت 790 هـ) الذي كان من أبرز الذين وقفوا في وجه هذا التيار في كتابه: (الموافقات)، ويحتج في ذلك بأنه لم يرد عن السلف الصالح من التابعين ومن يليهم من تكلم في هذا اللون من التفسير، وهم من أعرف الناس بالقرآن وعلومه، ومع أنه في الوقت عينه لا ينكر أن في القرآن آيات تشير إلى ما كان العرب يعرفونه من علوم زمن نزوله، لكنه أنحى باللائمة على أولئك الذين أضافوا إلى القرآن كل علوم الأولين والآخرين، كما فند ما احتج به أصحاب هذا النوع من التفسير من أدلة لتأييد دعواهم¹.

ونجد من علمائنا المسلمين من يمنع التفسير العلمي، والسبب في ذلك هو أخطاء بعض المفسرين بسبب التكلف أو الاعتساف في الفهم أو التأويل أو غير ذلك من العوامل المفضية إلى الوقوع في بعض الأخطاء².

ولكن هل هناك تعارض بين القرآن الكريم والعلم؟ إن العلم المقصود هنا هو ما توصل إليه البشر من فهم لبعض قوانين وسنن هذه الحياة بإلهام من الله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾³، ومما لا مشاحة فيه أنه لا تصادم بين حقائق الكون والقرآن الكريم، فالله هو الخالق لهذا الكون وهو في الوقت ذاته قائل هذا القرآن الحكيم، وقد يكون تصادم حينما ندعي حقيقة علمية — وهي ليست حقيقة علمية — ونربطها بالقرآن، أو نزع حقيقة قرآنية — بسوء فهمنا للمقصود من آية أو آيات من القرآن — فنربطها ببعض الحقائق العلمية الثابتة⁴.

ولكن كتاب الله كتاب عقيدة وهداية وأحكام، وليس كتاب تاريخ أو فلك أو جغرافيا، كما أنه لم يأت ليعلمنا الطب أو الكيمياء أو الفيزياء أو الأحياء، ولكن هذا لا ينفي أن يشير إلى حقائق ثابتة تدخل ضمن نطاق العلوم السابقة وغيرها بقي الإنسان مئات السنين لا يعرف كنهها، بل لم يستطع حتى الآن الوصول إلى بعضها؛ فالقرآن — مثلاً — ليس كتاب طب بالمفهوم المتعارف عليه للطب إلا أن ذلك لا

¹ - حسين الذهبي، (المرجع السابق)، ص: 485، 486، وكتابه الآخر: علم التفسير، ص: 74، 75، ط. دار المعارف.

² - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل ابن آدم خطأ، وخير الخطائين التوابون" رواه الترمذي في كتاب الفتن باب (49) حديث (2499) وابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، حديث: (4251)، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعود عن قتادة، ولكن أشار السيوطي إلى صحته في الجامع الصغير (92/2) والشيخ الألباني أشار إلى حسنه في صحيح الجامع الصغير وزياداته (831/2).

³ - سورة الروم، آية: 07.

⁴ - الشعراوي: معجزة القرآن، ط. الأولى، المختار الإسلامي، 1398هـ/1978م، ص: 44.

يمنع أن يمس قضية طبية، ويخبر بدقائقها، فلا يصل إليها علم الطب إلا بعد قرون، وقُل ذلك عن جميع العلوم الحديثة، فالقرآن — إذن — قد يمس حقائق الكون الأساسية التي خلق الله الوجود على أساسها فيعرضها كحقائق علمية سواء توصلنا إلى إدراكها أم لم نصل¹.

ودون الدخول في هذه المجادلات العلمية، فإن أي عمل له علاقة بكتاب الله قد رأى فيه البعض أنه نافع للناس، وأنه سببا من أسباب الهداية باعتبار أن هذا الكلام موجه للبشرية جمعاء يدعوننا إلى وضع ضوابط وشروط ومنهجية للتعامل معه وللعمل به، فمنهم من يرى في هذا الاتجاه العلمي فتحاً جديداً وتجديداً في طريق الدعوة إلى الله وهداية الناس، وربما قد جربوه في الواقع، خاصة مع غير المسلمين الذين سمعنا بأنهم اعتنقوا الإسلام لحقيقة علمية قد أشار إليها القرآن منذ قرون وهم قد أفنوا أعمارهم في البحث عنها والأمثلة أكثر مما تحصى.

وخلال القرن التاسع عشر، ازداد التوجه بين المسلمين لاقتناء ما بدا لهم جوانب نافعة من العلم الأوروبي الحديث، وقد أدرك الحاجة الملحة لذلك عدد من الحكام والمفكرين المسلمين، ومنهم السلطان محمود الثاني (1839)، ومحمد علي باشا (1849)، وخير الدين التونسي (1889)، ورفاعة الطهطاوي (1871)، وجمال الدين الأفغاني (1897)، ومحمد عبده (1905) والسيد أحمد خان (1898)، جميع هؤلاء رفعوا أصواتهم داعين إلى اقتناء تلك العلوم والمعرفة، وقد بادر أولئك الذين يمتلكون القوة السياسية والذين أدركوا الحاجة إلى تحسين الأوضاع على المستوى العملي، وتأثروا بما شاهدوه من مؤسسات وآراء لدى أوروبا، إلى إحداث عمليات التغيير².

ولكن في الوقت نفسه أن هناك ممن انتهج هذا النهج قد تجاوز الحد المسموح به كلي أعناق الآيات حتى تتماشى مع ما وصل إليه العلم وما صيغ كنظرية علمية، ربما لم تثبت صحتها لحد الساعة، أو كالذين غاصوا في التأويل إلى درجة أنهم نكبوا عن المعنى الحقيقي للآيات، أمثال محمد عبده، والكواكبي³، وغيرهم.

¹ - عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز، مع الطب في القرآن، ص: 47، ط. الثانية، مؤسسة علوم القرآن، 1402هـ/1982م.

² - مقال لظفر إسحاق الأنصاري، التفسير العلمي للقرآن ومخاطره، 04 مارس، 2007م، انظر:

<http://www.islamonline.net>

³ - وقد رجح الشيخ محمد عبده ومعاصره عبد الرحمن الكواكبي أن الطير الأبايل التي ورد ذكرها في سورة الفيل ما هي إلا ذبابة أو بعوضة تحمل ميكروبات، وما الحجارة — التي ذكرت في الآيات — إلا الطين المسموم اليابس التي تحملها الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات. انظر: العقاد: عبد الرحمن الكواكبي، ص: 330، وكتابه: الإسلام دعوة عالمية، ص: 206 - 209

ولكن غيرهم ممن سلك هذا الطريق قد أفاد منها سليماً وطريقاً صحيحاً في التعامل مع الآيات التي ترشد وتشير إلى مسائل علمية دقيقة، حيث ربطها أصحابها مع أهل الاختصاص بحقائق علمية ثابتة، إضافة إلى خضوعهم إلى ضوابط¹ وشروط هذا المنهج، وإيكم مثالين لذلك:

المثال الأول: لقد أثبت العلم الحديث بما لا يدع مجالاً للشك أن الزوجية موجودة في الإنسان والحيوان والنبات والذرة وسائر الكائنات²، ويقول سيد قطب: "ومن يدري فرمما كانت هذه قاعدة الكون كله"³ وعليه فلا مانع من ربط هذه الحقيقة العلمية بالآيات القرآنية التي تحكى عن تلك الزوجية⁴.

المثال الثاني: إن وصف الطب الحديث لمراحل تطور الجنين في الرحم يتوافق مع ما جاء في القرآن، فالقرآن جمعها بإيجاز بليغ، ووصف بديع، قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشئناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾⁵ حتى أن العلم استعمل ألفاظه في هذه المسألة⁶ يقول د. محمد على البار عن تعبير القرآن عن بعض مراحل تطور الجنين: "إنه لا يطابق فقط الوصف العلمي في علم الأجنة... بل وإنه يتفوق عليه"⁷.

(وفيه رد على هذا الرأي). وانظر رد الشيخ الشعراوي على ذلك في تفسير لسورة الفيل في كتابه: المنتخب من تفسير القرآن، ج1، ص: 82-84، ط. دار العودة، بيروت.

¹ - بالإضافة إلى شروط التفسير بالرأي بشكل عام، هناك شروط خاصة بالاتجاه العلمي مثل: - أن يجمع المفسر إلى الآية التي يريد تفسيرها جميع الآيات التي وردت متعلقة بموضوعها - أن يجمع إلى الآية ما يتعلق بموضوعها من الأحاديث الصحيحة - معرفة الحقيقة الثابتة بأن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز - أن لا يفسر القرآن الكريم إلا بالحقائق العلمية والابتعاد عن إقحام النظريات والاحتمالات العلمية في تفسير آيات - معرفة التعارض بين التفسير العلمي الحديث والتفسير القديم. انظر: الإتيان 234/2، والتفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم ضوابط وتطبيقات، للدكتور مرهف عبد الجبار سقا، طباعة دار محمد الأمين بدمشق، 2010م. ج1، الباب الثالث، ص: 151، وانظر: زغلول النجار، قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها".

² - مصطفى محمود، (المرجع السابق)، ص: 73، وموريس بوكاي، (المرجع السابق)، ص: 167.

³ - سيد قطب، المرجع السابق، ج 5، ص: 2967.

⁴ - انظر على سبيل المثال: سورة يس آية: 36، والذاريات، آية: 49.

⁵ - سورة المؤمنون، الآيتان: 12-15.

⁶ - الشعراوي، (المرجع السابق)، ص: 33-34.

⁷ - تقرير حول المؤتمر الإسلامي الطبي الدولي الأول في مجلة منار الإسلام، ص: 50، العدد الثالث، السنة 11 ربيع الأول

وقد قيل أن التفسير العلمي هو طريق للإعجاز العلمي، فالتفسير العلمي: هو الكشف عن معاني الآيات في ضوء ما ترجحت صحته من نظريات العلوم الكونية، فهو: "الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها"¹، والإعجاز العلمي: "هو بذل الجهد واستفراغ الوسع لفهم الآيات المتعلقة بالآفاق والأنفس من خلال إخبار القرآن الكريم أو السنة النبوية بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي، وثبت عدم إمكانية إدراكها بالوسائل البشرية في زمن الرسول"² وبغير معرفة هذه الحقائق العلمية لن نستطيع أن نثبت هذا الوجه من الإعجاز³، ومن هنا جاءت الحاجة إلى هذا الاتجاه في التفسير، وفي تقديري لو لم يكن غير هذه الفائدة المرجوة من هذا الاتجاه في التفسير لكان سببا كافيا في طرده والتمسك به، كيف وقد أثبت العلماء محاسنه فقالوا أن للتفسير العلمي محامد كثيرة لعل من أوضحها اعتناق بعض شخصيات عالمية بارزة للإسلام عن قناعة بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق نذكر من هؤلاء على سبيل المثال: موريس بوكاي، وارثون إليسون وهو طبيب بريطاني أسلم وتلقب بـ عبد الله إليسون، وكات ستيفز الذي سمي نفسه يوسف إسلام، وغيرهم كثير. وكثيراً ما نسمع أو نقرأ لقاءات مع بعض الأوروبيين وغيرهم ممن اعتنقوا الإسلام، فنجد أن من أهم اقتناعهم بهذا الدين انبهارهم بما تحدث عنه القرآن الكريم الذي نزل منذ ما يربو عن خمسة عشر قرناً من الزمان، لأنه طابق ما جاءت به المكتشفات الحديثة، ألا ترى أن هذا — وإن اختلف من بعض الوجوه — يماثل بعض مواقف من اسلموا أبان عصر النبوة عند سماعهم القرآن؟ قال تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق...﴾⁴.

¹ - التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير الإسلامية، ط 2004م، ج 2، ص: 180.

² - الإعجاز العلمي في القرآن والسنة. نايف منير فارس، دار ابن حزم، ط اولى - 2006م : ص: 10.

³ - انظر المعجزة العلمية في القرآن والسنة، ص: 25، ومناهل العرفان، ج 1، ص: 567.

⁴ - سورة فصلت، آية: 53.

ولقد أوضح أحد أعضاء مركز الدعوة في استراليا لمجلة "الإرشاد" اليمنية في حوار معه قبل سنين أن كبريات الصحف الاسترالية أشادت بالشيخ عبدالمجيد الزنداني — المعروف بتبريزه في مجال التفسير العلمي — حينما زار استراليا، وألقى هناك عدداً من المحاضرات، وكتبت "المحمديون يقفون على جبال العلم"، وأضاف هذا العضو أن عدداً من الأساتذة حضروا تلك المحاضرات، وعلق أحدهم: "حضرت لأناقش العلم الذي عندي، ولكني استفدت علماً آخر!!"¹.

ونختم هذا المبحث بدعوة القرآن الكريم إلى التفكير والنظر في الآيات المثبوتة في صفحات هذا الكون، ليزداد الذين ءامنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون.. حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيَاتِ الَّتِي خُلِقَتْ ۗ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۗ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۗ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۗ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۗ﴾²، فيخاطب بذلك الراعي والفلاح، ومربي الإبل، والبيطرة، وكذا أصحاب علم الفلك، وأصحاب الجغرافيا، والجيولوجيا.. وغير ذلك على اختلاف درجاتهم العلمية ومستوياتهم الثقافية.

ومن ضوابط وشروط التفسير العلمي ما ذكره زغلول النجار في كتابه: "قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها":

1- الالتزام بحدود ما تعطيه الألفاظ القرآنية في استعمالاتها العربية وعدم تحميل الألفاظ فوق ما يمكن أن تحمل بحسب وضعها اللغوي والاستعانة على التفسير بعلوم النحو والصرف والبلاغة وغيرها مما يدخل في علوم العربية، وخاصة علم أسباب التزول والناسخ والمنسوخ، بالإضافة إلى فهم الفرق بين العام والخاص والمطلق والمقيد والمحمل والمفصل من آيات الكتاب الحكيم، والأخذ بمعني النص كاملاً دون أجزاءه، ومعرفة أن العبرة في القرآن الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فأنا إذا لم أفهم اللغة فهما صحيحاً وكذلك كل ما سبق ذكره فلن أستطيع فهم الإعجاز العلمي فإذا لم أفهم من اللغة ما معني نطفة أو مضغة أو علقة أو عظام أو كسوة العظام لحماً فلن أفهم ما هي دلالات الآية فاللغة شرط أساسي لفهم دلالات الآيات لكن أنا لا أقف عند حدود اللغة وحدها لأننا إذا وقفنا عند حدود اللغة وحدها فلن نصل إلي الفهم الصحيح للآية فأنا لا أستطيع أن أقف عند فهم الأقدمين.

¹ - مجلة الإرشاد: ص: 34، العدد الخامس، السنة التاسعة، جمادى الأولى 1407هـ -

² - سورة الغاشية، الآيات: 17-21.

2- جميع القراءات الصحيحة المتعلقة بالآية القرآنية إن وجدت، ولا بد عند تفسيرها من فهم التفسير المأثور عن المصطفى صلى الله عليه وسلم، والرجوع إلى أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم إلى الزمن الحاضر، بالإضافة إلى جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد ورد بعضها على بعض؛ بمعنى فهم دلالة كل منها في ضوء الآخر وذلك لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً كما يفسره الصحيح من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3- عدم الاعتماد على النظريات والفروض العلمية في الإعجاز العلمي، مع إمكانية تغليب إحدى النظريات أو الفروض العلمية في التفسير العلمي والارتقاء بها في حالة موافقتها لوجه تحتمله آية قرآنية أو حديث شريف، وذلك في قضية لم يتم اكتشافها بعد وهذا التفسير يعتبر جهداً بشرياً يحتمل الصواب أو الخطأ واحتمال خطئه لا ينال من جلال القرآن في شيء والمفسر في هذه الحالة كالمجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد.

ففي جانب الإعجاز لا نوظف إلا القضايا التي حسمها العلم والتي انتهت منها والتي لا رجعة فيها وبما أن العلم لم يحسم كل قضية وهناك قضايا كثيرة لم تحسم بعد وقضايا ذكرها القرآن الكريم لا نستطيع أن نتحدث فيها بإعجاز ولكن نتحدث فيها بتفسير علمي والتفسير العلمي يجوز استخدام النظرية فيه حتى ولو تغيرت ولا توجد حقيقة متاحة لنا ولكن توجد أربع أو خمس نظريات فأنا أرجح إحداها بتفسير دلالة الآية ولا حرج في ذلك إن شاء الله.

4- عدم الخوض في أمور غيبية غيبة مطلقة كالذات الإلهية والروح والملائكة والجن وحياة البرزخ وحساب القبر وقيام الساعة والبعث والحساب والميزان والصراف والجنة والنار وغيرها والتسليم بالنصوص الواردة فيها تسليماً كاملاً انطلاقاً من الإيمان الكامل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يقينا راسخاً بعجز الإنسان عن الوصول إلى مثل هذه الغيبات المطلقة.

5- الحرص على عدم الدخول في التفاصيل العلمية الدقيقة التي لا تخدم قضية الإعجاز العلمي للآية أو الآيات القرآنية الكريمة مثل المعادلات الرياضية المعقدة والرموز الكيميائية الدقيقة إلا في أضيق الحدود اللازمة لإثبات وجه الإعجاز.

6- مع التزام المفسر بما سبق فإنه يجب عليه أن يقدم ما يعني له من تفسير وليس إعجازاً مستوفياً للشروط السابقة علي أنه معني محتمل في الآية لا علي أنه التفسير القطعي الذي أراده الله تعالى بما يقينا

إنما يجب أن يضع في اعتباره وأن يؤكد ذلك بالتصريح أن الله وحده هو العليم بمراده علماً كاملاً يقينياً محيطاً لا يتيسر مثله أو - ما يقاربه - لمخلوق¹.

لكن فقط أن لا يقول أحدهم هذا مراد الله قطعاً، بل يقول هذا رأيي واجتهادي في ما فهمته من كلام الله، ذلك لأن كلام الله قطعي باقي، وكلام البشر واجتهادهم ظني فاني.

المبحث الرابع: الاتجاه الموضوعي لتفسير القرآن الكريم:

يقول محمد بن عبد العزيز الخضير: أما تعريف (التفسير الموضوعي) علماً على فن معين، فقد عرّف عدة تعريفات² نختار منها ما نظنه أجمعها وأخصرها وهو: علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر³. "3"، ونريد هنا التركيز فقط على أهمية هذا المنهج وحاجة الناس إليه دون الخوض في إشكالية المفهوم والمنهج لهذا الاتجاه، أو الولوج إلى أنواعه، وذكر تاريخ نشأته، وتطوره، لأن الهدف من المبحث هو التنبيه إلى هذا الاتجاه الذي يحتاج إليه الناس في هذا العصر لبناء نظرة جديدة لمفاهيم القرآن الكريم، وأقصد الأخذ بها في مجالات التفسير، وفي هذا الصدد يقول الدكتور يوسف القاسم: «مما لا شك فيه أن هذا النوع من تفسير القرآن الكريم نحن في أشد الحاجة إليه، وخصوصاً في هذا العصر الذي تقدمت فيه العلوم والمعارف، وتغيرت العادات والتقاليد عما كانت عليه من قبل، وأصبحنا في حاجة ماسة إلى عرض أعمالنا على القرآن والسنة الشريفة وعمل السلف الصالح، فما وافق أخذنا به وما لا يوافق طرحناه وراء ظهورنا»⁴، ولا يذهب الدكتور عبد الحميد غانم بعيداً عن هذا التوجه فيقول: "تتجلى أهمية التفسير الموضوعي في عصرنا أكثر مما تجلت في غيره، ذلك أننا نعيش عصر

¹ - تلخيص من كتاب الدكتور زغلول النجار، قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها.

² - منها: ما ذكره عبد الستار فتح الله سعيد، حيث يقول هو: "جمع الآيات الكريمة ذات المعنى الواحد، ووضعها تحت عنوان واحد، والنظر فيها بما يؤلف منها موضوعاً واحداً مستخرجاً من الآيات الكريمة على هيئة مخصوصة". انظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص: 33.

ومنها: التعريف الذي يسوقه الدكتور عبد الجليل عبد الرحيم يؤكد المعنى نفسه حيث يقول: هو "المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلاً للكشف عن مراد الله من خلال الموضوعات التي يطرحها، والقضايا التي يعالجها، توضيحاً لهداية القرآن وتجليه لوجوه إعجازه". انظر: التفسير الموضوعي بين دفتي الميزان، د. عبد الجليل عبد الرحيم ص34، ج1.

³ - مقال: مقدمة في التفسير الموضوعي، الخضير، الأربعة، 11 فبراير 2009م، انظر:

<http://www.islamiyyat.com>

⁴ - التفسير الموضوعي، يوسف القاسم، (مصدر سابق)، ص: 10.

القضايا المتلاحقة، وإفرازات النشاط البشري والطارئ المعاش، والحق أنه ما من نوع من أنواع التفسير يمكن أن يوفر للباحث رتب الإحاطة والدرس الذي تحتاجه مشكلات الحياة مثل ما يوفره التفسير الموضوعي من قدرة على جمع الأطراف موضوع الدراسة"¹.

ويلخص لنا الدكتور سليمان الدقور أهم مزايا هذا الاتجاه في نقاط محددة:

1. التفسير الموضوعي يشكل عاملاً مهماً في رسم الحلول لمشكلات المسلمين المعاصرة، ويساعد في تقديم هذه الحلول على أساس القرآن الكريم، سواء هذه الحلول في المجال الاجتماعي أم الاقتصادي أم السياسي... إلى غير ذلك من مجالات الواقع البشرية.

2. يكشف التفسير الموضوعي عن المقاصد الأساسية للقرآن الكريم والمتمثلة في هدايته وإعجازه بطريقة يسهل تناولها والتعامل معها وفق متطلبات العصر الذي تتوجه مناهجه التربوية والتعليمية والأكاديمية إلى التجزيء والتفصيل...

3. التفسير الموضوعي يعطي الدلالة الواسعة الواضحة للأمر الإلهي بتدبير كلامه الكريم، وهو يعطي صورة متكاملة مترابطة عن نتائج هذا التدبير.

4. يلي التفسير الموضوعي حاجة الناس المعاصرة، وحاجة المناهج والمنهجيات العلمية الحديثة في التعامل مع الموضوعات ودراساتها، والخروج بالنتائج التكاملية في حلقتها وميادها مجمعة غير مبعثرة.

5. التفسير الموضوعي هو الوسيلة المنهجية العلمية للارتفاع بمستوى التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين.

6. يعزز الإقبال على القرآن الكريم وموضوعاته، ودراستها بيسر، واستيعاب أفكاره، دون الحاجة من القارئ إلى تتبع ما يريد في الموضوعات التفسيرية الكبيرة، وعن طريقه تتجلى حقائق قرآنية، وسنن إلهية في الكون والحياة، ما كان للإنسان أن يقف عليها بغير هذا اللون من التفسير.

7. كما يعطي التفسير الموضوعي الفرصة للعلماء المسلمين بتأصيل الكثير من العلوم الإنسانية والطبيعية والحضارية المختلفة، تأصيلاً قرآنياً شرعياً، تتكون لها شخصيتها وهويتها القرآنية.

8. إنه يساعد في دفع كثير من الشبهات التي أثرت حول الموضوعات القرآنية، التي يظن أنها غير مترابطة، فتغلق بذلك أبواب من الفتن، وتفشل المخططات العدوانية، وتضيق منافذ الغزو الفكري لمن يتربص بالإسلام الدوائر.

¹ - مجلة البيان، عدد 77، مقال: 3، التفسير الموضوعي / د. عبد الحميد غانم ص: 21.

9. كما يعطي هذا اللون صورة مشرقة وحضارية للقرآن والإسلام، يساعد على تقبله ونشره، والدعوة إليه بما يتواءم مع الفطرة الإلهية، والصبغة الربانية، فتسري أنواره في القلوب، وتتسارع هداياته إلى العقول، فيقبل الناس عليه بقناعة وقوة.

10. كما أن هذا اللون من التفسير يساعد على غلق باب ما يوهم التعارض عند بعض العقول القاصرة، سواء بين آيات الكتاب العزيز، أو بينها وبين بعض الآثار¹.

وليس معنى هذا استغناؤنا عن المناهج أو الاتجاهات الأخرى من التفسير، يقول السيد باقر الصدر في هذا الصدد عند مقارنة هذا الاتجاه بالتفسير التجزيئي ما نصه: إذن فالتفسير الموضوعي في المقام هو أفضل الاتجاهين في التفسير، إلا أن هذا لا ينبغي أن يكون المقصود منه الاستغناء عن التفسير التجزيئي، فهذه الأفضلية لا تعني استبدال اتجاه باتجاه أو طرح التفسير التجزيئي رأساً والأخذ بالتفسير الموضوعي، وإنما إضافة اتجاه إلى اتجاه، لأن التفسير الموضوعي ليس إلا خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى التفسير التجزيئي، ولا معنى للاستغناء عن التفسير التجزيئي باتجاه الموضوعي؛... بل يعني افتراض خطوتين خطوة هي التفسير التجزيئي وخطوة وأخرى هي التفسير الموضوعي².

وجهة نظر:

وفي نظري أننا بحاجة إلى تكاثف الجهود من أجل تفعيل كل ما من شأنه يخدم تفسير كتاب الله تعالى، وذلك بجمع هذه الاتجاهات جميعاً وصبها في خطوات منهجية متكاملة في تفسير الآيات، وجعل كل اتجاه خطوة من خطوات العملية التفسيرية، وربما لا أكون مخطأ لو قلت أن سمة هذا المنهج المتكامل ظاهر بشكل جزئي وأحياناً أخرى بشكل واضح في تفاسير المعاصرين، فكما أن من خطوات التفسير الموضوعي أن تُفسر الآية تفسيراً تحليلياً، فلما لا يمكن أن نضيف خطوات أخرى تُخدم اتجاهات أخرى، مستبطين من الآية أحكاماً وحكماً في جميع الجوانب، وسأعطي مثلاً على ذلك:

¹ - مقال: "التفسير الموضوعي إشكالية المفهوم والمنهج"، للدكتور: سليمان الدقور، مجلة الوسط: <http://www.wasatonline.com>.

² - مقال محمد باقر الصدر، الاتجاه التجزيئي والاتجاه الموضوعي في التفسير، نشر في: 15-فبراير-2008م. انظر: <http://www.hodaalquran.com>

فماذا لو فسرنا آية تفسيرا موسوعيا، ننتهج فيه جميع الخطوات التفسيرية التي سلكها المفسرون مهما تباينت اتجاهاتهم، فنجزها في خمس خطوات لا غير:

الخطوة الأولى: المعنى الجملي على حد تعبير مصطفى المراغي، أو الموضوع العام على حد تعبير الطاهر بن عاشور، أو تقسيمها إلى مقاطع ودروس كما يسميها سيد قطب، وكشف العلاقات والمناسبات بمختلف أنواعها، وهذا ما يعرف بالتفسير الموضوعي بشكل عام.

الخطوة الثانية: التحليل والشرح اللغوي والبلاغي والنكت البيانية، والقراءات. وتمثل هذه الخطوة الاتجاه اللغوي والاتجاه البياني.

الخطوة الثالثة: التفسير، وما جاء من أسباب التزول، وما أثر عن تفسيرها عن النبي (ص)، والصحابة والتابعين. وهذا يمثل التفسير بالمأثور.

الخطوة الرابعة: التأويل وما جاء عن المفسرين السابقين، وترجيح أصح الأقوال وأقربها للمعنى الصحيح. وهذه الخطوة تمثل ما يعرف بالتفسير المقارن.

الخطوة الخامسة: الاستنباطات، وقد تكون فقهية أو عقديّة أو اجتماعية.... أو علمية يثبت بها الإعجاز، وهذه الخطوة تمثل التفسير بالرأي، والاتجاهات المختلفة الأخرى.

الباب الثاني:

مفهوم علم التناسب والترتيب
المصحفي، مصادره، وأهميته، وأقسامه،
ورد بعض الشبه الواردة.

الفصل الأول

تعريفات إصطلاحية هامة

المبحث الأول: تعريف علم المناسبة:

المطلب الأول: المناسبة لغة:

المناسبة في اللغة مأخوذة من التناسب وهو: التقارب والتناسق والمشاكلة والترابط والتعلق والانسجام، والنون والسين والباء: كلمة واحدة، قياسها اتصال شيء بشيء¹، يُقال: فلان يناسب فلاناً أي؛ يقرب منه ويشاكله، ومنه: النسب وهو القريب المتصل كالأخوين وابن العم، ونحوه، ومنه: المناسبة في العلة من باب القياس، أي الوصف المقارب للحكم؛ لأنه إذا حصلت مقاربتة له، ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم، ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عُرِضَ على العقول تلقته بالقبول²، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن بصيغ متعددة، في قوله تعالى: "وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا"³، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾⁴، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾⁵، وهذا التعريف هو الذي يدور حوله جميع من تعرض للتعريف بالمناسبة من الجانب اللغوي، إذ لا يسع لأحد الخروج عنه.

المطلب الثاني: المناسبة اصطلاحاً:

تعددت التعريفات الإصطلاحية لعلم المناسبات إلا أنها كانت قريبة بعضها من بعض، تدور حول معاني مشتركة، وإن اختلفت بعض ألفاظها، فمنهم من عبر عنها: "بوجه الارتباط"، وآخرون قالوا: هو "علل الارتباط"، وسماه غيرهم: "بالنظام"... إلى غير ذلك.

وفي ما يلي نقف على بعض هذه التعريفات:

- يقال المناسبة هي الرابطة بين شيئين بأي وجه من الوجوه، ويعنى بها في كتاب الله - تعالى - إدراك أوجه الارتباط بين السور وما قبلها وما بعدها، وبين الآية وما قبلها وما بعدها⁶.

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، بيروت، 1979م، ج5، ص: 423.

² - ابن منظور: لسان العرب، مادة نسب، - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة نسب، والزركشي: البرهان: ج1/35، السيوطي، الإتقان: ج2/108، السيوطي، معترك الأقران: 45-59.

³ - سورة الصافات، آية: 158.

⁴ - سورة الفرقان، جزء من الآية: 54.

⁵ - سورة المؤمنون، الآية: 101

⁶ - الأملعي: دراسات في التفسير الموضوعي 77، مسلم: مباحث في التفسير الموضوعي 58.

- قال برهان الدين البقاعي: "هو علم تُعرَفُ منه علل ترتيب أجزاء القرآن"¹، وقوله: "أجزاء القرآن" شامل للآية مع الآية، والحكم مع الحكم، والسورة مع السورة، والقصة مع القصة، وكل جزء من القرآن مع ما قارنه، سواء من ناحية المعنى، أو النظم .

- وقيل: بيان وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة، أو بين الآية والآية في الآيات المتعدّدة، أو بين السورة والسورة².

- وقيل أيضاً: علم يُعرفُ منه ارتباط آي القرآن وسوره فيما بينها، حتى يتَّجَدَّ أول كل منها بآخره، في نسق معجز مؤلّف من آيات وسور آخذٍ بعضها بأعناق بعض، في بناء محكم مترابط. وقال المحدثون: علم عقليٌّ بَحَث، يَعْتَمِدُ على فهمٍ كامل للنسق القرآني، وتدبُّرٍ عميقٍ للآيات وسور القرآن الكريم³.

وهو علم يُؤكِّدُ على الترابط والتلاحم الوثيق بين سور القرآن الكريم وآياته، من بدئه إلى نهايته. وقال الفراهي: علم النِّظَام، وهذا المصطلح أطلقه عليه عبد الحميد الأنصاري الفراهي، حين قال: "ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة، وعلى هذا الأصل، ترى القرآن كله كلاماً واحداً، ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر"⁴. ومن مرادفات المناسبة: السياق، الإثْفَاق، المشاكلة، الإنسجَام، التَّأَلُف، التَّنَاغُم، التَّنَاسُب.

المبحث الثالث: تحديد بعض المصطلحات/السياق، التوافق، الانسجام

المطلب الأول: السياق

السياق لغة من الجذر اللغوي (س و ق)، والكلمة مصدر (ساق يسوق سوقاً وسياًقاً) فالمعنى اللغوي يشير إلى دلالة الحدث، وهو التابع، وذكر التهانوي: أن السياق في اللغة بمعنى (الإيراد). وجاء في الصحاح للجوهري "ويقال: وكَدَتْ فلانةُ ثلاثةَ نِبنَ على ساقٍ واحد، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية.

¹ - نظم الدرر للبقاعي: 6/1.

² - مباحث في علوم القرآن، لمَنَاع القَطَّان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 22، ص: 97.

³ - إشارة إلى قول السيوطي: المناسبة أمر معقول إذا غُرِضَ على العقول تلقته بالقبول. السيوطي: الإِتْقَان 2/108.

⁴ - دلائل النظام للفراهي، ص: 75، الدائرة الحميدية ومكنتها، الهند: 1388هـ.

ويقول الدكتور تمام حسان تأكيداً لهذه المعاني اللغوية التي تدل على (التتابع أو الإيراد): "المقصود بالسياق (التوالي)، ومن ثم ينظر إليه من ناحيتين أولاهما: توالى العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك، والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النص).

والثانية: توالى الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف)".

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾¹، جاء في التفسير سائق ملك يسوقها إلى محشرها.²

ويعد مصطلح "السياق" في الدراسات اللغوية الحديثة من المصطلحات العصرية على التحديد الدقيق وإن كان يمثل نظرية دلالية من أكثر نظريات علم الدلالة (Semantics) تماسكاً وأضبطلها منهجاً³.

وعلم السياق القرآني علم عظيم المترلة رفيع القدر، وهو من أهم ما يوصل للفهم الصحيح لكتاب الله تعالى؛ إذ هو الطريق الأسلم لجعل كلام الله متناسباً منتظماً، وهذا هو الأنسب لكتاب الله المعجز المحكم. وبالنظر إلى أقوال العلماء في تحديد مفهوم السياق نجد أنهم متفاوتون في التعبير عنه، ولنا أن نستعرض شيئاً من أقوالهم في ذلك ليتبين المراد:

قال ابن دقيق العيد: «أما السياق والقرائن، فإنها الدالة على مراد المتكلم من كلامه»⁴.
وقال السرخسي⁵: «القرينة التي تقترن باللفظ من المتكلم، وتكون فرقاً فيما بين النص والظاهر هي السياق، بمعنى الغرض الذي سيق لأجله الكلام»⁶.

¹ - سورة: ق، آية: 21.

² - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة 476، ابن منظور، لسان العرب: مادة (سوق)، الفراهيدي، العين: مادة (سوق)، ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: مادة (سوق)، والزمخشري، جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة: مادة (سوق).

³ - أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية ودور هذه النظرية في التوصل إلى المعنى، الدكتور: محمد سالم صالح،

⁴ - ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام، (21/2).

⁵ - محمد بن حمد بن سهل، قاض من كبار الأحناف، مجتهد، مات سنة 483هـ - انظر: الأعلام 315/5

⁶ - أصول السرخسي (164/1).

وقال السلجماسي¹ في تعريف السياق بأنه: «ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول»². وقال البناني³: «السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه»⁴. وهنا مسألة مهمة متعلقة بمصطلح السياق وإطلاق المفسرين له، وهو أن بعض المفسرين كثيراً ما يستعمل السياق بعبارات مرادفة يطلقونها في معنى السياق، ومنها: نظم الآية، نسق الآية، روح الآية، ظاهر الآية، ملائمة الكلام، مقتضى الكلام، فحوى الكلام، الإطار العام، الجو العام، المعنى العام، القرينة، المقام، ونحوها، وهذه المصطلحات كلها معتمدة على النص الذي هو مناط السياق⁵.

ولقد لخص الشيخ ابن تيمية عناصر السياق في ثلاثة مسائل حيث يقول: "وتختلف دلالة الكلام تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يبين بنفس اللفظ بل يرجع فيه إلى قصد المتكلم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال"⁶.

ويمكن القول أن السياق القرآني هو: ((الأغراض التي بنيت عليها الآية، وما انتظم بها من القرائن اللفظية والحالية وأحوال المخاطبين بها، وعلى هذا يكون السياق القرآني مؤتلفاً من ثلاثة عناصر أساسية: أولاً: الأغراض والمقاصد التي بُني عليها النص. ثانياً: النظم والأسلوب القرآني المؤتلف من مجموع الكلام والتعبير فيه. ثالثاً: الأسباب والأحوال التي نزلت فيها الآية، والمخاطبون بها فيها)).

¹ - علي بن عبد الواحد بن محمد أبو الحسن الأنصاري، كان آية باهرة في جميع العلوم وجميع أحواله كلها مرضية مات سنة 1057 هـ انظر: الموسوعة الميسرة 2/1626 ومعجم المؤلفين 2/471.

² - المترع البديع في تجنيس أساليب البديع، (ص18).

³ - عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي فقيه أصولي نزيل مصر مات سنة 1198 هـ، معجم المؤلفين 2/86.

⁴ - حاشية البناني على جمع الجوامع، (20/1).

⁵ - انظر: التناسب البياني، (ص182)، السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، (ص87).

⁶ - ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، (ج3/208).

المطلب الثاني: أهمية السياق:

يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها، ومن قديم أشار العلماء إلى أهمية السياق أو المقام وتطلبه مقالا مخصوصا يتلاءم معه، وقالوا عبارتهم الموجزة الدالة "لكل مقام مقال"، فالسياق متضمن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما، ولذلك ركز النحاة على اللغة المنطوقة، فتعرضوا للعلاقة بين المتكلم وما أراده من معنى والمخاطب وما فهمه من الرسالة، والأحوال المحيطة بالحدث الكلامي.

ولقد أشرنا في الباب الأول من هذا البحث في مطلب ضوابط التجديد في قواعد التفسير في المبحث الأول من الفصل الثاني علاقة المناسبة بالسياق، وقلنا أن المناسبة جزء من السياق القرآني العام. وبهذا الحد يتوافق المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وبه يجتمع اختلاف العلماء والمفسرين في تعريف السياق؛ ولذا فإنه يمكن أن يطلق على عنصر من عناصر السياق بأنه السياق باعتبار أنه جزء منه، وعليه يحمل إطلاق بعض المفسرين للسياق، وغالب إطلاقهم للسياق مقصود به الغرض الذي ورد الكلام لأجله كما تبين من أقوالهم السابقة.

ومن الأدوات التي يتحقق بها الاتساق والانسجام في النص:

حروف العطف: مثل الواو والفاء، وحروف الجرّ: مثل الباء، في، من، وإلى، والتكرار اللفظي...

ومن أدوات الربط التي تحقق الاتساق النصّي نجد: لكن، إذن، أمام، قبل... ودورها هو تحقيق الترابط والاتساق.

حروف الربط ووظيفتها في بناء النصّ: هي كثيرة منها حروف العطف (الواو، ثمّ)

وحروف الجرّ (من - على - في - حتى - عن) إضافة إلى حروف أخرى مثل: (قد - إنّما) وتسهم في اتساق النصّ وانسجامه.

التكرار: دور التكرار في النصّ: هو تأكيد الحقائق وتقريرها .

المطلب الثالث: الانسجام:

للحديث عن الانسجام ينبغي الحديث عن النص باعتبار مفهوم لصيق به، ولا يمكن الحديث عن الانسجام إلا إذا فهمنا معنى النص وخصائصه، وهذا ما يعرف بدراسة التماسك النصي في اللسانيات، "وإنّ الترابط بين أجزاء النصّ أبرز الخصائص التي تسمه-بالنصية، فالنص ليس مجموعة جمل

فقط، لأنّ النصّ يمكن أن يكون منطوقاً أو مكتوباً، نثراً أو شعراً، أو حواراً... والنصية تميز النصّ عمّا ليس نصّاً، فالنصية تحقق للنصّ وحدته الشاملة¹.

والذي نلاحظه في المعنى اللغوي لمادة (نص) أنّها تدلّ دلالة صريحة على التماسك والترابط والتلاحم بين أجزاء النصّ وذلك من خلال معنى كلمة: "النسيج" التي تؤشر إلى الانسجام والتضام والتماسك بين مكونات الشيء المنسوج مادياً، كما تؤشر معنوياً أيضاً على علاقات الترابط والتماسك من خلال حبكة أجزاء الحكاية.

وعليه فإنّ "القارئ"، "السياق"، و"وسائل الاتساق"؛ أركان جوهرية وحاسمة في تمييز النصّ عن اللانصّ؛ فمتكلم اللغة العارف بخصائصها هو وحده القادر على أن يحكم بنصية ما تلقاه؛ إما أنه يشكل كلا موحداً، وإما هو جزء من الجمل والتراكيب لا يربطها رابط، لذلك كان الاتساق-اللغوي وغير اللغوي- مقوماً أساسياً في الحكم على نصية أي نص من عدمها².

وينطلق الدكتور السد من رؤية لسانية؛ لا تعتمد تقسيم الخطاب إلى خطاب نفعي وآخر فني؛ بل صنّف النصّ تصنيفاً نوعياً، وبذلك أصبح "النص الأدبي"، لا يمثل إلاّ أحد الأنواع النصية العديدة؛ والتي منها النصّ الديني، والنصّ القضائي، والنصّ السياسي، والنصّ الإشهاري... إلخ.

وموضوعنا هنا هو النصّ القرآني الذي لا يخضع لأيّ أقيسة أو قواعد إجتهادية؛ بله هو المقياس والمقيس في الوقت نفسه، وبالتالي أن الانسجام حاصل فيه لا محالة.

ويقول الدكتور الفقي: ولما كان المجال التطبيقي للتحليل النصي-خاصة في الإسهامات الغربية- لم يتعدّ النصوص الصحفية، أو المقالات، أو من قريحة مؤلفي هذه الكتب، كانت الحاجة قصوى لاختيار نصّ أدبي من ناحية، ونصّ مقدس من ناحية أخرى، وفصيح من ناحية ثالثة، وأهم نصّ تتوافر فيه هذه الشروط هو (القرآن الكريم)³.

والانسجام في اللغة هو ضم الشيء إلى الشيء.

¹ - نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997م، ص: 70.

² - المصدر نفسه: ص: 69.

³ - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والتوزيع، ط 1، القاهرة، ص: 16.

وفي الاصطلاح هو مجموع الآليات: أي العمليات الظاهرة والخفية التي تجعل قارئ خطاب ما قادرا على فهمه وتأويله.

وقال السيوطي: الانسجام: هو أن كون الكلام - لخلوه من العقادة - متحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعدوبة ألفاظه أن يسهل رقة، والقرآن كله كذلك¹.

فأنت حين تقرأ نصا ما وتتوصل إلى فهم بنيته ومضامينه وكل خلفياته والأطر المنظمة له، فاعلم أنك وظفت آليات الانسجام، فما هي هذه الآليات، أو العلاقات؟

لتحديد العلاقات الخاصة بالانسجام ننطلق من الفرضيتين التاليتين:

1- ليس كل خطاب يملك مقومات انسجامه في ذاته، بل القارئ هو الذي يمتلك هذه الآليات.

2- كل خطاب قابل للفهم فهو خطاب منسجم، والعكس صحيح.

ومن مبادئ الانسجام: السياق، وعدم البتر والتجزئ، والتشابه، والتغريض (يعني الغرض من إنشاء هذا النص).

وأنبه أخيرا على أن الانسجام أعمق من الاتساق، لأنه يتطلب من المتلقي البحث في العلاقات الخفية - التي عادة لا تكشف عن نفسها ببساطة- في حين الاتساق يتعامل مع العلاقات الظاهرة أي اللغوية الشكلية².

قال أهل البديع: وإذا قوي الانسجام في النثر جاءت قراءته موزونة بلا قصد، لقوة انسجامه، ومن ذلك ما وقع في القرآن موزونا:

فمنه من بحر الطويل: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر [الكهف: 29].

ومن المديد: واصنع الفلك بأعيننا [هود: 37].

ومن البسيط: فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم [الأحقاف: 25].

ومن الوافر: ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين [التوبة: 14].

ومن الكامل: والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم [البقرة: 213].

ومن الهزج: فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا [يوسف: 93].

¹ - السيوطي، الاتقان، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي 2004م، بيروت، لبنان، ص: 653

² - مقال: موضوع: مفهوم الانسجام، السبت 29 أغسطس 2009 - http://elattaf.hooxs.com/t3761-

- ومن الرجز: ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا [الإنسان: 14] .
 ومن الرمل: وجفان كالجواب وقدور راسيات [سبأ: 13] .
 ومن السريع: أو كالذي مر على قرية [البقرة: 259] .
 ومن المنسرح: إنا خلقنا الإنسان من نطفة [الإنسان: 2] .
 ومن الخفيف: لا يكادون يفقهون حديثا [النساء: 78] .
 ومن المضارع: يوم التناد يوم تولون مدبرين [غافر: 32، 33] .
 ومن المقتضب: في قلوبهم مرض [البقرة: 10] .
 ومن المجتث: نبي عبادي أبي أنا الغفور الرحيم [الحجر: 49] .
 ومن المتقارب وأملي لهم إن كيدي متين [الأعراف: 183]¹ .

المطلب الرابع: معاني بعض المصطلحات ومقارنتها بمصطلح التناسب

يعبر العلماء وأصحاب اللغة بعبارات متقاربة ومصطلحات تدور حول معنى واحدا، بحسب القصد والغرض من المعنى المعبر عنه، مع أن القاعدة تقول أنه كلما تغير المبنى تغير المعنى، وعلى رأي أصحاب الترادف أن التعبير بمصطلحات متقاربة تعني غرضا واحدا وهدفا مقصودا مشتركا، ولكن الفيصل في معنى هذه المصطلحات هو ميدان تطبيقها، فقولنا مثلا: مصطلح "الكتر" في العرف الأدبي من ناحية الحقيقة يعني بها مال مخزون في كهف أو ركازا اكتشف تحت الأرض، ومن ناحية المجاز قد يعني بها الحرية أو القناعة أو أي شيء معنوي ثمين له قيمة، كقول القائل: "القناعة كتر لا يفنى".

وأما استعمالها في مجال الاقتصاد مثلا فتعني الذهب والفضة، أو تعني المؤسسة المالية للدولة... التي تعني بتصريف العملات... والمعاملات المالية الخاصة ببيت المال.

ولقد عبر العلماء عن المناسبات في القرآن الكريم بعدة مصطلحات، بينها خصوص وعموم، مثل: التوافق والترتيب والتركيب والنظم والتجانس والترابط والتسلسل والتناسب والانسجام والاتساق والتماسك النصي... كل قد ركز على مفهوم خاص منها أو على وجه من أوجه الاستخدام اللغوي، فمنهم من ركز على الجانب الصرفي، فعبر عن التناسب بالتركيب، ومنهم من ركز على أصول النحو فعبر عن التناسب بالنظم كما فعل الجرجاني وتابعه الرازي على ذلك، ومنهم من جمع بينهما فوازن بين النظرية والتطبيق، وآخرون ركزوا على الجانب الدلالي والتداولي وهلم جرا.

¹ - الاتقان، (المصدر السابق): ص: 654.

فمعظم الكلمات من حيث المفهوم دالة على أكثر من معنى، ولكن السياق يحدد ويفصل هذه المعاني، فيتشكل البعد الثاني وهو النص¹، ولهذا قلنا سابقاً أن السياق أعم من المناسبة؛ بل ربما هو أعم منهم جميعاً، وهذا ربما في النص الواحد أو السورة الواحدة، أما في ارتباط نص مع نص أو سورة مع سورة قد يختلف الوضع، وأظن أن المناسبة تكون أعم.

وإذا افترضنا أن المناسبة هي أوجه الارتباط بين سور وآيات القرآن جميعاً، وبين أجزائه أيضاً من الحرف إلى الكلمات إلى الجمل إلى الآيات، إلى علاقة كل ذلك بالموضوع العام للسورة، إلى علاقة ذلك بغرض القرآن كله، فإن السياق والانسجام يكون داخل النص الواحد الذي يحدد بموضوع معين وغرض واحد، وبالتالي تكون المناسبة أعم منهما جميعاً.

والنظم عند الجرجاني هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، في حين نجد الرازي يطبق هذا على آيات القرآن الكريم وسوره، فالرازي لم يقف عند نظم الآيات وارتباطها في السورة الواحدة، بل تجاوز ذلك، ولاحظ الترابط في بعض السور وارتباطها بالسور التي تليها²، ونجد الرازي يحاول أن يؤكد الترتيب والترابط بين الكلمات والآيات في أكثر من موضع ويحاول بيان أن قضية الترتيب وجه من وجوه إعجاز القرآن.

وكما أن الجرجاني يبين أن ضم الألفاظ يتبع نسقاً قرره النحو، وإذا ضمت الألفاظ إلى بعضها دون أن تتوحي فيها معاني النحو لم يكن ذلك نظماً، نجد الرازي يتابع الجرجاني في القول (أن النظم عبارة عن توحي معاني النحو) ولعل ابرز صورة لها التطبيق في تفسيره، تلك التي بين فيها الرازي مواضع التقديم والتأخير والحذف والإضمار وتقدير المضمرة في سبيل بيان الوجه الذي يستقيم فيه بناء الآية.

¹ - مقال الترابط النصي في القرآن، عبد الكريم محمد السعيد، جامعة سبها، الخميس 25 نوفمبر، 2010م.

² - التفسير الكبير، الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط3، ج31-32، ص: 87.

الفصل الثاني

أهمية وفائدة علم المناسبات وأهم مصادره،
وأقسامه.

المبحث الأول: أهمية وفائدة علم المناسبات، ومكانته وقلة الاهتمام به

المطلب الأول: أهميته

- علم يُعين على جعل أجزاء الكلام وقد أخذ بعضها بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط بينها، ويصير تألفها كحال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء¹.

- إظهار الترابط والتناسق بين أجزاء الكلام، حتى تبدو السورة كلها كأنها آية واحدة، أو موضوع واحد ذو أجزاء متماسكة، وحتى يبدو القرآن كله كأنه سلسلة مكونة من عدّة حلقات، كل حلقة آخذة بحجز أختها، على أشد ما يكون الأخذ، وإنّ عدم مراعاة علم المناسبات بين السور أو الآيات، يُوقِع في بُعد عن المعنى حتى في الآية الواحدة، وهو ما حدث للعديد من أهل التفسير عند تعرّضهم لتفسير آية الأهله مثلاً، قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا"². جاء في سبب نزول صدر الآية: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ"، عن ابن عباس قال: سأل الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الأهله فترلت هذه الآية، وقال أبو العالمة: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله، لِمَ خُلقت الأهله؟ فأنزل الله: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ"، وقوله تعالى: "ولَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا"³. قال البخاري: حدثنا عبید الله بن موسى عن إسرائيل بن أبي إسحق عن البراء قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله الآية⁴.

- بمعرفة التناسب نتمكن من معرفة كيف اتسق للقرآن الكريم هذا التآلف، وكيف استقام له هذا التناسق الذي يشهد بحق وصدق على إعجاز القرآن، ويدلّ أبلغ دلالة على مصدر القرآن، وأنه كلام الله (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)⁵.

¹ - البرهان: 36/1، الإتيان: 108/2.

² - سورة البقرة، الآية: 189

³ - سورة البقرة، جزء من الآية: 189.

⁴ - البرهان: 37/1، السيوطي الإتيان: 108/2 و138، أسرار ترتيب القرآن: 30، النبأ العظيم: 160.

⁵ - سورة النساء: آية / 82.

- يبين علم المناسبات الكثير من أسرار التعبير القرآني في التقديم والتأخير، والإيجاز والاطناب، ويبرز الحكمة من ضرب الأمثال، وقص القصص، حسب مقتضيات الأحوال.
- إن المتأمل لتركيب آيات القرآن، ونظم كلماته، في الوجوه المختلفة التي يتصرف فيها، وأسلوبه في التوفيق بين القضايا، والأغراض المتنوعة، مع حسن ربط، وبراعة مسلك، كأنه سبيكة واحدة، أو عقد نظيم، يترجح لديه الرأي القائل بأن ترتيبه توقيفي.
- إن موضوع التناسب بين آيات القرآن وسوره، والوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، هو من الموضوعات التي ينبغي أن تتفرغ لها جهود العلماء، والمهتمين بالدراسات القرآنية، فهو يعين على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، وعلى تحقيق مقاصد هذا الكتاب العظيم في نفوس المؤمنين.
- ويقول برهان الدين البقاعي: "...ورأى أن المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف بديعة الرصف، عليّة الأمر، عظيمة القدر، مباحة لمعاني الكلام على أنّها منها أخذت، فسبحان من أنزله وأحكمه وفصله، وغطّاه وجلّاه، وبينه غاية البيان وأخفاه، وبذلك أيضا يوقف على الحق من معاني آيات حار فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب..."¹.
- وقال البقاعي: "هذا؛ وإن العلم الذي أفاض الله -وله الحمد- عليّ، أصله: بذل الرقة والانكسار، والتضرع والافتقار لأدق العلوم أمراً، وأخفاها سراً، وأعلاها قدراً؛ لأنه في الحقيقة إظهار البلاغة من الكتاب العزيز، وبيان ذلك في كل جملة من جملة؛ فإن البلاغة مناسبة المقال لمقتضى الحال، وهذا الكتاب لبيان الداعي إلى وضع كل جملة في مكانها، وإقامة حجتها في ذلك وبرهانها؛ لأن هذا العلم تعرف منه علل الترتيب.
- وجعل اسم كتابه: "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، دالاً عليه، فقال: "فتعريف هذا العلم هو اسم هذا الكتاب المصنف فيه علم يعرف منه مقاصد السور، وموضوعه: آيات السور، كل سورة على حالها، وغايته: معرفة الحق من تفسيره كالأية من تلك السور، ومنفعته: التبحر في علم التفسير؛ فإنه يثمر التسهيل له والتيسير ونوعه: التفسير، ورتبته: أوله، فيشتغل به قبل الشروع فيه؛ فإنه كالمقدمة له من حيث إنه كالتعريف؛ لأنه معرفة تفسير كل سورة إجمالاً، وأقسامه: السور، وطريقة السلوك في تحصيله: جمع جميع فنون العلم".

¹ - البقاعي، نظم الدرر، ج1، ص: 24.

قال الغماري في كلامه عن المسألة الثالثة قال: "المناسبة لعلم شريف عزيز، قلّ اعتناء المفسرين به لدقته واحتياجه إلى مزيد فكر وتأمل.

ومن ثمّ، فإن في هذا الكلام من أقوال العلماء، تتلاقى بعض الفوائد الكامنة في هذا العلم الجليل، أهمّها أنه يُظهر القرآن الكريم كأنه كلمة واحدة، ويؤكد أن هذا الكتاب العظيم إنما قدّر تقديرًا محكمًا، وصُمّم قبل نزوله بحساب دقيق ووزن حكيم، لكل حرف، وكلمة، وجملة، وآية، وسورة، ثم تمام الكتاب بشموليته، وفي هذا تأكيد بليغ لمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾¹ وردّ للشبه التي يثيرها الروافض والمستشرقون والمعرضون حول جمع القرآن والزيادة فيه أو النقص منه، كما يزعمون! إذ هو يجعل العقل البشري ينشط في محاولة للالتفات إلى الحكمة من هذا الترتيب، والاهتمام باستخراج المعاني ولطائف النكات التي لا يُتوصّل إليها إلا بالتماس أوجه المناسبة والربط بين السور والآيات والكلمات والحروف، ومما لا شك فيه أن القرآن العظيم كلام الله المتزل على سيدنا رسول الله محمد ﷺ، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، حيث فصل سبيكة واحدة من اللوح المحفوظ، وأنزل دفعة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم ترادف نزوله بعد ذلك إلى الأرض منجمًا مفرقًا، في قرابة ثلاث وعشرين سنة؛ بحسب الحوادث والأسباب، وبحسب ما تقتضيه الحاجة والضرورة، ثم جُمع وأعيد ترتيبه في عصر الخلفاء كما كان أول مرة، فاجتمعت أجزاءه، وآياته من جديد، حتى كأنه لم يتفرق عن بعضه يومًا.

المطلب الثاني: فائدته

إذا كان لمعرفة سبب النزول أثر في فهم المعنى، وتفسير الآية، فمعرفة المناسبة بين الآيات تساعد كذلك على حسن التأويل، ودقة الفهم، وإدراك اتساق المعاني بين الآيات، وترابط أفكارها، وتلاؤم ألفاظها، فالقرآن الكريم فيه كثير من فنون العقائد، والأحكام، والأخلاق، والوعظ، والقصص، وغيرها من مقاصد القرآن التي جعلها الله سبحانه هداية للبشر، والتي تدور جميعها على الدعوة إلى الله، والقرآن يبيث هذا المعنى من خلال المقاصد، والأغراض الموزعة على كافة الآيات والسور، فلو جمع كل نوع على حدة، لفقد القرآن بذلك أعظم مزايا هدايته المقصودة.

¹ - الحجر، آية: 09.

قال محمد رشيد رضا: «وقد خطر لي وجه، وهو الذي يطرد في أسلوب القرآن الخاص، في مزج مقاصد القرآن بعضها ببعض، من عقائد، وحكم، ومواعظ، وأحكام تعبدية ومدنية، وغيرها، وهو نفي السامة عن القارئ والسامع من طول النوع الواحد منها، وتجديد نشاطها ومنهجها»¹.

فمن عادة القرآن أن يجمع بين الفنون المختلفة في سورة واحدة، في تنسيق بديع، يصل بها إلى الذروة في الإعجاز البلاغي، والإحكام البياني، وروعة الأسلوب، (كتاب أحكام آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)².

وقال الإمام الزركشي: «واعلم أن المناسبة علم شريف، تحرز بها العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول...، ثم يقول: وفائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»³.

وقال عنه الفخر الرازي: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط».

وقال الشيخ أبو بكر النيسابوري: «إن إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلا إلى هذه المناسبات الخفية، والقوية بين آياته وسوره، حتى كأن القرآن كله كالكلمة الواحدة، ترتيباً وتماسكاً»⁴.

ويقول الزمخشري في كشافه: «وهذا الإحتجاج، وأساليبه العجيبة التي ورد عليها، مناد على نفسه بلسان ذلك، أنه ليس من كلام البشر، لمن عرف، وأنصف من نفسه.

وقال في موضع آخر: فانظر إلى بلاغة هذا الكلام، وحسن نظمه، ومكانة أضماده، ورفافة تفسيره، وأخذ بعضه بحجز بعض، كأنما أفرغ إفراغا واحداً، ولأمر ما أعجز القوى، وأخرس الشقاشق»⁵.

¹ - رضا، محمد رشيد: تفسير النار (مرجع سابق)، ج2/ص445.

² - سورة هود: آية/1.

³ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن (مرجع سابق)، ج1/ص61، 62. (باختصار)، وانظر السيوطي: الإتقان (مرجع سابق)، ج3/ص322.

⁴ - نقلاً عن: رضوان، د. بسيوي عرفة: الفصل والوصل، مكتبة الرسالة، القاهرة. ص39.

⁵ - الزمخشري، محمود بن عمر (ت528هـ): الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، مطبعة مصطفى محمد، القاهرة. ج1/ص497، ج2/ص153.

وقال فخر الدين الرازي في ختام تفسيره لسورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك»¹.

المطلب الثالث: مكانة علم المناسبات بين العلوم (من التفسير)

القرآن الكريم أفق البلاغة الأرحب، ومدد الخير لمن أخلص الطلب، وتجرّد للفهم والعمل، في طياته إعجاز وجلال، ودرر ليس لها مثال، ولعل أدق علومه علم المناسبات القرآنية، الذي يربط بين السور والآيات والكلمات؛ فإذا هي حبات عقد مكتمل، وأجزاء ببيان متصل؛ تتجلى فيه أسمی الهدايات، منظومة بأوثق الروابط والترتيبات.

والعلم بالمناسبات بين الآيات القرآنية في السورة الواحدة، وبين السور في الكتاب كلّ، أمر ذو خطر عظيم، لما له من شأن كبير في الدلالة على تفسير النظم الحكيم تفسيراً موضوعياً، باعتباره واحداً من أدق العلوم وأجلّها ولما يحتاج إليه من حسّ عال، وتذوق رفيع للأساليب والنظوم، ليس على مرتبة العلاقات اللفظية والمعاني، وإنما على ما فوقها من رتب تلمس ما وراء النظم من هدايات ولطائف ومعاشية لجوّ التزيل، بل إنه من فرط دقته، كثيراً ما يردُّ إلى ذهن المشتغل به على صورة فيوضات وإشراقات تهزُّ الفكر هزّاً، وتمسُّ الروح مسّاً، لذلك بدت نسبته إلى علم التفسير كنسبة علم البيان إلى علم النحو، فهو علم يُعين على إدراك مقاصد القرآن الحكيم، وتذوق نظم الرافي، ومعرفة علل ترتيبه نزولياً ومصحفياً، ومطابقة المقال لما اقتضاه الحال، وبيان أوجه الاتصال بين السورة القرآنية وما سيقت له وأوجه الاتصال بين السورة وما قبلها وما بعدها؛ وذلك أمر يحتمُّه الاعتقاد الجازم بتزيه كلام رب العالمين عن المشابهة ناهيك عن التناقض: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾²، ومن أجل ذلك كانت المناسبة علماً عزيزاً، قلّ اعتناء المفسرين به لدقته، واحتياجه إلى مزيد فكر وتأمل، كما كانت علماً شريفاً تحزر به العقول ويُعرف به قدر القائل فيما يقول³. وقال عنه السيوطي في معترك الأقران: "علم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته".

¹ - السيوطي: الإتيان (مرجع سابق) ج/3 ص 323.

² - سورة النساء، الآية: 82.

³ - الزركشي، البرهان: ج1، ص: 35.

المطلب الرابع: قلة الاهتمام بهذا العلم

لقد صرَّح الإمام البقاعي بقدم علم المناسبات القرآنية، وانتشاره بين الصحابة والتابعين واعتمادهم إياه في فهم آي الكتاب الحكيم، فقال: "كان أفاضل السلف يعرفون هذا بما في سليقتهم من أفانين العربية ودقيق مناهج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص هذا العلم حتى انعجم على الناس، وصار إلى حد الغرابة كغيره من الفنون". ومع أن لهذا العلم الجليل فوائد غزيرة، إلا أنه لم يعتن به إلا القلائل من المفسرين، يقول الزركشي رحمه الله: "وهذا النوع يُهمله بعض المفسرين أو كثير منهم، وفوائده غزيرة".

ونقل الزركشي أيضاً عن القاضي أبي بكر بن العربي في سراج المريدين، قوله: "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، أننا لم نجد له حَمَلَةً، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"¹.

وقال الشيخ أبو الحسن كمال الدين الشهرآباني (ت672هـ): "أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري (ت342هـ)، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسي إذا قرئ عليه: "لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟ وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة"².

وربما هناك من أنكر هذا العلم جملة مثل ما يدعي الشوكاني أن البحث في هذا العلم ضرب من التكلف، وأنه لا فائدة منه، وأنه من التكلم بمحض الرأي المنهي عنه وينعى على البقاعي وغيره عنايتهم بهذا العلم: وفيما يلي عرض لكلامه مع ردود إجمالية عليها:

يقول الشوكاني في مقدمة تفسيره معارضا لعلم المناسبة منكرًا له ومنتقدا للمهتمين به: "اعلم أن كثيرا من المفسرين جاءوا بعلم متكلف وخاضوا في بحر لم يكلفوا سباحته واستغرقوا أوقاتهم في فن لا يعود عليهم بفائدة بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله سبحانه؛ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في

¹ - البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي: 62/1.

² - البرهان: 36/1.

المصاحف فجاءوا بتكلفات وتعسفات يتبرأ منها الإنصاف ويتزهر عنها كلام البلاغاء فضلا عن كلام الرب سبحانه حتى أفردوا ذلك بالتصنيف وجعلوه المقصد الأهم من التأليف كما فعله البقاعي في تفسيره ومن تقدمه حسبما ذكر في خطبته¹.

والذي نعرفه، أن التعسف والتكلف مذموم بيد أن التفكير والتدبر محمود، فعلم المناسبة هذا الأخير، ولعل الشبهة التي قدمها الشوكاني عبر عنها بالتساؤل التالي: كيف نطلب للآيات مناسبات وقد نزلت منجمة حسب الأحداث فلا تناسب بينها إذا؟

يوضح هذا الأمر ما جاء في قوله: «وإن هذا لمن أعجب ما يسمعه من يعرف أن هذا القرآن ما زال يتزل مفرقا على حسب الحوادث المقتضية لتزوله منذ نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن قبضه الله عز وجل إليه وكل عاقل فضلا عن عالم لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها بل قد تكون متناقضة كتحریم أمر كان حلالا وتحليل أمر كان حراما وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله، وتارة يكون الكلام مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع من مضى وتارة مع من حضر وحيناً في عبادة وحيناً في معاملة ووقتا في ترغيب ووقتا في ترهيب وآونة في بشارة وآونة في نذارة وطورا في أمر دنيا وطورا في أمر آخرة ومرة في تكاليف آتية ومرة في أفاصيص ماضية وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسر معه الائتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادي»².

ولم يذهب العز بن عبد السلام من قول الشوكاني بعيدا فلقد نقل الزركشي عنه قوله: « المناسبة علم حسن ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر قال ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يصاب عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضها ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض مع اختلاف العلل والأسباب كتصرف الملوك والحكام والمفتين وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة و متخالفة ومتضادة وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك

¹ - الشوكاني، فتح القدير، ج1، ص: 72.

² - المصدر نفسه، المقدمة.

التصرفات مع بعض مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها انتهى»¹، إلا أن العز رحمة الله لا ينكر وجود المناسبة على الإطلاق ولكنه يستحسنها إذا وقعت بين كلام متحد مرتبط أوله بأخرى.

ويضيف الشوكاني: أن البحث في هذا العلم ما هو إلا "فتح لأبواب الشك وتوسيع دائرة الريب على من في قلبه مرض أو كان مرضه مجرد الجهل والقصور فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بد منه وأنه لا يكون القرآن بليغا معجزا إلا إذا ظهر الوجه المقتضى للمناسبة وتبين الأمر الموجب للارتباط فإن وجد الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك فوجده تكلفا محضا وتعسفا بينا انقدح في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة²، ولكنه يثني على كتاب الدرر للبقاعي وعلى مسلك صاحبه فيه فيقول في كتابه البدر الطالع خلال ترجمته له: "ومن أمعن النظر في كتابه المترجم له في التفسير الذي جعله في المناسبات بين الآي والسور علم أنه من أوعية العلم المفرطين في الذكاء الجامعين بين علم المعقول والمنقول، وكثير ما يشكل على شيء في الكتاب فأرجع إلى مطولات التفسير ومختصراتها فلا أجد ما يشفي وأرجع إلى هذا الكتاب - نظم الدرر - فأجد فيه ما يفيد في الغالب"³.

ولم يبقى مما ذهب إليه بعض علماؤنا وإنكارهم علم المناسبات مجرد رأي قد يقبل النقاش والجدال، في الوقت الذي يقبل كثير من المفسرين والباحثين على هذا العلم، مطبقين ومنظرين كما سنرى في المبحث التالي.

المبحث الثاني: اهتمام المفسرين بعلم المناسبة، وأهم مصادره

المطلب الأول: الاهتمام بعلم المناسبات

لقد اعتنى بعض من المفسرين بعلم مناسبات القرآن الكريم في تفاسيرهم، على اختلاف مشاربهم، وكما دندنوا حول المناسبة بين الآيات، بحثوا عن الصلة، والمناسبة، بين سور القرآن عامة، وكانوا بين مقل ومكثر، وكان أبو بكر النيسابوري: أول من سبق إلى هذا العلم، وكان يلقي باللائمة على علماء بغداد لإهمالهم علم المناسبات، والكلام في هذا الشأن.

¹ - الزركشي، البرهان (مصدر سابق)، ج1، ص: 37.

² - الشوكاني فتح القدير، المقدمة.

³ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، ج2/1 ترجمة البقاعي.

وتعرض أحمد بن عمار المهدي للوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم، وساق بعض الشواهد على التناسب بين آيات القرآن، منها:

قوله عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾¹ وما بعدها، وهو قوله: ﴿ولله ما في السماوات والأرض﴾² ووجه التناسب: ﴿إنما اتخذ إبراهيم خليلاً لحسن طاعته، لا لحاجته إليه، لأن له ما في السموات والأرض﴾³.

وعرض الزمخشري في تفسيره الكشاف، لإعجاز وأسرار الجمال القرآني، وفيه يقول (وهذه الأسرار والنكت، لا يبرزها إلا علم النظم، وإلا بقيت محتجبة في أكمامها)⁴ وكان للمناسبة في كتابه حظ أوفى ممن سبقه من المفسرين.

وصنف ابن عطية كتابه في التفسير: (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، وتعرض فيه للوحدة المعنوية بين آيات القرآن الكريم، التي يرى أكثر البلاغيين والمفسرين أنها مظهر من مظاهر الإعجاز البياني في كتاب الله، فهو يقول في الإنتظام الوارد بين قوله تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله﴾⁵، وبين الآية التي قبلها: «هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها، أي: لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب، فثم وجه الله موجود حيث وليتم»⁶.

وكان فخر الدين الرازي أكثر المفسرين اعتناء بعلم المناسبات، قال الزركشي: (وقد قل إعتناء المفسرين بهذا العلم، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط)⁷، والشواهد في تفسيره: (التفسير الكبير) كثيرة.

¹ - سورة النساء: آية / 125.

² - سورة النساء: آية / 126.

³ - سعيد الفلاح: المهدي وجهوده في التفسير والقراءات: ص/ 313. نقلا عن: الطوير، حسن مسعود: المنهج البلاغي لتفسير القرآن (مرجع سابق): ص 46.

⁴ - الزمخشري: الكشاف، (مرجع سابق): ج 2، ص 302.

⁵ - سورة البقرة، آية: 115.

⁶ - الطوير، حسن مسعود، المنهج البلاغي لتفسير القرآن الكريم، (مرجع سابق)، ص: 71.

⁷ - الزركشي، البرهان (مرجع سابق)، ج 1، ص 62.

واهتم ابن جزى الكلبي اهتماما بالغا بعلم المناسبة بين الآيات والسور في تفسيره: (التسهيل لعلوم التنزيل)، اقتداء بشيخه: ابن الزبير الغرناطي، وعند تعرضه لتفسير آية مصارف الزكاة: ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين...﴾¹، يطرح سؤالاً عن سبب ذكر مصارف الزكاة في تضاعيف ذكر المنافقين، ويحجب عنه بقوله: (إنه حصر مصارف الزكاة في تلك الأصناف، ليقطع طمع المنافقين فيها، فاتصلت هذه الآية في المعنى بالآية التي سبقتها، وهي قوله تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات﴾². ويعد أبو حيان الأندلسي، من المفسرين القلائل الذين أولوا عناية للتناسب بين آيات وسور القرآن الكريم، وتفسيره (البحر المحيط) حافل بالشواهد على ذلك، فهو قد درج على ذكر مناسبة أول كل سورة، إلى آخر ما قبلها.

ومن أمثلة ذلك: ما ذكره عند تفسير قوله تعالى من أول سورة الأنبياء: ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾³ فقد ذكر التناسب بين أول هذه السورة، وآخر سورة طه، وقال: (مناسبة هذه السورة لما قبلها: أنه لما ذكر قوله: ﴿قل كل متربص فتربصوا...﴾⁴، قال مشركوا مكة: محمد يهددنا بالمعاد، والجزاء على الأعمال، وليس بصحيح، وإن صح ففيه بعد، فأنزل الله تعالى: ﴿اقترب للناس حسابهم﴾⁵.

وذكر مناسبة أول سورة عبس، وهو قوله تعالى: (عبس وتولى. أن جاءه الأعمى)⁶ للسورة التي قبلها - وهي سورة النازعات - فقال: مناسبتها لما قبلها أنه لما ذكر قوله: (إنما أنت منذر من يخشاها)⁷، ذكر في هذه من ينفعه الإنذار، ومن لم ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يناجيهم في أمر الإسلام، كعتبة بن ربيعة، وأبي جهل، وأممية بن خلف، وأبي.

¹ - سورة التوبة، آية: 60.

² - الكلبي، محمد بن أحمد بن جزى (ت741هـ): التسهيل لعلوم التنزيل، المكتبة التجارية الكبرى، ط1، القاهرة، 1355هـ، ص: 256.

³ - سورة الأنبياء، آية: 1.

⁴ - سورة طه، آية: 135.

⁵ - أبو حيان محمد بن يوسف (ت745هـ): البحر المحيط، ط2، دار الفكر، بيروت، ج6/ ص: 295.

⁶ - سورة عبس، الآيتان: 1، 2.

⁷ - سورة النازعات، آية: 45.

وقد أورد أبو حيان شواهد كثيرة على التناسب المعنوي بين آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله: وهو يفسر آية التحدي في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا.. الآية﴾¹ قال: (مناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه لم يحتج عليهم بما يثبت الوحدانية، ويطل الشرك، وعرفهم أن من جعل لله شريكا فهو بم عزل من العلم والتميز، ويحتج على من شك في النبوة بما يزيل شبهته، وهو كون القرآن معجزة، ويبين لهم كيف يعلمون أنه من عند الله، أم من عنده، أن يأتوا هم، ومن يستعينون به بسورة)².

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم.. الآية﴾³ يبرز التناسب بين هذه الآية وما قبلها فيقول: (مناسبة هذه الآية لما قبلها هي: أنه تعالى لما ذكر ثواب من أقدم على الجهاد، أتبعه بعقاب من قعد عن الجهاد، وسكن في بلاد الكفار)⁴، ويظهر الثواب الذي ذكره في قوله تعالى قبل هذه الآية: (وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجرا عظيما، درجات منه ومغفرة ورحمة..)⁵، ولا يتوقف في هذه السورة عند ذكر تناسب آياتها، بل يورد التناسب بين أول السورة وآخرها، فيقول: «ختمت هذه السورة (يعني سورة النساء) بهذه الآية، (يعني آية الكلاله)، كما بدئت أولا بأحكام الأموال في الإرث وغيره، ليشاكل المبدأ المقطع، وكثيرا ما وقع ذلك في السور»⁶.

واهتم بها كذلك عدد من المفسرين، منهم: الشهاب الخفاجي، في حاشيته على تفسير البيضاوي، والإمام نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، في تفسيره: غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، والعلامة أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، في تفسيره: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والآلوسي، شهاب الدين محمود في تفسيره روح المعاني، وغيرهم، وتفاسيرهم حافلة بالشواهد والأمثلة، التي لا يتسع لها هذا المقام.

¹ - سورة البقرة، آية: 23.

² - أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط (مرجع سابق)، ج1/ ص: 102.

³ - سورة النساء، آية / 97.

⁴ - أبو حيان، البحر المحيط (البحر المحيط): ج3/ ص 333.

⁵ - سورة النساء، الآيتان / 95، 96.

⁶ - أبو حيان: البحر المحيط (مرجع سابق): ج3/ ص 406.

كما حاول بعض العلماء والمفسرين من القدامى والمعاصرين، أن يحددوا للسورة القرآنية أهدافا ومقاصد عامة تعنى بها السورة، وقد أعانت هذه الأهداف والمقاصد على تبين أوجه الربط بين آيات السورة القرآنية.

ومن العلماء الذين لهم إسهامات في هذا المجال كل من: شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره لسورتي الفاتحة، والإخلاص¹، وتلميذه: ابن القيم في تفسيره لسورتي الفاتحة والمعوذتين².
وحاول الدكتور محمد أحمد السنباطي أن يجعل من: الإمام ابن القيم رائدا لهذا الاتجاه³، وتابعه في ذلك الدكتور: زاهر بن عوض الألمعي، في كتابه (دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم)⁴.
وتعرض (الفيروزآبادي) لبيان الأهداف والمقاصد لسور القرآن الكريم، في كتابه (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)⁵.

واهتم صاحب تفسير المنار ببيان أهداف السورة القرآنية، حيث كان يضع في خاتمة تفسير كل سورة، ملخصا لأهم موضوعاتها، وقضاياها⁶.
وألّف الدكتور: عبد الله شحاتة، كتابا متخصصا في هذا الموضوع تحت عنوان: أهداف كل سورة، ومقاصدها في القرآن الكريم⁷.
وهناك بحث آخر تحت عنوان: أثر المناسبة في كشف إعجاز القرآن، أ. د: نور الدين عتر، مذكرة مطبوعة، وله أيضا: علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن.

¹ - انظر: ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم (ت 728هـ): دقائق التفسير، جمع وتحقيق د. محمد السيد الجليند. دار الأنصار، القاهرة.

² - ابن القيم، محمد ابن أبي بكر (ت 751هـ): التفسير القيم: جمعه محمد أويس الندوي. لجنة التراث العربي، بيروت.

³ - انظر: السنباطي، د. محمد أحمد: منهج ابن القيم في التفسير، ط، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1973.

⁴ - انظر: الألمعي، د. زاهر بن عوض: دراسات في التفسير الموضوعي، مطبعة الفرزدق، 1405هـ، جدة.

⁵ - الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب (ت 817هـ) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: بتحقيق الأستاذ محمد علي النجار، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة.

⁶ - رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (مرجع سابق). انظر: تفسير المنار: ج 1 / ص 416-417، وج 2/ ص 11، وص 56. وج 3/ ص 293-294، وج 7/ 288-289.

⁷ - شحاتة، د. عبد الله محمود: أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986م.

كما حاول بعض العلماء إبراز الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مثل: نابغة الأزهر: الدكتور محمد عبد الله دراز، وتحدث عن ذلك في كتابه العظيم: (النبأ العظيم) فقال: (واعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير، وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً، نرسم به خط سيرها إلى غايتها، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة في موقعها من تلك السلسلة العظمى ثم يبين أهمية تحديد عمود السورة قبل الخوض في بيان المناسبات بين أجزائها فيقول: بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه، نحب أن نقول كلمة ساق الحديث إليها، وهي: أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني، تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضوعية بين جزء جزء منه - وهي تلك الصلات المثبوتة في مثاني الآيات ومطالعها ومقاطعها - إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها، بإحصاء أجزائها، وضبط مقاصدها، على وجه يكون معاوناً له على السير في تلك التفاصيل عن بيعة إلى أن يقول: وبهذا تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات، حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملتها: فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد؟ وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم¹ ومن المهتمين والمبرزين في هذا الجانب: الشهيد سيد قطب، في تفسيره (في ظلال القرآن)² فقد استوعب جميع سور القرآن الكريم، في بيان وحدتها الموضوعية، والجرس الموسيقي المتناسب مع الآيات والمعاني.

وقد اهتم الشيخ محمود شلتوت - شيخ الجامع الأزهر - ببيان مقاصد السورة، ووحدتها الموضوعية³، من خلال تفسيره الذي فسر فيه عشر سور من القرآن الكريم، يقول في تفسيره لسورة آل عمران:

¹ - عبد الله دراز، د. محمد عبد الله: النبأ العظيم، ص 158-159. ط3، دار القلم، الكويت 1988م.

² - قطب بن ابراهيم، سيد (ت 1387هـ): في ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربي، ط7، 1971م.

³ - هناك رسالة ماجستير في الوحدة الموضوعية عند محمود شلتوت، للطالب محي الدين بن عمار، إشراف منصور كافي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2008م، قسنطينة، الجزائر.

(ونحن إذ نقرأ السورة، نجدها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين، لهما خطرهما في سعادة الأمم وشقائهما:

الأول: تقرير الحق في قضية العالم الكبرى، وهي مسألة الإلوهية، وإنزال الكتب، وما يتعلق بها من أمر الدين، والوحي، والرسالة.

والثاني: تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان، عن التوجه إلى معرفة الحق، والعمل على إدراكه، والتمسك به)¹، ثم يشرع في تفصيل الأمرين.

كما اهتم بها الشيخ عبد العزيز جاويش، ودعا إلى تلمس الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية، التي تبين بصورة جلية ارتباط الآي بعضها ببعض، فتتناسق آياتها، وتتلاحم، حتى تكون كالسبيكة الواحدة، فقال: (قد يغفل المفسر عما بين آيات القرآن من الارتباط، والتناسب، وما قد يفيد بعضها بعضاً من البيان، أو التقييد، فيأخذها بالتأويل، مفككة العرى، مبددة النظم، حتى إذا استعصى عليه أمرها، ونبأ عقله عن فهمها، لا يزال يركب في تأويلها صعاب المراكب، ويلتمس بلوغ معانيها بتسنم الجبال، وقطع السباب، وقلما سلمت أقدامهم من العثار، أو استطاعوا إبراز ما فيها من الآثار)²

كما كانت للأستاذ الدكتور فضل حسن عباس، نظرات ثاقبة في تبين الوحدة الموضوعية في السور القرآنية، من خلال استعراضه للقصص القرآني في كتابه: القصص القرآني، إبحاره، ونفحاته³.

المطلب الثاني: قواعد علم المناسبات وطرق الوصول إلى معرفتها

قال البقاعي في نظم الدرر: "وهو سرُّ البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية التفاسر، وكانت نسبتُه من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو".

¹ - شلتوت، الشيخ محمود: تفسير القرآن الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، ط 4، 1966م، دار القلم، القاهرة. انظر ص: 51-

53،

² - جاويش: الشيخ عبد العزيز: تفسير أسرار القرآن، مطبعة الهداية الإسلامية، الأستانة، 1331هـ، ص: 117.

³ - عباس، د. فضل حسن: القصص القرآني، إبحاره ونفحاته، ط 1، 1987م، دار الفرقان، عمان.

فالبِقَاعِيُّ يجعل العِرفانَ بمقصودِ السورةِ أساسَ الإِجادةِ في فقه تناسبِ القرآنِ الكريمِ من حيث العِرفانُ بعللِ ترتيبِ أجزاءِ البيانِ القرآنيِّ، بدءاً من الكلمةِ في الجملةِ وانتهاءً بالسُّورةِ، وفي الوقتِ نفسه يعودُ ذلكُ بالنفعِ الجليلِ على معرفةِ المقصودِ من جملِ السورةِ بفقه نظمها التركيبيِّ.

وهو بذلك منطلقٌ من القاعدةِ الكليةِ التي أرشده إليها شيخه "أبو الفضل المشداليّ المغربي" والتي نصَّ عليها في مفتح تأويله سورة "الفاتحة" قائلاً: "الأمر الكليّ المفيدُ لِعِرفانِ مناسباتِ الآياتِ في جميعِ القرآنِ هو أنّك تنظرُ إلى مراتبِ تلكِ المقدماتِ في القربِ والبعدِ من المطلوبِ وتنظرُ عند انجرارِ الكلامِ في المقدماتِ إلى ما يستبعثه من استشرافِ نفسِ السامعِ إلى الأحكامِ واللوازمِ التابعةِ له التي تقتضي البلاغةِ شفاءِ العليلِ بدفعِ عناءِ الاستشرافِ إلى الوقوفِ عليها فهذا هو الأمر الكليّ المهيمن على حكم الربطِ بين جميعِ أجزاءِ القرآنِ، وإذا فعلته تبين لك إن شاء الله تعالى وجه النظم مفصلاً بين كلِّ آيةٍ وآيةٍ في كلِّ سورةٍ وسورةٍ، والله الهادي"¹.

وقال العِزُّ بن عبد السلام فيه: "المناسبة علم حسن، لكن يُشترط في حسن ارتباطِ الكلامِ أن يقع في أمرٍ متَّحدٍ مرتبطٍ أوله بآخره".

وموضوعه يتعلقُ بأجزاءِ الشيءِ المطلوبِ علم مناسبته من حيث الوقوف على طرق الترتيب وعلله، يقول البقاعي: "وبهذا العلم يرسخ الإيمان في القلب ويتمكن من اللب؛ وذلك أنه يكشف أن للإعجاز طريقتين، إحداهما نظم كل جملة على حياها بحسب التركيب.

والثانية: نظمها مع تاليتها بالنظر إلى الترتيب، والأول أقرب تناولاً وأسهل ذوقاً؛ فإن كل من سمع القرآن من ذكي وغبي يهتزُّ لمعانيه وتحصل له عند سماعه روعة بنشاط مع انبساط لا تحصل عند سماع غيره، ثم إذا عبر الفطن من ذلك إلى تأمل ربط كل جملة بما تلتها وما تلاها خفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض متناثية المقاصد، فظن أنها متنافرة، فحصل له من القبض والكرب أضعاف ما حصل له بالسماع من الهزّ والبسط، ربما شككه ذلك وزلزل إيمانه، فإذا استعان بالله وأدام الطَّرْقَ لباب الفرج بإنعام التأمل وإظهار العجز والوقوف بأنه في الذروة من إحكام الربط كما كان في الأوج من حسن المعنى، فانفتح له ذلك الباب، ولاحت له من ورائه بوارق أنوار تلك الأسرار، رَقَصَ الفكر منه طرباً وشاط لعظمة ذلك جنائنه، ورسخ من غير مرية إيمانه"².

¹ - نظم الدرر: 17/1 - 18

² - نظم الدرر، البقاعي، ج1، ص: 23.

ونسبته من علم التفسير كنسبة علم المعاني والبيان من النحو فهو غاية العلوم¹، وثمرته الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب تعلُّقه بالكُلِّ، وارتباطه بما وراءه وما أمامه ارتباطاً كُلِّحمة النسب، بحيث تبدو أجزاء الكلام وقد أخذ بعضها بأعناق بعض، وتتوقَّف معرفته، وثمرته، والإجادة فيه على إدراك مقصود كل سورة في كل جملها القرآنية، ومن أجل ذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، يقول الشيخ أبو بكر النيسابوري²: "إن إعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلا إلى هذه المناسبات الخفية، والقوية بين آياته وسوره، حتى كأن القرآن كله كالكلمة الواحدة ترتيباً وتماسكاً³."

وأما مَرَجُ المناسبة سواء أكانت بين أجزاء الآية، أم بين الآيات، أم بين السور إلى رابط ما سواء أكان هذا الرابط عاماً أم خاصاً، عقلياً أم حسيّاً أم خياليّاً، ويجوز أن ترجع المناسبة إلى التلازم بين أجزاء الآية أو الآيات أو السُورِ، سواء أكان هذا التلازم ذهنياً، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدّين، ونحو ذلك، أم كان هذا التلازم خارجياً كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر⁴، فالقرآن كُله كما قرّر الرازي في تفسيره لسورة القيامة، كالسورة الواحدة لاتّصال بعضه ببعض⁵.

واعتماداً على ما سبق يمكن أن نخلص إلى ثلاثة أو أربعة قواعد وطرق لكشف علم المناسبة بين أجزاء الكلام:

الأولى: أن ننظر إلى مقصود السورة أو غرضها العام.
الثانية: أن ننظر إلى تشابه الأحكام وما يترتب عليها من وعد ووعد، حتى يكون باعثاً لتحصيلها، والعمل بها.
الثالثة: النظر في الثنائيات القرآنية، والنظائر وأشباهاها.

¹ - مباحث في التفسير الموضوعي، د. مسلم، ص: 60-61.

² - هُوَ عبد الله بن مُحَمَّد بن زيَاد، الأَمَوِي، الشَّافِعِي، إِمَام الشَّافِعِيين فِي عَصْرِهِ بِيَعْدَاد سَمِعَ بَنِيْسَابُورَ وَالْعِرَاقَ وَالشَّامَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازَ، جَالِسَ الرَّبِيعِ وَالْمَزْنِي وَتَفَقَّهَ بِهَمَا، وَهَمَا مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِي، تَوَفِّي سَنَةَ 324 هـ. سِيرَ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ 65/15 - 67.

³ - ينظر: الفصل والوصل، للدكتور بسيوي عرفة، مكتبة الرسالة، القاهرة، ص: 39.

⁴ - البرهان: ج1، ص: 35، الإتقان: ج2، ص: 108.

⁵ - التفسير الكبير، للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 2، سنة: 1417هـ - 1997م، ص: 10، ص: 719.

الرابعة: النظر إلى الفاصلة القرآنية.

الخامسة: النظر إلى تذييل الآيات، والمعطوفات.

وقد يكون الارتباط ظاهراً، وقد لا يكون ظاهراً، بل يبدو لأول وهلة أن كل آية أو جملة مستقلة عن الأخرى، وهاهنا: - إما أن تكون معطوفة على الأولى بحرفٍ من حروف العطف المشتركة في الحكم، ويندرج في هذا ما يسمى ربط التضاد أو المقابلة، كأن يذكر نوعين متضادين، كذكر المؤمنين والكافرين، والخير والشر، والعلم والجهل، والظلمات والنور، وطريق الهداية وطريق الغواية، ومصير الكافرين ومصير الأتقياء المؤمنين، والظلم والعدل، والبخل والإنفاق، والطيب والخبيث، وهذا كثير جداً في القرآن الكريم.

- وإما أن لا تكون معطوفة، فلا بد من قرينة معنوية تؤذن بالربط ومن ذلك إلحاق النظر بالنظر، كما في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ في سورة الأنفال، فكراهيتهم لما فعله عليه الصلاة والسلام في قسمة الغنائم، ككراهيتهم للخروج للقتال.

ومنه أيضاً: الاستطراد، وهذا يلاحظ في كثير من سور القرآن فإذا تحدث عن قصة آدم يستطرد لما يتبع ذلك من أمور، وكذلك في الحديث عن عصيان إبليس لربه، أو ذكر قصص الأنبياء وهكذا. وهذا بحث خاص لطيف ليس مقامه هنا، وإن كنت قد بدأت في جمع بعض لطائفه في بحث سميته: "قواعد علم المناسبة وطرقه"، ليكون كتاباً مستقبلاً بإذن الله.

المطلب الثالث: أهم شيوخه ومؤلفاته

في علم المناسبة نجد عشرات من التفاسير والبحوث والرسائل والأجزاء، مع نُذْرَتِهَا التي بحثت مسائل هذا العلم وفصّلت القول فيه.

فها هو ابن العربي المالكي (ت543هـ) يَزَعُمُ أنه كتب كتاباً في مقاصد السور وتناسب الآيات والسور وعرضه على الناس في زمانه، إذ قال: رأيتُ الناسَ بَطَلَّةَ لم يقبلوا عليه، ولم يهتموا له مع عظيم علمه وشرف معلومه، قال: "فلمَّا رأيتُ ذلك الإعراضَ منهم أحرقته وجعلته بيني وبين الله جَلَّ وَعَلَا".

وجاء في "أبجد العلوم" أن من القلائل الذين صَنَّفُوا في هذا العلم، أبا جعفر إبراهيم بن الزبير الغرناطي الأندلسي (ت708هـ) في كتاب سَمَّاه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن"، ثم جاء بعده كمال الدين بن الزملاكي (ت727هـ)، صاحب "البرهان في إعجاز القرآن"، الذي اهتمَّ اهتماماً كبيراً بالترتيب المصحفي وبيَّن أسرارَه، فقال: "عند التأمل يظهر أن القرآن كَلَّهُ كالكلمة الواحدة"، وأفردَ

السيوطي (تـ911هـ) لهذا العلم كتابين أسماهما: "تناسق الدرر في تناسب السور"، و"أسرار التزويل"¹.

كما كتب في علم المناسبات والمقاصد القرآنية كتاباً ثالثاً سَمَّاه: "مراصد المطالع في المقاطع والمطالع" وخصَّ النوع الثاني والستين من كتابه: "الإتقان في علوم القرآن" بالحديث عن مناسبات الآيات والسور ذكر فيه أغلب ما ذكره الزركشي في "البرهان"، وزاد عليه في الأمثلة. وقد اعتبر السيوطي مناسبة آيات القرآن وسوره، وارتباط بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، وجهاً من وجوه إعجاز القرآن².

وقال إن من فوائده: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حالته حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"³.

وذكر في تعلقات القرآن أربعة عشر نوعاً من أنواع المناسبات، نذكر منها: مناسبة ترتيب السور، وحكمة وضع كل سورة موضعها، ومناسبة اعتلاق فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها، ومناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقى له، ومناسبة أول السورة لآخرها، ومناسبة ترتيب الآيات واعتلاق بعضها ببعض، ومناسبة أسماء السور لها.

وذكر السيوطي مؤلفاً آخرَ أفرده برهان الدين البقاعي (تـ885هـ)، في كتاب سَمَّاه "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، قام فيه بجمع مناسبات السور والآيات مع ما تضمنها من بيان جميع وجوه الإعجاز وأساليب البلاغة، وقد اشتهر هذا الكتاب بكتاب المناسبات، وصفه صاحب كشف الظنون بقوله: "هو كتاب لم يسبقه إليه أحد، جمع فيه من أسرار القرآن ما تحيّر منه العقول"⁴.

وقد أثمهم البقاعيُّ أبا الحسن عليّ بن أحمد التّجيجي الحِرايّي المغربي (تـ637هـ)، نزيل حمّاه بأنّه قد أخذ كل ما في كتابه من "نظم الدرر"، يقول المناوي في الكواكب الدرية: 465/2، في ترجمة الحِرايّي "وصنف تفسيراً ملاءه بحقائقه، ودقائق فكره، ونتائج قريحته، وأبدى فيه من مناسبات الآيات والسور ما

¹ - أبجد العلوم، لصديق القنوجي، المجلد الثاني، باب علم معرفة مناسبات الآيات والسور.

² - معترك الأقران في إعجاز القرآن، لجلال الدين السيوطي، ص: 43.

³ - المصدر السابق، ص: 45.

⁴ - الإتقان، السيوطي: 288/3.

يُيَهَّرُ العقول، وتُحَارُ فيه الفحول، وهو رأس مال البقاعي، ولولاه ما راح ولا جاء، ولكنه لم يتم، ومن حيث وقف وقف حال البقاعي في مناسباته".

ووجدنا الإمام الألوسي رحمه الله يهتم في تفسيره في أثناء أول كل سورة ببيان المناسبة بين السورتين وكذلك فخر الدين الرازي رحمه الله، الذي أكثر من التماس المناسبات في تفسيره، فقال في تفسير أوامر سورة البقرة: "وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ، وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مَعْجَزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، فَهُوَ أَيْضًا مَعْجَزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ، وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مَعْجَزٌ بِحَسَبِ أَسْلُوبِهِ، أَرَادُوا ذَلِكَ، إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ جَمْعَ مَفْسِّرِينَ مُعْرِضِينَ عَنِ هَذِهِ اللَّطَائِفِ غَيْرَ مُتَنَبِّهِينَ لِهَذِهِ الْأُمُورِ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا كَمَا قِيلَ: وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ رُؤْيَيْتَهُ وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ¹

كما تصدَّى ابن النقيب الحنفي في تفسيره لذكر المناسبات، وكذلك الشيخ محمد عبده رحمه الله كانت له عناية بعلم المناسبة في تفسير المنار، الذي جمعه وأتمه رشيد رضا، أما الأستاذ سيد قطب رحمه الله، فقد أبدع في إبراز ألوان من التناسق الفني في التصوير القرآني في كتابه: "في ظلال القرآن"، والتصوير الفني في القرآن"، وضارعه الشيخ مصطفى المراغي رحمه الله، في تفسيره.

أما الشيخ عبد الله محمد بن الصديق العُمَارِيّ، فقد أفرَدَ كتاباً خاصاً عن المناسبة، أسماه: "جواهر البيان في تناسب سور القرآن"². وكذلك الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله، تكلم عن هذا العلم وعن أهميته وفوائده في كتابه: "البيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن".

كما نُوقِشَتْ رسالة جامعية بعنوان: "التناسب البياني في القرآن، دراسة في النظم المعنوي والصوتي" للدكتور أحمد أبو زيد، وهي أطروحة دكتوراه الدولة، نُوقِشَتْ سنة 1990م، وطُبِعَتْها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب: 1992م.

وُوقِشَتْ رسالة أُخرى لِنَيْلِ الدكتوراه بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر، بعنوان: "المناسبات في ترتيب آيات القرآن وسوره"، للباحث د. محمد أحمد يوسف القاسم.

وقد كتب الدكتور عبد الحكيم الأنيس في نشأة علم المناسبات بحثاً مُحَكَّمًا نُشِرَ في "مجلة الأحمدية" التي كانت تصدر عن دار البحوث للدراسات الإسلامية، وإحياء التراث في دبي بالإمارات

¹ - تفسير الرازي: 140/4.

² - طبع ط: 1، بالقاهرة، والثانية بعالم الكتب، بيروت، عام: 1986م.

العربية المتحدة في العدد الحادي عشر، جمادى الأولى 1423هـ بعنوان: "أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية"، بَيَّنَّ فيه أقول العلماء في نشأة هذا العلم، وخالصَ إلى أن أبا بكر النيسابوري الذي نُسب إليه السُّبُق إلى علم المناسبة القرآنية، ليس هو السابق إليه، وعزاً الأخطاء الواقعة في نسبة هذا العلم إلى تصرُّف السيوطي في كلام أبي الحسن الشهرابي، وتسرع بعض المحققين في إصاق ترجمة بأبي بكر النيسابوري على سبيل الجزم من غير دليل¹.

كما سَطَّرَ الدكتور نور الدين عتر بحثاً في هذا الباب، بعنوان: "علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم"². واقتفى أثره الدكتور إبراهيم بن سليمان آل هوبل، إذ بيَّضَ بحثه الموسوم ب: "علم المناسبات بين المانع والمُجيزين"³.

ومن العلماء المُحدِّثين الذين بيَّنوا لطائف علم المناسبة ومزاياه الشيخ الزرقاني، إذ يقول: "إن القرآن تفرُّؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكُّك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرَّعة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نُظمت حروفه وكلماته، ونُسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوقاً لأوله، وبدا أوله موافقاً لآخره"⁴.

كما برع الأستاذ مصطفى صادق الرفاعي في وصف هذا العلم الجليل، قائلاً: "وبالجملة؛ فإن هذا الإعجاز في معاني القرآن وارتباطها أمر لا ريب فيه، وهو أبلغ في معناه الإلهي إذا انتهت إلى أن السور لم تتزل على هذا الترتيب، فكان الأخرى أن لا تلتئم وأن لا يناسب بعضها بعضاً، وأن تذهب آياتها في الخلاف كل مذهب، ولكنه روح من أمر الله تفرَّق معجزاً، فلمَّا اجتمع له إعجاز آخر، ليتذكَّر أولو الألباب"⁵.

¹ - ينظر المجلة الأهدية، عدد: 11، ص: 59-60.

² - نُشِرَ في مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق، العدد: 11/1416هـ-1995م.

³ - نُشِرَ في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: 25، المحرَّم 1420هـ.

⁴ - مناهل العرفان، لمحمد عبد العظيم الزرقاني: 53/1.

⁵ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرفاعي، ص: 244.

وقد أشاد الإمام عبد الحميد الفراهي بهذا العلم الماتع الضروري في قوله: "وربما يحطّ عندك قدر خطيب مصقع أتى بفنون من البلاغة، وأثر في النفوس بخلاصة، بيأنه لمحض أنه ذهل عن ربط الكلام فهام من وادٍ إلى وادٍ، مع أنه معذور؛ لأنه ألقى خطبته ارتجالاً ولم يُعْمَلْ فيها النظر والرويّة، وما مؤاخذاتك لذلك الخطيب إلا؛ لأن الكلام البليغ لا يحتمل سوء الترتيب، فإذا كان الأمر كذلك، أليس من الموقن بإعجاز القرآن أن يثبت حسن نظمه، وإحكام ترتيبيه، وتناسق آياته وسوره؟¹

المبحث الثالث: أقسام علم المناسبات.

لقد أولى المعاصرون من المهتمين بالدراسات القرآنية هذا الجانب عناية خاصة، وأبرزوا تلك الخصائص الجمالية التي تضمنها النص القرآني، سواء في جانب اللفظ والعبارة، أم في جانب النظم والتركيب، أم في جانب الصوت والإيقاع.

وقد سبقهم لهذا العمل المتقدمون وفي محاولة منهم للتأصيل لعلم المناسبات، وتقسيمه إلى فروع وأنواع، أحاطوا بكل ما يمكن الإحاطة به من تقسيمات وتصنيفات حسب ما آل إليه اجتهادهم وبحسب ما أملاه عليهم التطور العلمي في ما له علاقة بعلم المناسبات أو التناسب، من مثل علم النحو والصرف والبيان، ومفهوم النظم، حيث كان هذا الأمر شغل البلاغيين وأهل اللغة، وأصحاب القراءات، والمفسرين.. الخ.

فبعضهم حصر وجوه التناسب في النظم والشكل، وبعضهم أرجعه إلى النحو والبيان، وغيرهم يرى أنه رابط في المعنى والشكل معاً.. وقد يكون الترابط في السورة الواحدة، كما يكون بين سور القرآن كله، وعلى هذا الأساس قسموا أوجه التناسب، فكان كل تقسيم يختلف عن الآخر بحسب الاعتبارات التي ذكرنا.

اجتهادات بعض العلماء في تقسيم أوجه المناسبات:

أولاً: قدم أحد الباحثين -أحمد أبو زيد- بحثاً في كتاب ضمن منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم: (19)، سنة 1992م، هذا البحث أطروحة جامعية نوقشت بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة محمد الخامس في الرباط، ونال بها الباحث درجة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها بميزة حسن جداً.

¹ - دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، ص: 39.

تحت عنوان: "التناسب البياني في القرآن الكريم - دراسة في النظم المعنوي والصوتي"، حيث تعرض فيه صاحبه الى أنواع التناسب البياني في القرآن الكريم، فقسم الدراسة إلى:

القسم الأول: تناول فيه الباحث وجه التناسب المعنوي في القرآن، ويتجلى هذا الوجه في الجمع بين المعاني التي يوافق بعضها بعضاً، وإلحاق الشيء بنظيره، وأبرز مظاهر هذا الوجه يتجلى في وحدة السورة، ووحدة السورة تعني أن لكل سورة غرضاً محدداً وهدفاً واحداً، تتجه بكل معانيها ومبانيها إلى إيضاحه وإظهاره، وروحاً خاصاً تشترك المعاني والألفاظ والصور والأصوات في تكوينه، ونقل تأثيره.

وذكر الباحث أن استقراء جانب التناسب المعنوي في القرآن دل على أن المعاني القرآنية ترتبط في معظم القرآن بثلاث طرق من طرق التناسب، هي: التوافق، والتقابل، والتناسق.

القسم الثاني: من الدراسة فقد تناول التناسب اللفظي والصوتي والإيقاعي، وقد بين الباحث في أثناء التمهيد لدراسة هذا القسم أن التناسب في هذه الأوجه الثلاثة يتصل بمعرفة بعض خصائص اللغة العربية، كونها لغة مرنة قادرة على الوفاء بما يقتضيه مبدأ التناسب في الأوجه المذكورة، كما يتصل بإثبات أن جانباً من روعة القرآن يرجع إلى ما فيه من جمال صوتي وحلاوة إيقاعية.

كما نلاحظ أن الباحث اقتصر بحثه على نوع واحد من التناسب، ألا وهو التناسب البياني، خاصة وأن هذه الدراسة كانت في قسم الآداب واللغة مما يعني اقتصره على الجانب اللغوي فقط، وإن كانت اللغة هي الأساس الأول والاعتبار الأكبر في التفسير.

ثانياً: وهناك رسالة تحت عنوان: "في مناسبات سور في القرآن الكريم" - إعداد: محمد يعقوب بن الحاج يوسف - اشراف: أحمد إسماعيل نوفل - رسالة جامعية (ماجستير) - الجامعة الاردنية، 1992م. جاء فيها:

تمهيد: في علم المناسبة واتجاهات العلماء فيه مع فكرة تاريخية عن تطور التكليف فيه.

الباب الأول: التناسب الموضوعي.

الفصل الأول: التناسب الموضوعي في السورة الواحدة.

المبحث الأول: مناسبة فاتحة السورة لموضوعها

المبحث الثاني: مناسبة خاتمة السورة لموضوعها

المبحث الثالث: مناسبة قصص السورة لموضوعها

المبحث الرابع: مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها

القسم الأول: ظاهرة المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع و تحتم بنفسه.

القسم الثاني: خفاء المناسبة حيث تفتح السورة بالموضوع، و تحتم بغيره ولكن التناسب بينهما في الموضوع الآخر

الفصل الثاني: التناسب الموضوعي بين السورتين المتجاورتين

المبحث الأول: المناسبة الموضوعية بين السورة و التي قبلها

المبحث الثاني: المناسبة الموضوعية بين السورة و التي بعدها

الباب الثاني: التناسب البياني و الدعوي

الفصل الأول: التناسب البياني

المبحث الأول: التناسب البياني بين موضوع السورة و إطارها

المبحث الثاني: التناسب البياني في صياغة مفردات السور

المبحث الثالث: التناسب البياني بين المقسم به و المقسم عليه

المبحث الرابع: التناسب البياني في التفصيل بعد الإجمال

المبحث الخامس: التناسب البياني في التقابل

الفصل الثاني: التناسب الدعوي

المبحث الأول: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المكي

المبحث الثاني: التناسب الدعوي في موضوع القرآن المدني

المبحث الثالث: التناسب الدعوي بين السورة و جو نزولها

المبحث الرابع: التناسب الدعوي في المرحلية في الجهاد

الخاتمة في بيان أهم نتائجها، وقد قسم كل مبحث الى عدة مطالب.

ثالثاً: وقد سعى البقاعي في كتابه إلى إظهار علم التناسب، وبالغ في ذلك حتى أوجد لكل لفظة مناسبة،

وربط القرآن بعضه ببعض بطريقة فيها من التعسف ما فيها، فالآية التي لم يجد لها رابطاً لغوياً أو بلاغياً

ظاهراً كان يعمد إلى طرح سؤال متوقع من سائل وهمي، ثم يكون الرابط لديه جوابه عليه.

ومن الأمثلة المجلدة على تكلفه المناسبة للآي منهجه في طرقة المناسبة، ومن ذلك:

- بيانه مقصود كل سورة قبل الشروع في تفسيرها.

- تفسيره البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) تفسيراً يتناسب ومقصد كل سورة؛ ومعنى ذلك أنه

يفسر كل بسملة بطريقة تختلف عن البسملة في السور الأخرى.

1-التناسب بين الآية والتي قبلها مباشرة 2-التناسب بين الآية وما سبقها من الآيات 3-التناسب بين الآية وما بعدها من الايات بشكل عام 4-التناسب بين الآية وبداية كل سورة 5-تقسيم الآية الواحدة إلى قسمين، في الغالب، صدر وعجز ثم إيجاد المناسبة بين صدر الآية وعجزها، والعكس؛ بين ختام الآية وصدرها 6-التناسب بين جزء الآية؛ الصدر أو العجز وما قبلها من الآيات عموماً.

رابعاً: كما اجتهد السيوطي في تقسيم التناسب فقسم التناسب تقسيماً غير منهجي؛ فحوى كتابه كثيراً مما هو ليس من التناسب أصلاً، وهذا التقسيم الذي قسمه السيوطي كالآتي:

الوجه الأول: بيان مناسبات ترتيب سورهِ وحكمة وضع كل سورة منها.

الوجه الثاني: إن كل سورة شارحة لما أحمل في السورة التي قبلها.

الوجه الثالث: وجه اعتلاق فاتحة السورة وخاتمة التي قبلها.

الوجه الرابع: مناسبات مطلع السورة للمقصد الذي سيقته له؛ وتلك براءة الاستهلال

الوجه الخامس: مناسبات أوائل السور لخواتيمها.

الوجه السادس: مناسبات ترتيب آياته واعتلاق بعضها ببعض وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

الوجه السابع: بيان أساليبه في البلاغة وتنوع خطابه وسياقاته.

الوجه الثامن: بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها؛ كاستعارة والكناية والتعريض والالتفات والتورية والاستخدام واللف والنشر والطباق والمقابلة والمجاز بأنواعه والإيجاز والإطناب وغيرها

الوجه التاسع: بيان فواصل الآي ومناسبتها للآي التي ضمنت بها؛

الوجه العاشر: مناسبة أسماء السور.

الوجه الحادي عشر: بيان أوجه اختيار مرادفاته دون سائرهما.

الوجه الثاني عشر: بيان القراءات المختلفة مشهورها وشاذها وما تضمنته من المعاني والعلوم، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه.

الوجه الثالث عشر: بيان وجه تفاوت أوجه الآيات المتشابهة من القصص وغيرها بالزيادة والنقص والتقديم والتأخير وإبدال لفظة مكان أخرى ونحو ذلك.

ولعل القارئ لا يخفى عليه - في تقسيم الإمام السيوطي هذا - كثير من أنواع الخلل المنهجي التي

منها:

- 1- عدم وجود رابط منهجي جامع بين هذه الوجوه على اختلافها.
 - 2- إقحام كثير من الأنواع التي لا معنى لدخولها في هذا المضمار؛ نحو تنوع خطابات القرآن وسياقاته والمحسنات البديعية والقراءات ونحوها.
 - 3- إغفال كثير من الوجوه التي ذكرتها كتب البلاغيين ودارسي الإعجاز والمتكلمين والمفسرين وغيرهم ويمكن القول أن ما ذهب إليه السيوطي من إبراز أوجه الارتباط بين آيات وسور القرآن، إنما يصلح أن يكون تحت مسمى: "طرق التوصل إلى الكشف عن المناسبة".
- ولقد رأيت بعض التقسيمات الرائعة¹ في العصر الحديث لأوجه التناسب باعتبارات مختلفة، لكنني أحسب أنني سلكت طريقا بديعا في ترتيب وتصنيف أوجه المناسبة وضم فروعها تحت أقسام معينة في بحثي هذا محاولا بذل أقصى جهد في جمع شتات هذا العلم من هنا وهناك، وتقسيمه وتفريعه بطريقة تسهل الوصول إليه،... فانطلقت من الخاص إلى العام، ومن الدقيق إلى الجليل، لأنني آمنت أن التناسب في كتاب الله جزء لا يتجزأ من إعجازه، وكل نوع من أنواعه سببا في النوع الذي يليه، وممهدا له، فكان بهذا الاعتبار لا ينفك فرع عن أخيه، ولا يستغني قسم عن قسم.

¹ - مثل تقسيم الدكتور د. سامي عطا حسن: حيث قسم أوجه التناسب كالاتي: أولا: - المناسبة بين أجزاء الآية الواحدة: ويكون من حيث اللفظ أو المعنى.
ومن أنواع التناسب بين أجزاء الآية:
- مراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى والسياق، مع مراعاة الإنسجام في فواصل الآيات، لما لذلك من تأثير كبير على السمع، ووقع مؤثر في النفس..
ثانيا: - المناسبة بين الآيات:
أما ارتباط الآية بالآية، فينقسم إلى قسمين:
أين يظهر الارتباط، وأين لا يظهر.... كأن تكون الأولى تفسير للأخرى، أو تكون معطوفة أو أن تكون الثانية تأكيدا للأولى، أو تكون معترضة، بدل من الثانية أو غير ذلك.
ثالثا: التناسب بين السور وفيه أنواع أيضا. انظر: المناسبات بين الآيات والسور فوائدها .. وأنواعها.. وموقف العلماء منها، جامعة آل البيت.

فتناسبه الصوتي في حركاته قد مهدت له حروفه في الكلمة، وتناسب حروفه في الكلمة بسبب تناسب ألفاظه، وتناسب ألفاظه سببه موقعها في الجملة، ... وهكذا. وعليه بنيت هذا التقسيم مبتدأ بالفصل الأول الذي تناولت فيه إبراز جانب **النظم**، وفيه التناسب الشكلي وهو التناسب الصوتي، والتناسب الصرفي، والتناسب اللغوي، وفيه فروع أيضا، ثم التناسب المعنوي، وبعده التناسب الموضوعي، ثم مناسبات عامة وفيها عدة فروع أيضا. كما سأبينه في الباب الثالث من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

عبد القادر للعطوم الإسلامية

الفصل الثالث

الترتيب المصحفي والرد على الشبه الواردة فيه

المبحث الأول: الترتيب التزولي للقرآن الكريم.

معلوم أن القرآن الكريم قد كُتب في اللوح المحفوظ منذ الأزل، إلى أن أرادت مشيئة الله تعالى أن يكون آخر ما ينزل من كلام الله تعالى إلى الأرض، مع مجيء محمد رسول الله (ﷺ)، آخر نبي للبشر، فُقطع من اللوح المحفوظ في السماء السابعة، وأنزل جملة واحدة إلى بيت العزة في سماء الدنيا، في ليلة هي خير من ألف شهر في السابع والعشرين من شهر رمضان، ثم نزل بعد ذلك منجماً مفرقاً بحسب الوقائع والمناسبات في ثلاث وعشرين سنة¹ وكانت بداية نزوله يوم الاثنين عام ست مائة وعشرة ميلادي على رسول الله في غار حراء، وأول ما نزل منه قول تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾²، قال ابن عاشور: ونزل القرآن نجوماً بحسب أسباب النزول، التي تعتبر حوادث يُروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها، أو لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها، أو نحو ذلك³، وقد اهتم الصحابة رضي الله عنهم ببيان زمان، ومكان نزول الآيات، وأين؟ وبسبب ماذا؟ فقد كان ابن مسعود قلم الوحي يقول: «سلوني ما بدا لكم فما من آية نزلت إلا أعلم في من نزلت وأين نزلت»⁴، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «سألت أبي بن كعب عما نزل من القرآن بالمدينة فقال نزلت بها سبعة وعشرون سورة، وسائرهما بمكة»⁵، وقال ابن العربي في كتابه الناسخ والمنسوخ: «الذي علمناه على الجملة من القرآن أن منه مكيا ومدنيا، وسفريا وحضريا، وليليا ونهاريا، وسمائيا وأرضيا، وما بين السماء والأرض، وما نزل تحت الأرض في الغار»⁶، وكلما نزلت آيات إلا بادر الصحابة بكتابتها في موضعها بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو من عند أنفسهم، فلقد عاشوا زمان نزوله؛ فهم أعلم الناس به، وأضبطهم له من

1- أنظر مختصر ابن كثير، محمد علي الصابوني، قصر البليدة، دار الشهاب 1990، ج3، ص: 659.

2- سورة العلق، الآية: 1.

3- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1998م، المقدمة الخامسة، ج1، ص:

46

4- جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: فؤاد أحمد زمولي، دار الكتاب العربي، 2004م، بيروت، ص:

37.

5- المصدر نفسه، ص: 35.

1- الناسخ والمنسوخ لابن العربي.

ناحية ترتيبه، وتحصيله في الرقاع، وفي الصدور، ولقد اهتم العلماء بضوابط القرآن المكي والمدني، ومنهم من أفرده بمصنفات، وتتبعوا مواطن نزوله وترتيبه وزمن وروده¹... الخ.

وقد أورد السيوطي في الإتقان، والزركشي في البرهان ترتيب السور حسب زمن نزولها فكان أولها: إقرأ باسم ربك، ثم ن، ثم القلم، ثم المزمل، فالدثر، فالمسد، ثم سورة التكوير، ثم سبح، ثم الليل، ثم ألم نشرح لك، ثم سورة العصر، العاديات، الكوثر، أهاكم، الماعون، الكافرون، الفيل، الفلق، الناس، الصمد، النجم، عبس، الشمس، البروج، التين، يس، الفرقان، الملائكة، مريم، طه، الشعراء، النمل، القصص، الإسراء، يونس، هود، يوسف، الحجرات، الأنعام، الصافات، لقمان، سبأ، الزمر، الأحقاف، الذاريات، الغاشية، الكهف، النحل، ثم إبراهيم، الأنبياء، المؤمنون، السجدة، الطور، الملك، الحاقة، سال سائل، عم، والنازعات، الانفطار، الانشقاق، الروم، العنكبوت، المطففين، كل هذه بمكة.

ثم أنزل بعد الهجرة، البقرة والأنفال، آل عمران، الأحزاب، الممتحنة، النساء، الزلزلة، الحديد، محمد، الرعد، الرحمن، الإنسان، الطلاق، البينة، الحشر، النصر، النور، الحج، المنافقون، المجادلة، الحجرات، التحريم، الجمعة، التغابن، الصف، الفتح، المائدة، براءة، وهذا ما نزل بالمدينة².

واختلفوا في نزول الفاتحة، وويل للمطففين، فمنهم من قال بمكة، ومنهم من قال بالمدينة³.
ومن المواقف التي أعجبتني في هذا الصدد، موقف سيد قطب رحمه الله تعالى، حيث كانت لديه فكرة إمكانية ترتيب القرآن الكريم حسب زمن النزول، وتفسيره على هذا المنوال، لكنه تراجع عن ذلك في آخر الأمر، وهو بذلك يتفق مع جمهور العلماء من المفسرين، والباحثين في علوم القرآن، بأن ترتيب الآيات في السور ليس على أساس زمن النزول ولا مكانه، إنما هو ترتيب توقيفي؛ أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم أمر الصحابة بذلك فالتزموا بأمره في كتابتهم القرآن وجمعه.

1- منهم: مكي والعز الدبريني: وهو عبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الله الدبريني الشافعي، أبو محمد، ولد سنة 612هـ، وتوفي سنة 694هـ، من مؤلفاته: "المصباح المنير في علم التفسير"، و"طهارة القلوب" و"الخصوع لعلام الغيوب"، وغيرها. أنظر

شذرات الذهب، ج5، ص: 450، ومعجم المؤلفين، ج5، ص: 241

2- السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص: 38.

3- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص: 194.

ولقد جاء في كتاب المنهج الحركي لعبد الفتاح الخالدي: «أما ترتيب السور في المصحف فيبدو أن سيد قطب قد اقتنع بعد تجربته في عرضه للسور في كتابه "مشاهد القيامة في القرآن" حسب التزول، باستحالة الجزم بالترتيب على هذا الأساس، وبخطورة الآراء التي تنتج عن ذلك بمخالفة ذلك لاتفاق المسلمين منذ زمن عثمان إلى العصر الحديث»¹.

وفي ذلك يقول سيد قطب في تقديمه لسورة الأنفال: «إن الترتيب الزمني للتزول لا يمكن القطع فيه الآن بشيء - اللهم من ناحية أن هذا قرآن مكّي وهذا مدني على وجه الإجمال، على ما في هذا من خلافات قليلة- فأما الترتيب الزمني المقطوع به من ناحية زمن التزول، كل آية أو كل مجموعة من الآيات أو كل سورة فيكاد يكون متعدرا»²، بحيث لم تثبت فيه روايات وآثار صحيحة إلا نادرا، كما جاء على لسانه قوله: «ولا يكاد يجد الإنسان فيه اليوم شيئا مستيقنا إلا في آيات معدودات تتوافر بشأها الأحاديث، أو تقطع بشأها بعض الروايات...»³.

ورغم أن سيد قطب قد أبدى رأيه في أهمية هذا الترتيب، فإنه تمنى لو أن الصحابة نقلوه وأثبتوه لما له من أثر ودلالة حركية تربوية، ومنهجية، حيث يمكن تصور منهج الحركة الإسلامية، ومراحلها وخطواتها، ولأن قلة اليقين في هذا الترتيب تجعل الأمر شاقا، كما أنها تجعل النتائج التي يتوصل إليها تقريبية، وليست نهائية قطعية⁴.

وترتيب السور في القرآن إنما هو بتوقيف من الله تعالى على الرغم من نزول آيات السور في فترة زمنية طويلة، ولمناسبات، وأسباب، وملابسات شتى، فتزول الآيات شيء، وترتيبها في السور شيء آخر، ويستدل على ذلك ببعض الآثار والروايات... ويرى سيد قطب أيضا أن ترتيب السور ليس على أساس التزول إذ لا يعني وجود سورتين متواليتين في المصحف نزولهما متتابعين؛ بل بينها فترة زمنية متطاولة، وأصدق مثال على ذلك ما قاله عن سورة الفيل وقريش في حاشية تفسير السورة بأن: «..وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوّها، وإن كانت مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بينها وبين سورة الفيل تسع سور، ولكن ترتيبها في المصحف متواليتين يتفق

¹ - صلاح عبد الفتاح الخالدي، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار الشهاب، الجزائر، ج2، ص: 311.

² - سيد قطب، تفسير الظلال، الطبعة 10، دار الشروق، 1982م، القاهرة، ج3، ص: 1429.

³ - الخالدي، المنهج، (مصدر سابق)، ص: 312.

⁴ - سيد قطب، مقدمة الظلال.

مع موضوعهما القريب»¹، وما يقوله بعض العلماء السابقين في ترتيب سور القرآن حسب نزولها ليس يقينا، فإنهم يرتبون السور حسب نزولها، ومنهم الإمام محمد بن شهاب الدين الزهري² في كتابه: "تزييل القرآن".

ولما طبع المصحف في المطبعة الأميرية ببولاق مصر- أشاروا في التعريف بالسور إلى ترتيبها حسب النزول، الفاتحة نزلت بعد المدثر، وآل عمران بعد الأنفال، والنساء بعد الممتحنة، والمائدة بعد الفتح، والأنعام بعد الحجر في مكة وهكذا...³

ولو تتبعنا كل ما قاله العلماء في هذه المسألة لطال بنا المقام ولهذا اكتفينا بما قدمنا والله أعلم.

المبحث الثاني: إعجاز الترتيب التزوي للقرآن الكريم.

لقد أسلفنا الذكر عن الترتيب المصحفي، وقلنا أنه أمر توقيفي، ثم أردفنا الحديث بعده عن الترتيب التزوي، وأقررنا أنه لا يثبت فيه شيء إلا نزر قليل تعضده بعض الروايات كما قال سيد قطب، ولكن المتبع لهذا الأمر يرجح أن يكون للترتيب التزوي مقصدا قد روعي عند نزول القرآن، حيث كانت تنزل الآيات، والآيات، بل والسور لمقصد معين وغرض محدود يعالج أمرا قد استجد أو قضية قد طرأت أو سببا قد عرض.

ولعل الحكمة من نزول القرآن منجما طيلة ثلاث وعشرين سنة، أو أقل، أو تزيد قليلا ما هي إلا مراعاة للتدرج التشريعي والتربوي، وحاجة الناس الضرورية لفهم الدين وتدبر معانيه، والانتقيا إلى أوامره، خاصة أنه جاء في فترة عصيبة وبيئة أمية ليعالج أسقامها ويرأ أمراضها من الشرك وبرائن الجاهلية، حيث يفرغهم في بادئ الأمر من عقيدة الكفر ثم يشحنهم بعقيدة التوحيد ليجد الطريق ممهدا والقلوب جاهزة لحمل الشريعة وتطبيق مفرداتها من عبادة وحكم وأحكام.

ولعل السيدة عائشة رضي الله عنها قد ألفت الضوء على الغرض والمهدف من هذا التنجيم في الحديث الذي نقله البخاري في صحيحه حيث قال: "حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن

¹ - المصدر السابق، ج6، ص: 3183.

² - هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن الحارث بن عبد الله الزهري، الإمام العالم، أبو بكر القرشي المدني، نزيل الشام، روى عن ابن عمر، وجابر، وكان مولده سنة50 أو51هـ، وتوفي سنة124، وهو ابن72 سنة في17 رمضان منها، وكان موته بأدما بأعمال فلسطين. أنظر أعلام الموقعين.

³ - رسالتين لابن الأبار وابن تيمية في سلسلة رسائل ونصوص، رقم3، دار الكتب الجديدة، عام: 1963م.

جريح أخبرهم قال: وأخبرني يوسف بن ماهك قال: إني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، إذ جاءها عراقي فقال: أي الكفن خير؟ قالت: ويحك وما يضرك؟ قال: يا أم المؤمنين أرييني مصحفك، قالت: لم؟ قال: لعلي أولف القرآن عليه، فإنه يقرأ غير مؤلف قالت: وما يضرك أياه قرأت قبل؟ إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب: بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده، قال: فأخرجت له المصحف فأملت عليه آي السور¹.

وانظر إلى مراعاة نفوس المتلقين، واعتبار عادات الناس في التعامل، وأخذ بعين الاعتبار كل ما يُحتمل أن يكون عائقاً في وجه قبول وإدعان الناس للدين الجديد، ولهذا المنهج الرباني والطريق الإلهي للوصول عبره إلى القلوب والنفوذ إلى النفوس وتطهير الأرواح وتزكيتها.

ويقول الزركشي في البرهان متحدثاً عن الحكمة في ذلك: "وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سورته كلها وآياته بالتوقيف"²، ويقول الشيخ محمد عبد الله دراز: "إن كانت بعد تنزيلها جمعت عن تفريق فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بيان كان قائماً على قواعده فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه قدرت أبعاده ورقمت لبناته ثم فرقت أنقاضاً، فلم تلبث كالبنة أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوفاً يشد بعضه بعضاً كهيئته أول مرة"³، يعني نزوله مفرقا معجز وجمعه في المصحف معجز أيضاً.

ومن حكمة تنزيله مفرقا أي مرتبا حسب الحوادث والأسباب:

التحدي والإعجاز:

فالمشركون تمادوا في غيهم، وبالغوا في عتوهم، وكانوا يسألون أسئلة تعجيز وتحدي يمتحنون بها رسول الله في نبوته، فمن هنا كان من مقاصد تنزيل القرآن مفرقا الرد على شبهة المشركين أولاً بأول، ودحض

¹ - صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: تأليف القرآن، رقم: 4707.

² - انظر: البرهان، الزركشي، (مصدر سابق)، ج1، ص: 37.

³ - انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، ص: 57.

حجج المبطلين، إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾¹ ففي الآية بيان لحكمة نزول القرآن مفرقاً، وهو أن المشركين كلما جاءوا بمثل أو عرض شبهة ينزل القرآن بإبطال دعواهم وتفنيدهم، ودحض شبههم، ويشير إلى هذه الحكمة ما جاء ببعض الروايات في حديث ابن عباس عن نزول القرآن "فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً"²، مسابرة للحوادث المستجدة والنوازل الواقعة، فقد كان القرآن يتزل على الرسول صلى الله عليه وسلم لمواكبة الوقائع الجديدة وبيان أحكامها، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾³ فكثير من الآيات القرآنية نزلت على سبب أو أكثر، كقصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وحادثة الإفك، وغير ذلك من الآيات التي نزلت بيانا لحكم واقعة طارئه.

ولعل الحكمة أيضاً متعلقة بصاحب الرسالة يقول الله عز وجل في سورة الفرقان:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾⁴، وهذه من الشبه التي أوردتها الكفار؛ فقالوا: لماذا لم يتزل القرآن جملة واحدة بدلا من أن يتزل مفرقا سورة سورة وآية آية؟ فأجابهم الله عن سؤالهم بجواب مختصر:

أن نزول القرآن مفرقا إنما كان لأجل تثبيت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم فترة بعد فترة، لأن التثبيت بعد كل حين أقوى للإنسان من التثبيت مرة واحدة، وهذا يشهد له الواقع؛ فالنبات مثلا ينتفع بالمطر إذا نزل على فترات متفرقة في العام؛ فهذا أفضل للنبات من نزول الماء الكثير مرة واحدة كل سنة أو كل قرن! فرما يتلفه.

يؤكد هذا المعنى الإمام ابن جرير الطبري حين ينقل - عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله في الآية السابقة-: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾، قال: "كان الله يتزل عليه الآية، فإذا علمها نبي الله نزلت آية أخرى؛ ليعلمه الكتاب عن ظهر قلب، ويثبت به فؤاده"⁵.

¹ - سورة الفرقان، آية: 33.

² - والحديث أورده السيوطي في الاتقان وأخرجه ابن أبي حاتم من هذا الوجه وفي آخره: فكان المشركون إذا أحدثوا شيئاً أحدث الله لهم جواباً. والحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .

³ - سورة النحل، آية: 89.

⁴ - سورة الفرقان، آية: 32.

⁵ - تفسير الإمام الطبري، جامع البيان، ج 19 ص: 225.

وإتماماً للفائدة فقد ذكر الرازي في أسباباً أخرى تبين الحكمة من تنزيل القرآن مفروقاً؛ حيث قال: أحدها: أنه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة؛ فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه، ولجاز عليه الغلط والسهو.

وثانيها: أن من كان الكتاب عنده، فربما اعتمد على الكتاب وتساهل في الحفظ، فإله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة، بل كان يتزل عليه وظيفه، ليكون حفظه له أكمل؛ فيكون أبعد له عن المساهلة، وقلة التحصيل.

وثالثها: أنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق؛ لتزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك؛ أما لما نزل مفروقاً منجماً لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً؛ فكان تحملها أسهل.

ورابعها: أنه إذا شاهد جبريل حالاً بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته؛ فكان أقوى على أداء ما حمل، وعلى الصبر على عوارض النبوة، وعلى احتمال أذية قومه وعلى الجهاد.

وخامسها: أنه لما تم شرط الإعجاز فيه مع كونه منجماً ثبت كونه معجزاً، فإنه لو كان ذلك في مقدور البشر لوجب أن يأتوا بمثله منجماً مفروقاً.

وسادسها: كان القرآن يتزل بحسب أسئلتهم، والوقائع الواقعة لهم؛ فكانوا يزدادون بصيرة، لأن بسبب ذلك كان ينضم إلى الفصاحة الإخبار عن الغيوب.

وسابعها: أن القرآن لما نزل منجماً مفروقاً وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الأمر؛ فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن؛ فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى؛ فبهذا الطريق ثبت في فؤاده أن القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة.

وثامنها: أن السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه إلى الخلق منصب عظيم؛ فيحتمل أن يقال إنه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب على جبريل عليه السلام؛ فلما أنزله مفروقاً منجماً بقي ذلك المنصب العالي عليه؛ فلأجل ذلك جعله الله سبحانه وتعالى مفروقاً منجماً¹.

أما آية سورة الإسراء فيقول الله عز وجل فيها:

¹ - الرازي، مفاتيح الغيب، الشهرير بالتفسير الكبير، ج11، ص: 417.

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)¹، حيث قال السعدي في تفسيره²: أي: وأنزلنا هذا القرآن مفرقاً، فارقاً بين الهدى والضلال، والحق والباطل، ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه.

وفي تفسير أبي السعود³: ﴿وَقُرْآنًا﴾ منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾، وقرئ بالتشديد دلالة على كثرة نجومه ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾، على مهل وتثبّت؛ فإنه أيسر للحفظ وأعون على الفهم، وقرئ بالفتح، وهو لغة فيه ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة ويقع من الحوادث والوقائع.

أضف إلى ذلك لحكمة الدلالة القاطعة على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، وتيسير حفظه وفهمه، أليس ذلك برهاناً ساطعاً على أنه كلام خالق القوى والقدر ومالك الأسباب والمسببات ومدبر الخلق والكائنات وقيوم الأرض والسماوات العليم بما كان وما سيكون الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟!⁴.

المبحث الثالث: إعجاز الترتيب المصحفي للقرآن الكريم.

يختلف ترتيب القرآن الكريم في التزول عن ترتيبه في المصحف اختلافاً كبيراً، ومنشأ هذا الاختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين⁵.

وقد تحدثنا في المطلب السابق عن حكمة ذلك الترتيل المنجم خلال أكثر من عشرين عام، وسنتناول الآن مقصد الترتيب الذي عليه المصحف اليوم، وما سر توقيفية هذا الترتيب كما رجحنا سابقاً.

¹ - سورة الإسراء، آية: 106.

² - تفسير السعدي، ج. ١، ص: 468.

³ - تفسير أبي السعود، ج 4، ص: 230.

⁴ - مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني: دار الفكر - بيروت، ط 1996م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، (39/1) بتصرف.

⁵ - تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، تحقيق: أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط 1، 1986م، بيروت، لبنان، المقدمة،

لم تسمع الجن والإنس كلاماً أنزل إلى الأرض مثل القرآن، ولم يتصور أحد من العلماء والباحثين مدى دقة هذا الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، حتى في عصر التطور والتكنولوجيا، وإن دل ذلك إنما يدل على إعجاز وإحكام هذا الكلام من جميع جوانبه، قال الله تعالى على لسان مؤمن الجن: ﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾¹، وقال تعالى: ﴿آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾²، وقال تبارك وتعالى أيضاً: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾³، فتحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثل ما جاء به القرآن، بل وقد أكد عدم استطاعتهم له.

وقد تحدث العلماء وتوسعوا في قضية الإعجاز وذكروا جوانب عديدة منه، وفصلوا فيها تفصيلاً يصل لحد التواتر، ولدرجة الشهرة، وتوجه العلماء إلى بيان أساليب العرب في الكلام في شعرهم وخطبهم وكلامهم المنثور، ودراسة بعض النماذج دراسة بلاغية، ثم مقارنتها بما ورد في القرآن الكريم؛ لإثبات أنه نوع فريد متميز يفوق كل ما عدها، وقاموا أيضاً بدراسة نماذج من الآيات الكريمة، وبيان طريقة نظم الألفاظ، واختيار الكلمات للدلالة على المعاني الجليلة، فكان أول من دون في بلاغة القرآن الفراء وأبو عبيدة في كتابيهما: معاني القرآن، ومجاز القرآن، ثم جاء القرن الثالث الهجري فألف الجاحظ كتاب نظم القرآن وهو مفقود، ولكن وصلنا منه نقل كثير، كما ظهر كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، الذي تناول فيه بعض القضايا البلاغية، وأشار إلى أن لغة العرب أكثرها مجاز، وفي القرن الرابع الهجري ظهر كتاب بيان إعجاز القرآن للخطابي، وركز فيه على الجانب البياني من القرآن، وأشار إلى ما يتميز به القرآن من الفخامة والعدوبة، كما حدد وجهها جديداً يتصل بالعامل النفسي الوجداني، فحين يطرق الأسماع يصل إلى القلوب فتأنس بما له من لذة وحلاوة، ومن هنا كان إسلام عدد من كبار قريش أو عامة الناس، وظهر أيضاً كتاب النكت في إعجاز القرآن للرماني، وتحدث فيه عن الإيجاز، ليأتي القرن الخامس الهجري أين ظهر في مطلع كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، الذي ناقش الآراء المخالفة ورد عليها، وأكد على أهمية البحث في إعجاز القرآن لأن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مبنية على دلالة معجزة القرآن وحدد إعجاز القرآن بما فيه من البديع، وقد أجمل وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة هي

¹ - سورة الجن، آية: 01.

² - سورة البقرة، آية: 01.

³ - سورة الاسراء، آية: 88.

الإخبار عن الغيوب، والإنباء عن قصص الأولين، وبراعة النظم والتأليف والرصف¹، وفي هذا القرن أيضاً ظهر الإمام عبد القاهر الجرجاني صاحب الكتابين الشهيرين: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، حيث قال إن سر إعجاز القرآن كامن في نظمه، وأن النظم هو توحي معاني النحو، فركز على المعنى، وبذل جهداً كبيراً في كتابه لتبيين هذه النظرية، ورد آراء القائلين أن الإعجاز في الغيبات، أو خفة الحروف، أو اللفظ وحده، أو المعنى، أو الإيقاع، وفي القرن السادس الهجري ظهر كتاب الكشاف عن غوامض آي التزليل للزمخشري، وهو في التفسير البياني للقرآن، ووضح فيه تطبيقاً أمثلة لما سماه الجرجاني بالنظم.

المبحث الرابع: شبه والرد عليها في الترتيب المصحفي

المطلب الأول: شبه في كلمات وآيات القرآن الكريم

وقد كتب الدكتور عبد الرحيم الشريف مقالا بتاريخ 26/10/2010م، تحت عنوان: "شبهة عدم تناسب الكلمات والآيات في القرآن الكريم" بحسب الترتيب الحالي (المصحفي) جاء فيه:
من الشبهات الواردة: الطعن في الإعجاز القرآني من خلال زعم عدم تناسب آيات القرآن الكريم، ومما ورد إلى الموقع من استفسارات في ذلك..

أولاً: تناسب الكلمات:

1. جاء في صفحة (هل القرآن معصوم؟) تحت عنوان "خلط الأسماء":

"جاء في سورة الأنعام 84-86 ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

ونحن نسأل: كيف صُفّت هذه الأسماء بلا نظام ولا ترتيب، بما فيها من تقديم وتأخير يدعو للتشويش والخلط؟ فما الداعي لذكر داود وسليمان قبل أيوب ويوسف وموسى وهرون؟ وما الداعي لذكر زكريا ويحيى وعيسى قبل إيلياس؟ وما الداعي لذكر إسماعيل بعد إسحق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى وإيلياس؟ وما الداعي لذكر أليسع ويونس قبل لوط؟ مع أن الترتيب التاريخي معروف قبل القرآن بمئات السنين، وهو: أيوب في بلاد عوص، وإبراهيم وابن أخيه لوط وابناه إسماعيل وإسحاق وحفيده يعقوب وابن حفيده يوسف، ومن بعدهم موسى وهرون.

¹ - تعني: البديع.

ومن بعدهم داود وسليمان ابنه. ومن بعدهما إلياس وأليشع تلميذه. ومن بعدهما يونس. هؤلاء كلهم في العهد القديم، ومن بعدهم زكريا ويحيى وعيسى في العهد الجديد! ".
دحض هذه الشبهة:

لا يمكن الاعتماد على التاريخ المذكور في كتابهم المقدس؛ لتناقضه وتحريفه ومخالفته للحقائق التاريخية المتفق عليها، بل القرآن الكريم هو المهيمن تاريخياً عليه، كما سبق بيانه، ولم تصرح الآية الكريمة بالتزام الترتيب التاريخي في ترتيب الأسماء الواردة أعلاه، فالواو العاطفة لا تفيد الترتيب¹.
وقد اجتهد بعض العلماء في توجيه ترتيب الأسماء بما يلي²:
الآية التي سبقت ما استشهد به، قوله تعالى: " وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ "

فتلك الحجة في إظهار التوحيد لله تعالى والذب عنها، نعمة أنعم بها الله تعالى بها على إبراهيم. ومن نعمه عليه أيضاً أن جعل في ذريته النبوة، التي أغلبها من سلالة إسحق ويعقوب.
وقدم ذكر إسحق على إسماعيل؛ لأنه أظهر في الامتنان، حيث رزقه إياه بعد الكبر، وتمتع برؤيته ولم يفارقه.. ومن ذريته خرج القوم الموحدون الذين نشروا الإسلام الذي كان يدعوا إليه.
ثم ذكر نوحاً كي لا يظن ظان أن الهداية محصورة في أبناء إبراهيم فقط دون غيرهم، فأعاد الأذهان إلى مَنْ هدى الله تعالى مِنْ أقوام سبقوا بني إسرائيل.

¹ - قال صلاح الدين كيلكدي في كتابه: " الفصول المفيدة في الواو المزيدة "، ص 68: " الواو العاطفة تفيد مطلق الجمع، من غير إشعار بخصوصية المعية أو الترتيب، ومعنى ذلك: أنها تدل على التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه في الحكم الذي أسند إليهما، من غير أن يدل على أنهما معاً بالزمان، أو أن أحدهما قبل الآخر. ولا ينافي هذا احتمال أن يكون ذلك وقع منهما معاً، أو مرتباً على حسب ما ذكرا به - أو على عكسه - ولا يفهم شيء من ذلك، من مجرد الواو العاطفة. وهذا قول الجمهور من أئمة العربية، والأصول، والفقهاء ".
² - انظر: نظم الدرر، البقاعي 663/2-669، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا 487-484/7. وقد اعتمدا على

الإسرائيليات التي لا تخالف ديننا؛ لإضافة تفاصيل عن حياة بعض الأنبياء، ممن لا تفصيل لقصصهم في الصحيح المأثور.

وفصل بين نوح وباقي الأنبياء بالجار والمجرور، إشارة إلى تراخي زمانه عن زمان من بعده. ثم جمع بين الأنبياء الكرام (نبيين نبيين) للرباط بينهما:

فثنى — بعد إبراهيم — بذكر داود وسليمان؛ لأنهما رفعا قواعد المسجد الأقصى، وتكفلا بعمارته. كما رفع إبراهيم وإسماعيل¹ قواعد البيت الحرام.. وهما متوافقان في أنهما جمعا بين الملك والنبوة. ثم أيوب ويوسف وكلاهما كان آية في الصبر، وكلاهما عانا من فراق الأهل. ويجمع بين الأربعة (داود وسليمان وأيوب ويوسف) أن كلا منهم ابتلي فصبر، ثم اغتنى وشكر، ورفع شأنه بين الناس.

ثم بعد ذكر يوسف الذي أعز الله تعالى شأنه في مصر، ذكر موسى وهارون اللذين أرسلنا إلى مصر، ولكنهما تسلطا على الحاكم فكانا سبباً في قتله.

ثم ذكر زكريا ويحيى، وكلاهما تسلط عليه الحاكم فقتله.

ثم ذكر عيسى واليسع، وكلاهما حاول الحكام قتلتهما، ولكن الله تعالى أنجاهما.

ثم ذكر إسماعيل واليسع اللذين لم يكن بينهما وبين الحكام أمر، وكان إسماعيل سبباً في عمارة المسجد الحرام، واليسع سبباً في عمارة المسجد الأقصى، كما هدى الله تعالى قومهما بلا عذاب.

ثم ذكر يونس ولوطاً وكل هلك طائفة من قومه بعذاب.. وختم بهما؛ لكونهما ليسا من ذرية إبراهيم — صلى الله وسلم عليهم أجمعين —.

والراجح: أن الترتيب لم يأت حسب الزمن والفضل والحصر؛ لانصراف الذهن إلى أن جميع الأنبياء في شتى العصور، مهما كان فضلهم، أياً كان قومهم.. كانوا على دين واحد، هو دين الإسلام.²

وكل ذلك لمزيد التأكيد على ربانية القرآن الكريم، وأنه ينفرد بكونه يحمل معه إعجازه، وردّه على الشبهات المثارة حوله أيضاً؛ فهذا الترتيب للأنبياء الكرام، حجة على مدّعي تلفيق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم عن الكتب السابقة، وما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليعرض نفسه للنقد بلا داعٍ إن خالف ما تعلمه على يد معلميه المزعومين، أو اطلع عليه من الكتب، في ترتيب أنبياء بني إسرائيل.. وما أيسر ترتيبهم زمنياً لو كان له يد في ذلك.

¹ — لم يُذكر إسماعيل مع إبراهيم للتوافق بينه وبين إيسع — عليهم السلام — كما سيتبين.

² — انظر: الكاشف، محمد جواد مغنية، ج 218/3.

كل هذا يضيف مزيداً من الأدلة، على أن أي شبهة حول القرآن الكريم لن تزيده إلا رسوخاً، وإعجازه بياناً.. وسبحان الله العظيم!

2. وجاء في صفحة (قراءة نقدية) ثلاثة مواضع زعمَ عدم مناسبتها مع كلماتها في الآيات الكريمة: "ونجد في القرآن آيات لا يمت نصفها الأول إلى نصفها الثاني بأي علاقة، فمثلا الآية الثالثة من سورة النساء: ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾. [النساء: 3] فما علاقة القسط في اليتامى وزواج ثلاث أو أربع زوجات؟ يقول القرطبي¹ إن خفتن ألا تعدلوا في مهور اليتامى وفي النفقة عليهن، فانكحوا ما طاب لكم غيرهن.. وربما سهواً كتب الشخص الذي كان يجمع القرآن ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾، وقد يكون النصف الثاني من الآية سقط سهواً أثناء جمع القرآن، أو أسقط كما أسقطت آيات كثيرة ذكرناها سابقاً.

وفي سورة فاطر، الآية [الثامنة] ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾، فبداية الآية تسأل: ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾، فالإنسان يتوقع أن يجد مقارنة مع شخص آخر مثلاً، " كمن اهتدى"، ولكن بدل المقارنة نجد ﴿فإن الله يضل من يشاء﴾، لا علاقة البتة بين بداية الآية وبقيتها، وقد قال القرطبي «هذا كلام عربي طريف لا يعرفه الا القليل»²، والقرآن لم يتزل للقليل وبعض الآيات بها جمل اعتراضية لا تزيد في المعنى وليس لها أي سبب يجعلها تدخل في الآية، فمثلا في سورة الانعام الآية: 151 ﴿قل تعالوا أتلو عليكم ما [الصواب: أتل ما] حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق﴾، فالآية كلها تتكلم عن الأشياء التي نهانا عنها الله، ولكن في وسطها نجد ﴿وبالوالدين إحساناً﴾، وواضح أن هذه ليست من المحرمات وإنما زوج بها هنا سهواً، فلم يحرم الله الرفق بالوالدين".
دحض هذه الشبهة:

¹ - في الجامع لأحكام القرآن، ج 15/5 وما بعدها.

² - في الجامع لأحكام القرآن 234/14. وهذا حث على طلب العلم وتدبر القرآن الكريم، فبتدبره تظهر معجزته.

هذا من الأدلة على أن القرآن الكريم ليس بكلام بشر، وأن ما فيه من نظم بديع أعجزهم. وبيان ذلك كما يلي:

أ- آية سورة النساء: لو خطب ولي أمر اليتيمة اليتيمة (لنفسه أو لابنه)، لكان الخاطب والولي واحد. والمعلوم أن الولي يجدد المهر، فحتى لا يكون غبن للمرأة في تحديد مهرها — وهي بطبعها خجولة وخاصة أمام ولي نعمتها — نَبَّه القرآن الكريم الوليَّ إلى اختيار غيرها، فالمباح له — أو لِمَنْ يتولى أمره من الذكور — من النساء من غيرها كثير مثنى وثلاث ورباع¹.

فكيف إن كانت اليتيمة غنية؟

إن الآية الكريمة تحث على قطع طمع الولي بمال اليتيمة، سواء كان مما ورثته، أو مهرها الواجب لها شرعاً.

ب- آية سورة فاطر: من البلاغة طويُّ ذكر المعلوم بداهة، ولفت النظر إلى ما بعده من الأهم منه؛ ليكون أرفعى لسمعه، وفي هذا الموضع "طوى المشبه به، وهو كمن أبصر الأمور على حقيقتها فاتبع الحسن واجتنب السيئ؛ لأن المقام يهدي إليه، وتعجلاً بكشف ما أشكل على السامع، من السبب الحامل على رؤية القبيح مليحاً"².

ج- آية سورة الأنعام: المقصود: والثاني مما أتلوا عليكم — أو مما وصاكم به ربكم — أن تحسنوا بالوالدين، وهذا التعبير يشمل الوصول إلى غاية الإحسان، ويقتضي ترك الإساءة — وإن صغرت.. — فحقوق الوالدين مقدمة على سائر الحقوق، والإساءة إليهما مقدمة على سائر الإساءات؛ ولهذا

¹ - قال الشوكاني في فتح القدير 76/2: "وجه ارتباط الجزاء بالشرط: أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها، فلا يقسط لها في مهرها — أي: يعدل فيه — ويعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج. فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا بمن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهن من النساء سواهن".

وسبب نزول الآية الكريمة يزيد الأمر بياناً، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "أن رجلاً كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عذق، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء، فنزلت فيه: "وإن خفتن أن لا تُقسطوا في البتامة". رواه البخاري في تفسير القرآن باب وإن خفتن ألا تقسطوا.. (4573). وانظر الحديث الذي رواه مسلم في التفسير (3018).

² - نظم الدرر، البقاعي 206/6.

ناسب التعبير بذلك الأمر الواجب، في سياق كبائر المحرمات، للإيدان بأن الإساءة إليهما ليس من شأنه أن يقع — إلا خلاف الفطرة السليمة — واحتاج التنبيه عليه في مقام إيجاز¹.
كما أن الإيجاز في ذكر مضار سم الأفعى بلاغة، بينما الإطناب في ذكر مضار التدخين — للمدخن الشاك — بلاغة؛ لأن الأول ظاهر معلوم، والفطرة والعادة تؤيده، مهما اختلفت ثقافة الناس ومداركهم.
ثانياً: تناسب الآيات:

من الشبه أيضاً قولهم: "وهناك سور من الواضح جداً أنها أدخلت عليها بعض الاضافات، سواء أُدخلت هذه الاضافات عندما جمع زيد بن ثابت القرآن، أم بعد ذلك، فمن الصعب أن نجزم بذلك، ولكن المهم أن هذه السور توضح لنا أن القرآن لم يُكتب كما قرأه محمد على أصحابه. فمثلاً سورة المدثر تتكون من آيات قصيرة مسجوعة على الراء، ولكن الآية 31 في منتصفها لا تنسجم مع طول آيات ولو أنها تنسجم مع السجع: 1- " 2- " قم فأنذر " 3- " وربك فكبر " 4- " وثيابك فطهر " 5- " والرجز فأهجر " 31- ﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقنوا الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يُضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا و [الصواب: هو] وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ 32- ﴿كلا والقمر﴾ 33- ﴿والليل إذا أدبر﴾ 34- ﴿والصبح إذا أسفر﴾.

من الواضح جداً أن الآية 31 لا تنسجم مع بقية الآيات وأنها أُضيفت إليها لاحقاً، وهذا دليل قاطع على أن القرآن أُدخلت فيه آيات لم تكن أصلاً من السور وحذفت آيات أُخريات، مما يجعلنا نقول أن القرآن الذي بين أيدينا ليس هو القرآن الذي قاله محمد حرفياً...

دحض هذه الشبهة:

1. آية المدثر: مناسبة تماماً لما قبلها، فهي تبدأ بتقرير حقيقة الملائكة الذين يماري بعددهم ويتندر بقلته الكافرون، زاعمين أنهم قادرون عليهم².

¹ - انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا 162/8.

² - قال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، ص 1786: "قيل إن أبا الأشدين — واسمه كلدان بن أسيد بن خلف — قال: يا معشر قريش، اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر — إعجاباً منه بنفسه —"

قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَاحٍ لِّبَشَرٍ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (31)﴾.

ولاحظ تناسب الآية الكريمة بما بعدها.. " كَلَّا وَالْقَمَرَ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَلِإِحْدَى الْكُبْرَى (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) ". ربط حقيقة الآخرة الغيبية، بحقيقة كونية مشهودة تمر على البشر الغافلين، مدللة على قدرة الله تعالى التي ليس كمثلهما قدرة.¹

المطلب الثاني: شبهة إعادة ترتيب القرآن حسب التزول.

دعى بعض المتأخرين إلى إعادة النظر في ترتيب القرآن الكريم حسب التزول لما له من فوائد تعليمية وتربوية في التدرج في الأحكام على خلاف الترتيب الحالي -المصحفي- الذي لم يراعى فيه هذا المقصد وبالتالي فوت خيرا كثيرا على الأمة، كما أن هذا الترتيب يبلبل الأفكار فلا تكن منسجمة مرتبة، وعليه إعادة النظر في ترتيبه أمر مستحب ووارد، ومن الذين ادعوا هذه الدعوى يوسف راشد، ومحمد عزت دروزة الذي أنجز تفسيراً على الترتيب التزولي، وكذلك عائشة بنت عبد الرحمن، معززين رأيهم بأن: «التفسير ليس مصحفاً مرتلاً، وإنما هو عمل فني مستقل ليس له علاقة بقدسية ترتيب المصحف»².

وقول أبو اليسر عابدين: «ليس التفسير بقرآن يُتلى، حتى يُراع فيه ترتيب الآيات، والسور، فقد يمكن للمفسر أن يفسر آية، ثم يترك ما بجانبها لظهور معناها، وقد يفسر سورة، ثم يترك ما بعدها اعتماداً على فهم التالي، ولا مانع من تأليف تفسير على الشكل المذكور، والله أعلم».

وقول عبدالفتاح أبو غدة، جاء فيها: «إن شبهة المنع لهذه الطريقة، آتية من جهة أنها طريقة تخالف ما عليه المصحف الشريف، ودفعها أن المنع يثبت فيما فيها لو كان هذا الصنيع سلوكاً من أجل أن يكون هذا الترتيب مصحفاً للتلاوة... ويستأنس لسواغية هذه الطريقة بما سلكه أجلة من علماء

¹ - انظر: نظم الدرر، البقاعي 231/8. وفي ظلال القرآن، سيد قطب 3760/6.

² - عزت دروزة، التفسير الحديث، دار إحياء الكتب العربية، ط 1962م، مصر، المقدمة: ص: 9.

الأمة المشهود لهم بالإمامة والقدوة من المتقدمين في تأليفهم، ولم يعلم أن أحدا أنكر عليهم ما صنعوا»¹.
 - قال محمد بن سيرين² لعكرمة³ أيام الجمع الأول للقرآن: «ألفوه كما أنزل الأول فالأول، فقال
 عكرمة: لو اجتمع الإنس والجن على أن يألفوه ذلك التأليف ما استطاعوا»⁴، وقد ألف الصحابة
 مصاحف خاصة بهم، مرتبة ترتيبات مختلفة، ومحشوة بالقراءات الشاذة، وبعض التفسيرات، ولكن
 سرعان ما عادت الأمة، واجتمعت على مصحف واحد، ضاربة بعرض الحائط كل ما خالفه في شاردة
 أو واردة، وتم حرق المصاحف الأخرى، وانتهى الأمر على ذلك، وأذعن كل الناس لمصحف عثمان،
 واعتمدوه دون أي اعتراض.

- كما أن تفسير بعض العلماء⁵ لبعض أجزاء القرآن ليس دعوة إلى إعادة ترتيب المصحف.

ولقد رد على هذه الشبهة الدكتور عبد الله دراز في كلمتين بعد نقل قول أصحاب هذه الشبهة، فقال:
 «...إن ترتيب القرآن في وضعه الحالي يبلبل الأفكار، ويضيع الفائدة من تنزيل القرآن، لأنه يخالف منهج
 التدرج التشريعي، الذي روعي في النزول، ويفسد نظام التسلسل الطبيعي للفكرة، لأن القارئ إذا انتقل
 من سورة مكية إلى سورة مدنية، اصطدم صدمة عنيفة، وانتقل بدون تمهيد، إلى جو

¹ - عزت دروزة، مقدمة التفسير: ص: 711.

² - هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري، ولد سنة (33هـ/653م)، فعمل بها جزارا، وكان في أذنه صمم، مع ذلك تفقه
 ودرس الحديث، وكان من المحدثين التابعين المشهورين، وقد عاصر حسن البصري، واشتهر بتعبير الرؤيا، وحجة في تفسير
 الأحلام.

³ - هو عكرمة الخبر العالم أبو عبد الله البربري، ثم المدني الهاشمي، مولى بن عباس، روى عن مولاة، وعن عائشة، وعن أبي هريرة،
 وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وغيرهم، وحدث عنه خلق كبير، منهم أيوب، وأبو بشر، وعاصم الأحول، وثور بن زيد، وخالد
 الحذاء، قال ابن خالد: «إذا قدم عكرمة البصرة أمسك الحسن عن الفتيا والتفسير» توفي سنة 107هـ بالمدينة، أنظر تذكرة
 الحفاظ، للذهبي، ج1، ص: 95.

⁴ - السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص: 155

⁵ - من القدماء ابن تيمية، وهشام الكلبي، ومن المحدثين: محمد عبده، وعبد الحميد بن باديس، والدكتورة بنت الشاطي،
 والمرآغي، وأبو الأعلى المودودي، وأمين الخولي، ومحمد عزت دروزة، وأسعد أحمد علي وغيرهم.

غريب عن الجو الذي كان فيه، وصار كذلك ينتقل من درس في الحروف الأبجدية إلى درس في البلاغة...¹

ثم انتقل إلى تفنيد هذا القول: بأن الوضع الحالي للسور محل بحكمة تدرج التشريع، فقد ضرب الدكتور دراز مثلا ماديا لذلك، بجلب سلعا لبناء بيتا لا يبالي بأن يشتري أجزاء العرش والسقف قبل الأسس والجدران، متتبعا في ذلك فرصة توفر الثمن وتوفر تلك السلعة في السوق، ثم بنا بيته، أكان ذلك مخلا بهندسة ذلك البيت، وبالقياسات التي وضعها المهندس؟؟ كذلك كان القرآن الكريم يتزل بحسب الوقائع، ثم رتب حسب ذلك التصميم الذي أراده الله تعالى له فكان منسجما متكاملا آخذا بعين الاعتبار التدرج في التعليم والفهم، والانتقال من جو إلى جو تدريجيا، إما تصاعديا أو تنازليا، حسبما تقتضيه الضرورة...² .³

فلقد رتب القرآن الكريم على تمط فريد من نوعه، وعلى هندسة متقنة أرادها الله تعالى، فهو باب من أبواب إعجازه كما أسلفنا، وقد جاء هذا المعنى في كثير من الآثار نذكر منها:
- قال محمد بن سيرين⁴ لعكرمة⁵ أيام الجمع الأول للقرآن: «ألفوه كما أنزل الأول فالأول، فقال عكرمة: لو اجتمع الإنس والجن على أن يألفوه ذلك التأليف ما استطاعوا»⁶، وقد ألف الصحابة

¹ مقال النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله، عبد الله دراز، مجلة الأزهر، رئيس التحرير: محمد فريد وجدي بك، تحت إدارة ديوان الإدارة للأزهر، والمعاهد الدينية، بالقاهرة، مطبعة الأزهر 1950م، المجلد 22، ص: 784.

² عبد الله دراز: حصاد قلم، تحقيق، أحمد مصطفى فضيلة، تقديم عبد الستار فتح الله سعيد، دار القلم، 2000م، القاهرة: ص: 45 وما بعدها.

³ ينظر أيضا مقال للباحث، مجلة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، العدد 32، سنة 2013-2014م.

⁴ هو محمد بن سيرين البصري الأنصاري، ولد سنة (33هـ/653م)، فعمل بها جزارا، وكان في أدنه صمم، مع ذلك تفقه ودرس الحديث، وكان من المحدثين التابعين المشهورين، وقد عاصر حسن البصري، واشتهر بتعبير الرؤيا، وحجة في تفسير الأحلام.

⁵ هو عكرمة الخير العالم أبو عبد الله البربري، ثم المدني الهاشمي، مولى بن عباس، روى عن مولاة، وعن عائشة، وعن أبي هريرة، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد، وغيرهم، وحدث عنه خلق كبير، منهم أيوب، وأبو بشر، وعاصم الأحول، وثور بن زيد، وخالد الحذاء، قال ابن خالد: «إذا قدم عكرمة البصرة أمسك الحسن عن الفتيا والتفسير» توفي سنة 107هـ بالمدينة، أنظر تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج1، ص: 95.

⁶ السيوطي، الإتقان، (مصدر سابق)، ص: 155

مصاحف خاصة بهم، مرتبة ترتيبات مختلفة، ومحشوة بالقراءات الشاذة، وبعض التفسيرات، ولكن سرعان ما عادت الأمة، واجتمعت على مصحف واحد، ضاربة بعرض الحائط كل ما خالفه في شاردة أو واردة، وتم حرق المصاحف الأخرى، وانتهى الأمر على ذلك، وأذعن كل الناس لمصحف عثمان، واعتمده دون أي اعتراض.

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الباب الثالث

التجديد في العملية التفسيرية بتطبيق
علم المناسبات القرآنية

الفصل الأول

التناسب في النظم.

جامعة الأمير

عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة الفصل: النظم هو الجمع والضم والاتساق ونقول: النظام والتأليف، قال ابن منظور: "النظم: التأليف، نظمته نظماً ونظاماً ونظمه فانتظم وتنظّم، ونظمتُ اللؤلؤ، أي: جمعته في السلك، والتنظيم مثله، ومنه نظمت الشعر ونظّمته، ونظم الأمر على المثل، وكل شئ قرنته بآخر، أو ضممت بعضه إلى بعض قد نظّمته، والانتظام والاتساق"¹ والنظم عند الفيروز آبادي: هو التأليف، وضم شي إلى شيء آخر، ونظم اللؤلؤ ينظمه نظماً ونظاماً ونظمه: ألقه وجمعه في سلك فانتظم..."².

ولقد ارتبط مفهوم النظم بقضية الإعجاز عند المتقدمين، وكان معروفاً عند اللغويين والبلاغيين، مثل سيبويه (180هـ)، الذي أشار إلى النظم بكلمة: "التأليف"³، ومثل الجاحظ (255هـ) صاحب الكتاب المفقود: "نظم القرآن" الذي ذكره في كتابه: "الحيوان"، والذي فرّق فيه بين النظم القرآني ونظم الكلام، وتحدث عن اللفظة المفردة، واشترط فيها أن تكون خالية من تنافر الحروف، جارية على ألسنة العرب، ومهيكله قواعدياً⁴، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (209هـ) عندما ناقش مجاز القرآن، لكنه لم يحدد معالم تحديد هذا النظم،⁵ وابن قتيبة (276هـ)، والمبرد (286)، والرماني (384هـ)، والباقلاني (403هـ)، .. وغيرهم⁶، حيث كان مفهوماً عاماً غير متميز عن الجوانب الأخرى للغة والمتمثلة في "المجاز" أي الجانب الخيالي في اللغة، و"البديع" الذي يمثل الجانب الجمالي الشكلي في اللغة. ولكنه لم يكن مطروحا كنظرية لها قواعد يمكن تطبيقها للتوصل إلى التعبير الصحيح عن المعنى، إلا أن جاء الجرجاني (716هـ)، فأتضحت معالم نظرية النظم، حيث انتقد سابقيه ممن تكلموا في الإعجاز

¹ - ابن منظور: لسان العرب، طبع دار المعارف، ج: 6، ص: 4469 مادة نظم.

² - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، نشر مؤسسة الرسالة، ط2، مادة نظم ص: 1500.

³ - د. صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، ص: 95.

⁴ - أبو عثمان بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت، دار الجيل، ج1، ص: 12.

⁵ - عبد العزيز بن المعطي عرفة، تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، ط1، القاهرة، سنة: 1983م، دار الطباعة الحمديّة، ص: 30.

⁶ - مثل: الخطابي (388هـ)، وأبو هلال العسكري (395هـ)، في كتابه: "الصناعتين"، والباقلاني (403هـ)، والأسد آبادي المعروف بالقاضي عبد الجبار (415هـ). انظر: نظرية النظم، د. بلعيد، (مصدر سابق)، ص: 93، وما بعدها.

ولم يعتمدوا أساساً توحي النحو، لأن في اعتقاده أن اللفظة المفردة لا فصاحة لها مفردة بل لا تبين عن فصاحتها إلا إذا أخذت موقعا من الجملة، فنظرية النظم هي نظرية في اللغة طرحت بشكل أساسي في سياق معالجة الشيخ عبد القاهر الجرجاني لقضية الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم¹، وهي تمس الشكل كما تمس المعنى أيضا.

ثم جاء بعده الزركشي (794هـ)، والسيوطي (911هـ)، إلا أنهما لم يضيفا جديدا بقدر ما أكدا على الدراسات السابقة في هذا المجال، وعرف النظم تطورات مختلفة لم تخرج في عمومها عن البحث في تناسق العبارات لتأدية المعنى السهل القريب بأقصر ما يمكن من الألفاظ، حيث كان التركيز في كل مرحلة يستهدف:

- 1- البسط: عرض العناصر التي تدخل في بناء الجمل.
- 2- الترتيب: النظم علاقة توجب ترتيب العناصر التي تتكون منها.
- 3- الربط: وصل العناصر التي يتكون منها مجال المنظوم وصلا يولد منها عناصر جديدة للإضافة والاتباع.
- 4- التوسيع: النظم علاقة توجب تولد المنظومات بعضها من بعض، بحيث يكون بعضها أوسع من الآخر (التفريع) والتزايد والتضخم.
- 5- التشكيل: تكون المنظومات المولدة بعضها احفظ لبعض (استدعاء/تعلق)².

وهذا ما تمليه الدراسات الحديثة من أن النظم عرف ربط العناصر وتوسيعها بناء على أن النظم تأليف يراعي خصوصيات اللغة ومنطقها النحوي³.

وعلى هذا الأساس قسمت أنواع التناسب في النظم إلى قسمين: قسم يمثل التناسب الشكلي، وقسم يمثل التناسب المعنوي.

¹ - دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مطبعة المدني بمجدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م، ص: 304.

² - طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ط1، الدار البيضاء 1998م، المركز الثقافي العربي، بتصرف قليل.

³ - نظرية النظم، (مصدر سابق)، ص: 106.

المبحث الأول: التناسب الشكلي:

يتركب الكلام العربي من ثلاثة حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم¹، وتناسب هذه الأصوات في حروفها وهي ممهدة لها، وتناسب هذه الحروف في كلماتها وهي ممهدة لها، وتناسب هذه الكلمات في الجمل والعبارات، وهي ممهدة لها، شكلاً ومعناً، وإن التناسب يطول هذه الثلاث، وسنبدأ تفصيل الكلام في التناسب الصوتي أو الإيقاعي، ثم عن تناسب الحروف في الكلمات، وهو ما أطلقت عليه: التناسب الصرفي، ثم تناسب الكلمات في الجمل وهو ما يسمى بالتناسب اللفظي أو (المشاكلة).

ولنباشر الحديث عن التناسب الصوتي في القرآن الكريم.

المطلب الأول: التناسب الصوتي أو الإيقاعي

الإيقاع الصوتي للكلمة: كثيراً ما نجد الكلمة القرآنية توحى بمعنى يضاف إلى معناها المعجمي أو العرفي من خلال جرس أصواتها التي تحاكي الحدث، فترسم صورة الحدث في ذهن المتلقي أو القارئ، وذلك غير ما أشارت إليه الدراسات اللغوية منذ عصر الإغريق التي قالت برمزية الأصوات²، وغير ما ذكره ابن جني في حديثه عن أصل اللغة³ من ذهاب بعضهم إلى أن اللغة مأخوذة من الأصوات المسموعات في الطبيعة وظواهرها، ونحن لا نعني هذا التفسير، فالبحت في أصل معاني الألفاظ عند وضع اللغة غاية لا تدرك، إنما نعني هنا الدلالات المكتسبة من حكاية الأصوات وتناسبها وما تضيفه وتوحيه صفاتها المؤلفة من ظلال المعاني إلى المعنى المعجمي، فالتكرار الصوتي والمقطعي يوحي بتكرار الحدث، والتشديد يوحي بالمبالغة والكثرة، وانسجام أصوات الكلمات في سياقها يوحي بالسلاسة والرقّة وهذه معاني تضاف إلى معانيها المعجمية.

وللكلمة تاريخ من الاستعمال يحمل تجارب الأجيال التي استعملتها وهي تحيا بالاستعمال وتموت بعده، وقد عقد ابن جني (ت392هـ) أربعة أبواب في الجزء الثاني من (الخصائص)⁴ حاول فيها

¹ - هذا المعنى من كتاب: اعجاز القرآن، الرفاعي، ص: 209.

² - انظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتحقيق: د. كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، ص: 99.

³ - انظر الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 46.

³ - هي: 1-باب تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني 113/2، 2-باب الاشتقاق الأكبر، ص: 133.. 3-باب

تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني، 4-باب أساس الألفاظ أشباه المعاني، ص: 152.

إثبات مفهوم الصلة بين اللفظ ومدلوله وإيحاء الأصوات بما يناسب الأحداث لكنه بالغ في حديثه وتصوره دلالة أصوات الكلمات وحكايتها لمعانيها وقد سبقه الخليل بن أحمد (ت175هـ) بقوله: "كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالةً ومدّاً فقالوا صرّاً، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا صرصر¹، ولم يهمل اللغويون المحدثون النظر في الصلة بين اللفظ ودلالته، فقد ناقشها إبراهيم أنيس، وتمام حسان، ومن الغربيين "يسيرسن"² و"أولمان"³ وغيرهم، فكانت خلاصة موقفهم أن توليد المعنى عن طريق المحاكاة والتقليد بواسطة الصوت له دور ذو أهمية وحيوية، وقد وضعت نظم رمزية ترمي إلى بيان القيمة التعبيرية المتصلة بالأصوات المختلفة، ولكن ينبغي لنا أن لا نبالغ في ذلك⁴، ونحن نعرف أن النص الإبداعي يهدف إلى الوصول بالكلمة إلى كامل قوتها وإيحاءها سواء بالإيقاع وإيحاء جرس الكلمة أو التكرير والتشديد على أصوات معينة، وغير ذلك من الوسائل الفنية.

وقد عنيَ (القرآن بالجرس والإيقاع عنانيته بالمعنى وهو لذلك يتخير الألفاظ تخيراً يقوم على أساس من تحقيق الموسيقى المتسقة مع جو الآية وجو السياق بل جو السورة كلها في كثير من الأحيان وبخاصة تلك السور القصار التي حَفَلَ بها العهد المكي... لتأكيداً أصول العقيدة: من الإيمان بالله وتوحيده)⁵. وإن الانسجام الصوتي في القرآن الكريم لم يأت من الوزن ولا القافية ولا السجع؛ لأنه ليس شعراً، وليس نثراً، وبالجملة ليس قول بشر؛ بل هو قول رب العالمين، الذي علم البشر كيف ينطقون، وكيف لا؟ وهو خلقهم من قبل ولم يكونوا شيئاً؟

⁴ كتاب العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي، ج2/ص: 312، وانظر الخصائص ج2/ص: 152.

¹ اسمه الكامل ينس أتو هاري يسبرسن Jens Otto Harry Jespersen عالم لغات linguist وعالم صوتيات phonologist دنماركي وحجة بارزة عالمياً في قواعد اللغة الإنكليزية، ولد في بلدة راندرز Randers وتوفي في مدينة روسكيلده Roskilde، وأسهم في تطوير تعليم اللغات في المناهج التعليمية الأوروبية، كما ساعد بقسط كبير من خلال مؤلفاته المتعددة على تطوير علم الصوتيات والنظرية الألسنية وتاريخ اللغة الإنكليزية، إضافة إلى تأسيس لغة عالمية عُرفت باسم «نوفيال» Novial. انظر: <http://www.arab-ency.com/index.php>. الموسوعة العربية.

³ ستيفن أولمان، كاتب إنجليزي في الدلالات.

³ انظر: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس 68 - 69، دور الكلمة في اللغة، أولمان 84-99. البيان في روائع القرآن، تمام حسان، طبعة عالم الكتب، 1993م، ط1، الفصل السابع، ص: 175.

⁵ - الجرس والإيقاع، ص: 335.

وقد حار العلماء في سبب هذا النغم فقالوا: إنه جاء من اتحاد المقاطع، أو النبر، أو اتفاق الفواصل، أو من طول الحمل، أو التناسق الدقيق بين اللفظ والمعنى، أو التناسق الصوتي الداخِل في كل آية لتحقيق النغم الداخِل مع التناسق الصوتي الموجود مع كل فاصلة وأختها، ويسأل د. تمام حسان عن هذا النغم الخفي قائلاً تحت عنوان (تأملات في القيم الصوتية في القرآن الكريم): "نعني بالقيم الصوتية تلك الخصائص التي تميز بواسطتها الأصوات ويتعلق بها نوع من المعاني يسمى المعاني الطبيعية، التي لا يوصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية؛ لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان، تدركها المعرفة، ولا تحيط بها الصفة، فمثل تأثيرها في الوجدان السامع مثل النغمة الموسيقية تطرب لها ثم لا تستطيع أن تقول لم طربت¹؟

وقد استعمل النص القرآني ألفاظاً ذات أصوات تحمل طاقة إيجابية توحى بمعانٍ تضاف إلى معناها العرفي، وهذا هو البصر بجوهر اللغة، فقد يوَلد معنى المبالغة والتضخيم ما تحكيه الأصوات المفخمة فتثير ما يشبه الدوي توحيه الكلمات المؤلفة منها، فحين نقرأ قوله تعالى: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور، وهم يصطرخون ربنا أخرجنا نعمل صالحاً...﴾².

إن تدرج سياق الآية بوصف الكافرين، فهم في نار جهنم في اضطراب وفي عذاب دائم ﴿وهم يصطرخون﴾، فجعل هذه العبارة توحى بدوي صراخهم، فهناك فرق بين (يصطرخون) و(يصرخون) إذ اجتمع في (يصطرخون) ثلاثة أصوات مفخمة: الصاد، والطاء المنقلبة عن تاء افتعل، والخاء فأصبح الفعل يحاكي أصداء صراخهم من دوي وصخب عال أوحى به التضخيم في أصوات الفعل، وكذا ما توحى كلمة (ضيزى) من المبالغة في عدم العدالة في الآية ﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾³، وهكذا ما يوحى التشديد في الكلمات (الصاخة والحاققة والطامة وسجّل وعتلّ وزقوم ويُدعون إلى نار جهنم دعاء..). فكل هذه الكلمات في سياقها من الآيات تتولد منها معانٍ إيجابية تضاف إلى المعنى المعجمي، فأصواتها وبنيتها توحى بظلال دلالتها، وقد قال الصرفيون كل زيادة في حروف الكلمة زيادة في معناها، ونذكر في هذا المجال ما يوحى تكرار المقطع اللغوي بتكرار المعنى في مواضع

¹ - البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1993م.

² - سورة فاطر، الآيتان: 26-27.

³ - سورة النجم، آية: 22.

من النص القرآني، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَءٍ مَسْنُونٍ﴾¹ فالصلصال صوت الطين اليابس الذي لم تمسه نار، فإذا نقرته صلّ أي صوّت صوتاً ذا رنين، وصلصل مثل صرصر فكلاهما تتألف من أصوات تناسب معناها بل هي معناها الذي توحيه، ومن هذا القبيل ما توحيه الكلمات: كُكَبِكَبُوا وَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلْزَلَهَا، ودمدم عليهم ربهم، ويوسوس، وغيرها مما في مواضعه من النص القرآني، وإنّ هذا هو البصر بجوهر اللغة الذي تمتاز به النصوص العالية الإبداع، وهذه الظاهرة يمكن أن تدرس في مجال إعجاز هذا النص المعجز².

وهذا النوع من التناسب قد يكون بين كلمتين لا يجمعهما أصل لغوي واحد، وإنما الذي يجمع بينهما تجانس الصوت، الذي يحسن في أذن المستمع، من أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّينَاكَ قِبَلَهُ تَرْضَاهَا﴾ (البقرة:144)، فثمة تناسب صوتي بين كلمة (تقلب) وكلمة (قبلة)، ولهما وقع في أذن السامع؛ ومنه أيضاً قوله سبحانه: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ (التوبة:61)، فبين قوله سبحانه: (يؤذون) وقوله: (أذن) تناسب لفظي لمن تفتن له، ومن هذا القبيل قوله سبحانه: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ (غافر:75)، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَأْتُونَ عَنْهُ﴾ (الأنعام:26)، وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صِنْعًا﴾ (الكهف:104).

وفي القرآن (كلمات شديدة الإيحاء قوية البعث لما تتضمنه من المعاني وهناك عدد كبير من ألفاظ تصور بحروفها....)³، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة: 5 - 7)، فالفراش هو الجراد الذي ينفرش ويركب بعضه بعضاً، فإذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة بل يتطاير من كل جانب⁴ (فهو مبثوث وقد انتهت كلمة الفرّاش وكلمة المنفوش بالشين كما انتهت كلمة المبثوث بالثاء، والشين والثاء من حروف التفشي والانتشار)⁵.

¹ - سورة الحجر، آية: 26.

² - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص: 92.

³ - أحمد أحمد بدوي؛ من بلاغة القرآن؛ الناشر: هضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع؛ سنة: 2005م؛ ص: 69.

⁴ - غسان حمدون؛ تفسير من سمات القرآن كلمات وبيان؛ الناشر: دار السلام؛ سنة النشر: 1407 - 1986؛ رقم الطبعة: 2، ص: 654.

⁵ - ذهب عدد من العلماء الى وصف عدد من الاحرف بالتفشي غير الشين وهي: (الفاء . الثاء . الصاد . الضاد . السين . الراء) قال المرعشلي: وبالجملة ان الحروف المذكورة مشتركة في كثرة انتشار خروج الريح لكن ذلك الانتشار في الشين اكثر لذلك اتفق على تفشي الشين وفي البواقي المذكورة قليل بالنسبة اليه ولذا لم يصفها اكثر العلماء بالتفشي انظر: جهد المقل، محمد

وهناك شيء آخر أحب أن أشير إليه قد يخفى على كثير وهو: ظل المفردة إذ لا بد من الفصل ما بين جرس اللفظة وظلها، والذي كثيراً ما تُصور أنه واحدٌ، لأن الجرس خاص بالصوت والموسيقى، أما الظل فهو استدعاء صورة المدلول الحسي¹، إلا أن الأسلوب القرآني كثيراً ما كان يقرن جرس المفردة بظلها قال تعالى: ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾ النازعات، آية: 8، يعني: حائفة²، فلماذا عدل القرآن عن حائفة إلى واجفة؟ ولعل في فهم السياق ما يعطي إجابة وافية عن هذا السؤال فالآيات السابقة ﴿يوم تتبعها الرادفة...﴾، النازعات: 6 - 7، عبّرت عن سرعة الوقوع والتتابع فلو قيل: (حائفة) بدلاً من (واجفة) لما ناسبت من الناحية الصوتية معاني سابقاتها ولما اتسقت معها، ذلك أن صوت المدّ فيها ما كان مناسباً هنا سرعة السياق، لذلك تمّ العدول عن تسمية القيامة بما فيه مدّ من الأسماء، ويتأكد لنا من خلال بقية الأسماء التي غالباً ما جاء فيها المد مثل الحاقّة والصاخّة والطامّة على أن هذا الملحظ الصوتي ليس منعزلاً عن ملحظٍ إيحائي من ظل المفردة لأن (وجف) في هذا السياق أكثر دلالةً وإيحاءً من (خاف) فبالإضافة إلى معنى الخوف فإنها تدل على (السرعة والاضطراب) فـ (الوجيف سرعة السير وأوجفتُ البعيرَ أسرعتَه قال تعالى: ﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ﴾، الحشر: 6، قال تعالى: ﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾، أي مضطربة، وبهذا تكون (واجفة) أولى في الاستخدام، فاللفظ المستخدم إذا كان له معنى عام ومعنى خاص كان الأولى حملة على العام لتضمنه الخاص³ فإذا كان هذا في تفسير النص فهو أولى بالاستخدام أصلاً إذا كان يحقق غاية السياق⁴.

وفي محاكاة هذه الأصوات وتكرارها تنساب إلى نفس السامع نغمات قريبة بعضها من بعض، فتصل إلى أعماق النفس الصافية فتتحرك أو شاجها، بعد أن تكون هذه النغمات والرنات قد قرعت طبل الأذن، فإن كانت أصواتاً مزلزلة كانت على نفس الكافر كالعذاب السابق لأوانه، وإن كانت أصوات غنّة فيها

بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجقلي زاده، دراسة وتحقيق: د. سالم قدوري الحمد، دار عمّار، الأردن، ط 2، 1429 هـ / 2008 م، ص: 123.

¹ - تفسير من نسمات القرآن، (مصدر سابق)، ص: 631.

² - كلما تكثر الصوامت تزداد الحركة السريعة وبقدر ما تكثر المصوتات تحفّ هذه السرعة ويحل محلها الجمود والنبات، ينظر: الصورة الشعرية في الكتابة.

³ - المفردات، ص: 807، تفسير مفردات القرآن، ص: 909.

⁴ - مقال الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية - د. أبو عائشة، <http://www.dahsha.com>، 2007م.

حزن وأنة زادت المؤمنين خشوعا، وإن كانت صفات استفالة ورقة أطربت الحزين، وأبكت الصنديد.... وهكذا.

المطلب الثاني: التناسب الصرفي (الحروف في الكلمات)

رأينا في المطلب السابق كيف تتناسب أصوات الحروف مع بعضها البعض في كلمات القرآن، وكيف تنساق خلف تلك الحروف مخلفة ورائها نغمات وعدوبة تهتز لها النفس، وتشتاق لها الأذن، وما تناسب هذه الأصوات سواء في الخفة أو الثقل، إلا في الحقيقة هو تناسبٌ للحروف التي تولدُها، وفي هذا الصدد يقول صادق الرافعي رحمه الله تعالى: "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجري في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هي له من أمر الفصاحة، فيهيء بعضها لبعض، ويساند بعضها، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقي، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان، فلا تعذب ولا تُساغ وربما كانت أو كس النصيين في حظ الكلام من الحروف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيباً"¹.

وقل أن تجد هذا التناسب في كلام الناس؛ إلا أن يكون في جملة من جزء، أو عبارة في فصل، أو بيت شعر محكم من قصيدة، أما في القرآن فما من آية أو جملة أو لفظة إلا وتجد هذا التناغم وهذا التناسب واقع فيها موقع الأساس، حتى في بعض الآيات التي لا تحسب فيها إعجازا ظاهرا كتتالي أسماء الأنبياء في الآية الواحدة، ففيها من تأخير اسم عن اسم وتقديم آخر العجب العُجاب، كما يقول الرافعي، ويقول أيضا: "وما من حرف أو حركة في الآية إلا وأنت مصيب من كل ذلك عجا في موقعه والقصد منه، حتى ما تشك أن الجهة واحدة في نظم الجملة والكلمة والحرف والحركة"²، وقد تُختار المفردة القرآنية لبنيتها الصرفية، فقد اقترنت بعض الأوزان الصرفية بدلالات خاصة من "ذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة والقلقلة والصلصلة"³... وقد تكون المفردة ثقيلة من حيث بنيتها أو طبيعة أصواتها في غير سياقها غير أن علاقتها مع ما قبلها أو بعدها تجعل المفردة هي الأنسب في الاختيار

¹ - الرافعي، اعجاز القرآن، (مصدر سابق)، ص: 227.

² - الرافعي، إعجاز القرآن، ص: 228.

³ - الخصائص، ابن جني، ج 2 / 153،

داخل سياقها، من ذلك قوله تعالى: ﴿تلك إذن قسمةٌ ضيزى﴾ (النجم: 22) وقد تعجب الرافعي من نظم هذه الكلمة الغريبة وأتلافه على ما قبلها؛ إذ هي مقطعان أحدهما مدُّ ثقيل والآخر مدُّ خفيف وقد جاءت عقب غنتين في (إذن) و (قسمة) وإحدهما خفيفة حادة والأخرى ثقيلة متفشية فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتيةً لتقطيع موسيقي¹.

والقرآن يضع حاجة السياق بالدرجة الأساس مستفيداً من كل ما تتيحه اللغة من وسائل تعبيرية قد لا يتخذ معيار (الأفصح) شرطاً في الاختيار، ومن الظواهر الصوتية التي تُوظف في التعبير القرآني مستفيدةً من كل إمكانات اللغة وشكلياتها ظاهرة الإدغام والتي جيء بها بصورةٍ أعطت للنص القرآني خصوصيةً في الاستعمال ففي (يشاقق) يكون الإدغام وهو لغة تميم² طالما ذُكرَ الله تعالى وحده، فإذا ذُكرَ معه الرسول صلى الله عليه وسلم فكُ الإدغام وهو لغة الحجاز³ قال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاققوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب﴾ (الأنفال: 13) وقال تعالى: ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى﴾ (النساء: 115)، وقال تعالى: ﴿ذلك بأنهم شاققوا الله ورسوله ومن يشاقق الله فإن الله شديد العقاب﴾ (الحشر: 4) ... وقد نبّه الدكتور فاضل السامرائي لهذا غير أنه أبعد في تعليل هذا الاستخدام حيث قال: «ولعله وَّحد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين»⁴.

المطلب الثالث: التناسب اللفظي (المشاكلة):

ساد في عرف المفسرين والبلاغيين أن المشاكلة أصل من أصول العربية، تُطلب في الكلام، ويُترك لأجلها ما يقتضيه الميزان الصرفي أو القاعدة الإعرابية، ويقصدها الفصحاء والبلاغيون؛ لما لها من قيمة جمالية .

والعرب تعرف في أساليبها المشاكلة اللفظية، وهي استخدام اللفظ في غير معناه؛ لمقابلته مع لفظ آخر.

¹ - ينظر: تاريخ آداب العرب، ج 2 / 230

² - ينظر: البحر المحيط، ج 2 / 344 .

³ - فاضل السامرائي، التعبير القرآني، دار عمار، الطبعة 4، 1427هـ/2006م، ص: 19 .

⁴ - ينظر: عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج 8 / 1355 .

يقول أبو بكر ابن حجة في تعريف المشاكلة: "المشاكلة في اللغة هي المماثلة، والذي تحرر في المصطلح عند علماء هذا الفن أن المشاكلة: هي ذكر الشيء بغير لفظه لوقوعه في صحبته"¹.

وعند ابن عاشور المشاكلة هي: "استعارة لفظ لغير معناه مع مزيد مناسبة مع لفظ آخر مثل اللفظ المستعار، فالمشاكلة ترجع إلى التلميح، أي إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقةً بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلا محاكاة اللفظ، سميت مشاكلة"².

والشكل في اللغة: الشبه والمثل والجمع أشكال وشكول، وشاكل كل واحد منهما الآخر أي: شابهه ومائله، ويقال: هذا على شكل هذا أي مثاله، فالمشاكلة تعني في اللغة: الموافقة، والمماثلة، والمشابهة والتشاكل مثله، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾³، أي: على جدليته وطريقته وجهته ومذهبه، والمشاكل من الأمور من وافق فاعله ونظيره⁴.

و ذكر الزمخشري في مراد الآية السابقة: "أي: على مذهبه وطريقته التي حاله في الهدى والضلالة من قولهم: طريق ذو شواكل، وهي الطريق التي تتشعب منه، والدليل عليه قوله: ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾⁵، أي: أسد مذهباً وطريقة"⁶.

ومن هذا يتضح أن لفظة المشاكلة تتصرف إلى معنى الموافقة أو المماثلة أو المشابهة، ومن هذا يمكن إطلاق لفظة المشاكلة في اللغة العربية على الظاهرة التي يراعى فيها توافق أو تشابه أو تماثل شيئين، أي ما كانا: صوتين أو لفظين أو لفظاً ومعنى أو غير ذلك، فيجري أحدهما مجرى الآخر وإن كانا مختلفين⁷.

فمثال الصوتين: صراط وسراط، صيام والأصل صوام، ست والأصل سدس....

¹ - ابن حجة الحموي خزانة الأدب وغاية الإرب، (252/2)، وانظر أيضاً: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص: 327.

² - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (329/5).

³ - سورة الإسراء: 84.

⁴ - ينظر: معاني القرآن، للفراء (ت 207هـ): 130/2.

⁵ - سورة الإسراء، آية: 84.

⁶ - تفسير الكشاف للزمخشري (ت 538هـ): 198/1.

⁷ - ماهر خضير هاشم، المشاكلة في اللغة العربية (صوتياً و صرفياً)، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، العدد: 3، المجلد: 18، سنة: 2010م، ص: 02.

ومثال اللفظين: كقوله تعالى: ﴿وأمسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾¹، وقول العرب: هذا جحر ضبّ خرب².

ومثال اللفظ والمعنى كقوله تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾³، وذكر الزركشي أنه: "ولم من (طين)؟ كما أخبر سبحانه في غير موضع: ﴿إني خالق بشرًا من طين﴾⁴، إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثرها لما كان المقصود مقابلة من ادعى في المسيح الإلهية، أتى بما يصغر أمر خلقه عند من ادعى ذلك؛ فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمس في المعنى من غيره من العناصر⁵، وفي قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾⁶، ولم يقل (لا تعلمون)؛ لأن في الفقه زيادة على العلم⁷.

وقد بدت ملامح مصطلح المشاكلة على أيدي البلاغيين، فأطلقوه على لون من ألوان البديع ويعني: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقاً⁸، نحو قوله تعالى: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾⁹، فأطلق النفس على ذات الله؛ لوقوعه في صحبتي (نفسي) على سبيل مشاكلة اللفظ للفظ، وقوله تعالى: ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾¹⁰، أي: أهملهم ذكر الإمهال هنا بلفظ النسيان لوقوعه في صحبته.

¹ - سورة النساء، آية: 43.

² - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

³ - سورة آل عمران، آية: 59.

⁴ - سورة ص، آية: 71.

⁵ - البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم: 239/3.

⁶ - سورة الإسراء: 44.

⁷ - البرهان في علوم القرآن: 236/3.

⁸ - الإيضاح في علوم البلاغة للقرظيني: 360، وجواهر البلاغة أحمد الهاشمي: 226.

⁹ - سورة المائدة: 116.

¹⁰ - سورة التوبة: 67.

أو تقديرًا: نحو قوله تعالى: ﴿صَبِغَةَ اللَّهُ﴾¹، فصيغة مصدر مؤكد لقوله تعالى: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾² قبله، والمعنى: تطهير الله؛ لأن الإيمان بطهر النفوس، فعبّر عن الإيمان بالله: (صبغة الله)، أي: دين الله أو فطرته التي فطر الناس عليها، لوقوعها في صفة الإيمان³.

أما علماء العربية المتقدمون فلم توصف (المشاكله) عندهم على أنها ظاهرة عامة؛ بل جاءت متفرقة في كتبهم مقصورة على أمثلة لهذه الظاهرة ومعبرة عنها بمسميات أخرى:

ففي الصوت: نجد المضارعة والإدغام الأصغر والمناسبة والإتباع الحركي والإمالة والمجاورة، وفي الصرف: نجد الفواصل القرآنية، وعلة المشابهة (حمل النظر على النظر)، وظاهرة الإتباع والمحاذاة، وفي النحو: نجد المجرور بالمجاورة، وحركة الإتباع (إتباع المستثنى والمستثنى منه)، وباب الاشتغال.

وإن علماء العربية عبروا عنها بمصطلحات منها: فعند سيبويه (ت 180هـ) عبر عنها بالمضارعة⁴، وابن جني (ت 392هـ) عبر عنها بمصطلح الإدغام الأصغر⁵، وابن فارس (ت 395هـ) عبر عنها بمصطلح المحاذاة والمزواجة⁶، كما عقد الزركشي بابا واسعا في كتابه: (البرهان في علوم القرآن) لما يجيء في التزليل من مشاكله اللفظ للفظ، ومشاكله اللفظ للمعنى⁷.

ولقد أرجع بعض المفسرين قديما روعة النص القرآني وانسجامه إلى جانب التعبير اللفظي، وأسلوب الصياغة، والتناسب الصوتي؛ أمثال: الجاحظ، والرماني، وأرجعها آخرون إلى جانب النظم، وأحوال التراكيب، كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، وتفصيل العبارة بحسب مقتضاها، مثل عبد القاهر الجرجاني⁸؛ الذي كتب عن النظم القرآني وعده أحد أوجه الإعجاز، وأرجعها فريق آخر إلى جوانب أخرى لم يحددوا طبيعتها، إلا أنهم يدركونها.

¹ - سورة البقرة: 138.

² - سورة البقرة: 136.

³ - المشاكله، (مصدر سابق)، خضير هاشم، ص: 03.

⁴ - كتاب سيبويه: 477/4 - 478.

⁵ - الخصائص: 143/2 - 145.

⁶ - ينظر: فقه اللغة: 15.

⁷ - البرهان في علوم القرآن: 233/3 وما بعدها.

⁸ - له كتاب: "دلائل الأعجاز".

وقد تابعهم المعاصرون في ذلك محاولين إعطاء عناية خاصة بهذا الجانب من التناسب، وحاولوا إبراز تلك الخصائص الجمالية للنص القرآني، سواء في جانب اللفظ والعبارة، أم في جوانب النظم والتركيب، أم في جانب الصوت والإيقاع، فمنهم من سمي هذه السمة التي تميز النص القرآني، وتجعله متسقاً منسجماً بالمسحة القرآنية اللفظية، حيث يقول الزرقاني: "إنها مسحة خلاصة عجيبة، تتجلى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي"¹، ومنهم من يستشعرها مثل ما يقول سيد قطب: "إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً، يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيها، إنه يشعر بسطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير، وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره: أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم إنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود؟"².

خصوصية استعمال اللفظة القرآنية: يمكننا النظر في خصوصية استعمال الكلمة القرآنية من خلال مفهوم ظاهرة الترادف والمشارك اللفظي، والتضاد وموقف اللغويين منها.

فاللغويون في قضية الترادف اللغوي على خلاف، فمنهم من ذهب إلى وجوده في اللغة والقرآن الكريم فيجمع للمعنى الواحد ألفاظاً عدة، ومنهم من ينكر ذلك وحاول أن يوجد الفروق بين الألفاظ المترادفة³ على اعتبار ما من لفظ يمكن أن يقوم غيره مكانه في القرآن الكريم، وذلك من خصائص إعجازه، فللشيء اسم واحد وما بعده من المرادفات فهي صفات، فالسيف هو الاسم وأما المهند والحسام والصارم.. فهي صفات، وأما المشترك فهو أن يكون للكلمة الواحدة أكثر من دلالة، واللغويون فيه على خلاف أيضاً خصوصاً في وجوده في القرآن الكريم، وقد أُلّف تحت هذا العنوان كتب (الأشباه والنظائر) لمقاتل بن سليمان البلخي (ت150هـ) وكتاب (الوجوه والنظائر في القرآن) لهارون بن

¹ - مناهل العرفان، الزرقاني، ج2، ص: 251.

² - سيد قطب، التصوير الفني، ص: 172، وربما سبقه إلى هذا السكاكي في "المفتاح".

³ - مثل الثعالي في: (فقه اللغة)، وأبي هلال العسكري في: (الفروق اللغوية)، وأحمد بن فارس في: (الصاحبي)، وابن جني في: (الخصائص).

موسى الأعرور (ت170هـ) وللميرد النحوي (ت285هـ) كتاب عنوانه (ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن المجيد) لكنه اشترط في الكلمة التي يوردها أن يكون القرآن الكريم قد استعملها بمعانيها فبهذا الشرط ضيق مفهوم الاشتراك عما نجده لدى مؤلفي الكتب السابقة ولدى اللغويين.

ولقد جعل الزركشي موضوع الوجوه والنظائر النوع الرابع من علوم القرآن¹، وفسر مصطلح (الوجوه) بأنه المشترك الذي يستعمل عدة معاني للفظة، وفسر مصطلح (النظائر) بالألفاظ المتواطئة المترادفة، وقد عدّ بعضهم ذلك من معجزات القرآن، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر².

وإن اللغويين قديمهم وحديثهم على خلاف في هذه الظواهر اللغوية³، وهناك من يرى أن فيها مبالغة خصوصاً في القرآن الكريم، ويرى أن نسبة الترادف ليست كما ذكروا من أن للهدى سبعة عشر معنى: البيان والدين والإيمان والداعي والرسول والكتب⁴، ومع ذلك فالترادف أوسع من المشترك في اللغة، وأكثر ما ذكره على أنه من المشترك هو أقرب إلى المجاز كالعين الباصرة تستعمل لعيون الماء، وأمة بمعنى جماعة من الناس وهو المعنى القرآني المؤلف كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك﴾⁵، وأمة بمعنى الحين ﴿واذكر بعد أمة﴾⁶، وأمة بمعنى الدين ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾⁷.

³ انظر البرهان: ج 1 / ص: 133.

² المصدر نفسه: ج 1 / 134.

³ انظر تفصيل ذلك: في كتاب المزهرة للسيوطي ج 1 / ص: 369، 430، ودلالة الألفاظ إبراهيم أنيس، ص: 210-224، ومبحث المشترك والترادف: للسيد محمد تقي الحكيم، ص: 89، في كتابه: (من تجارب الأصوليين)، وعلم الدلالة أحمد مختار عمر، ص: 147.

⁴ انظر تفصيل ذلك وشواهد: البرهان للزركشي 134، 135، الإتيان 1 / 300-301.

⁵ سورة البقرة، آية: 28، وانظر أيضاً الآيات 134 - 141 - 143 - 213 من البقرة، و 104 - 110 - 113 من آل عمران وكثير من آيات آخر.

⁶ - سورة يوسف، آية: 45.

⁷ - سورة الزخرف، آية: 22.

- ومن أنواع هذا التناسب:

1- تناسب الجنس: وهو كثير في القرآن الكريم، والمراد من هذا النوع: استعمال لفظين، يجمعهما أصل واحد في اللغة، للدلالة على معنيين، ويسمى عند البلاغيين (الجناس).
وتناسب الجنس، إما أن يكون تناسباً بين اسم وفعل، كقوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ (البقرة:276)، فالتناسب اللفظي هنا وقع بين كلمتين من أصل واحد، إحداهما: فعل، وذلك قوله تعالى: (ويربي) والثانية: اسم، وذلك قوله تعالى: (الربا)، ومثل ذلك يقال في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام:146)، فالتناسب اللفظي هنا وقع بين قوله: (تزر)، وقوله: (وازره)، والأغلب في هذا النوع من التناسب أن يتقدم الفعل على الاسم، كما في الآيتين السابقتين، والأقل أن يتقدم الاسم على الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي طَفَّرَ النَّاسَ عَلَيْهِمْ﴾ (الروم:30).
وإما أن يكون تناسب الجنس تناسباً بين فعلين، كقوله تعالى: ﴿وَلَلْبِئْسَ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (الأنعام:9)، وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (الصف:5).
وإما أن يكون التناسب بين إسمين كقوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاظِيرِ الْمَقْنَطِرَةِ﴾ (آل عمران:14)، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ﴾ (يونس:35).
وهذا النوع من التناسب اللفظي فيه من الحلاوة والعدوبة وله من الوقع في نفس القارئ ما لا يخفى.

-ومن أنواع التناسب اللفظي:

2- التصوير البياني: ومعناه أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة البيانية، فلا تتنافر جزئياتها، بل تكون متألفة غاية الائتلاف، ومنسجمة نهاية الانسجام.
ومن أمثلة هذا النوع من التناسب، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:15)، فقوله سبحانه: (ذلولاً) تصوير للأرض التي تسبح في الفضاء، والإنسان راكب على ظهرها، في صورة حيوان مركوب، مطيع لراكبه، خاضع لإرادته وحاجته، وقوله تعالى: ﴿فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ تعبير مناسب لهذه الصورة، و(المنكب): مجتمع رأس الكتف والعضد، والمراد: فامشوا في أنحاءها، ولو قيل: (فامشوا في أنحاءها) لما كان مناسباً، ولفات وحدة الصورة، وبعد تناسب أجزائها.

ومن أمثله الرائعة قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ تأملها، تجد تحتها معنى بديعاً، فهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها بل تبقى مفتحة، بعكس أبواب النار فهي موصدة على أهلها. وفي تفتيح

الأبواب إشارة إلى: 1) ذهابهم وإياهم وتبوءهم من الجنة حيث شاءوا. 2) دخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطف. 3) أنها دار أمن، لا يحتاجون إلى غلق الأبواب كما في الدنيا¹. وكذلك قوله تعالى: ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴿﴾ (الأنعام: 103-104)، فالمراد من الآية أن الله سبحانه يدرك الأشياء كلها، دقها وجلها، واللفظ القرآني يؤدي هذا المعنى بطريقة جمعت بين وضوح الدلالة، وجمال العبارة، ومرجع ذلك تلك المشاكلة اللفظية.

3- وهناك نوع آخر من التناسب اللفظي يتوقف على تلمس آيات الجزاء والمآل، والتحذير من الوقوع في الأعمال التي يترتب عليها حساب وعقاب، كقوله تعالى: ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾ (النساء: 142)، والتساؤل هنا أن لا شك أن الخداع من صفات البشر، ولا يليق أن يوصف به الخالق سبحانه، وإذا كان الأمر كذلك، كان معنى (وهو خادعهم)، كما قال أبو حيان: "أي: منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سماها باسم الذنب"، وقال ابن عاشور: "إسناد خادع إلى ضمير الجلالة إسناد مجازي اقتضته المشاكلة... فالمشاكلة ترجع إلى التمليح، أي: إذا لم تكن لإطلاق اللفظ على المعنى المراد علاقة بين معنى اللفظ والمعنى المراد إلا محاكاة اللفظ، سميت مشاكلة، كقول جحظة البرمكي: قالوا: اقترح لونا يُجاد طبيخه، قلت: اطبخوا لي جبةً وقميصاً"²

فاستعمل الشاعر الفعل (اطبخوا)، مع أن الجبة والقميص تحاط خياطة؛ ليناسب قوله: (طبيخه).

المبحث الثاني: التناسب المعنوي.

لقد بين الجرجاني أن ضم الألفاظ يتبع نسقاً قرره النحو، فإذا ضُمت الألفاظ إلى بعضها دون أن نتوحي فيها معاني النحو لم يكن ذلك نظماً، ونجد الرازي يتابع الجرجاني في القول (أن النظم عبارة عن توحي معاني النحو)، والنظم عند الجرجاني هو تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض، وهذا وارد سواء توخينا النحو أو أهملناه.

¹ - هذا المثال من كتاب فوائد البدائع لابن القيم.

² - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (329/5).

ولكن لا اكتمال الصورة لا بد أن نأخذ كل الاتجاهات بعين الاعتبار ولا نهمل جانباً من الجوانب، أو نركز على جهة دون أخرى، وعلى هذا الأساس نلج هذا المطلب المهم حتى نبين قيمة توحي النحو وأنه جزء لا يتجزأ من النظم.

المطلب الأول: التناسب التركيبي: (الجمل في الآيات)

من مظاهر جمال أسلوب القرآن الكريم تركيب الجملة القرآنية، أي تلك العلاقة التي تربط أجزاء الآيات بعضها ببعض، والكلمات بعضها ببعض، داخل العبارة أو الآية، فكل من يقرأ القرآن يدرك، أن تركيب الجملة القرآنية هو الذي يمنح الكلمات حسنها وجمالها، فالألفاظ القرآنية مرتبطة بعضها ببعض في بناء متكامل يأخذ بعضه ببعض، فلا يمكن "أن يؤخر ما قدم، أو يقدم ما أخر، أو يذكر ما حذف، أو يحذف ما ذكر، أو يوجز فيما أطيل فيه، أو يطنب فيما أوجز فيه، لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبها موقف، وكأما لم يخلق الله لأداء تلك الدلالات غير هذه القوالب على اتساع اللغة بألفاظها وأشكالها"¹.

ومن مواضع الإعجاز والجمال في تركيب الجملة القرآنية -وهي تفوق الحصر- دقة القرآن في اختيار ألفاظه، ثم نظمها في نسق خاص يبلغ في الفصاحة أرقى درجاتها، من ذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾²، فإنه تعالى لما أتى بأغرب ألفاظ القسم وهي (التاء)، أتى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار وهي (تفتأ)، وبأغرب ألفاظ الهلاك و(الحرص)، فاقتضى "حسن الوضع في النظم، أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها، توخياً لحسن الحوار، ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم"³، ولما أراد غير ذلك قال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾⁴ فأتى بجميع الألفاظ متداولة لا غرابة فيها⁵، فهذه الآية دليل واضح على دقة القرآن في اختيار ألفاظه، لتتكامل الخصائص النوعية للألفاظ، مع المميزات

¹ - أحمد جمال العمري، مفهوم الإعجاز القرآني، دار المعارف مصر، 1984م، ص: 295.

² - سورة يوسف، الآية: 85.

³ - الإتيان في علوم القرآن: ج3، ص: 262-263.

⁴ - سورة الأنعام، الآية: 110.

⁵ - الإتيان في علوم القرآن: ج3/263.

العامة لبنية الكلام، بحيث يصبح النص مطبوعاً من وجهتين، "وجهة الألفاظ، وهي أجزاء فردية في عملية الخلق الأدبي، ووجهة التركيب، تلك الأجزاء في صلب البنية اللسانية العامة للنص"¹.

ومثال آخر عن جمال أسلوب القرآن في الوصل والفصل: وقد عدّد بعض العلماء اثني عشر موضعاً في القرآن الكريم عطف فيها الخبرية على الإنشائية والعكس، من مثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ الانعام 121، (و) ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ الأعراف: 77-78.

و ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ النساء: 14 ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مريم: 46 (وغيرها) (13)².

وقد يكون التناسق الداخلي للجمل أقوى من وصلها برابط، في قوله تعالى ﴿الم﴾. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة آية: 01). يقول الزمخشري: "والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يُضرب عن هذه الحال صفحاً، وأن يقال: إن قوله ﴿الم﴾ جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، و ﴿ذلك الكتاب﴾ جملة ثانية، و ﴿لا ريب فيه﴾ جملة ثالثة، و ﴿هدى للمتقين﴾ رابعة، و قد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة. وموجب حسن النظم حتى جيء بها متناسقة هكذا من غير نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها، وهلم جراً إلى الثالثة والرابعة".
الكشاف 121/1.

وقد تجيء الجملة موصولة برابط واحد في مكانين، مع تقديم وتأخير يقتضيه السياق، وقد تجيء موصولة برابطين لاختلاف القصد في المرتين، جواز وصل الجملة الخبرية، بالجملة الإنشائية خلافاً للمشهور.

ومثال عن المقابلة: هي أن يأتي المتكلم في كلامه بمعنيين متوافقين أو أكثر ليس بينهما تضاد، ثم يأتي بما يقابل ذلك على الترتيب. على شاكلة قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً، وليبكوا كثيراً﴾ بما كانوا يكسبون﴾ التوبة، آية: 82، فقد أتى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية بمعنيين: "يضحكوا" و"قليلاً".

¹ - محمد كريم الكواز، الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقران الكريم: 293. جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى. 1996م.

² - النور: 57، النمل: 9-10، الحجرات: 12، نوح: 24، الكوثر: 1-2، البقرة: 25، الصف: 13، مريم: 75-76، دراسات لأسلوب القرآن: 557/3 وما بعدها.

" وهما معنيان متوافقان أي ليس بينهما تضاد، ثم أتى بعد ذلك بما يقابلهما على الترتيب بقوله " وليكوا " و " كثيرا".

ومن أنواع الطباق في القرآن ومن ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ البقرة، آية: 19، أي: لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الله (الإسلام) فهو دين واضح ، فمن يكفر بالله أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره ، ومن خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعوا إليه الشيطان فإن الله ثبت أمره ، واستقام على الطريقة المثلى ، والصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم . فالمطابقة في الآية وقعت بين "الرشد: الذي هو الهداية ، وبين الغي : الذي هو الضلال، وكذلك أيضا بين: "يكفر" ، و"يؤمن" .

ومنه - أيضا- قوله تعالى: ﴿باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب﴾ الحديد، آية: (13) .
ومن ذلك -أيضا- قوله تعالى : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ الفرقان، آية: 70.

المطلب الثاني: تناسب الفواصل: (تشابه الأطراف)

إن من بلاغة القرآن وعلامات إعجازه سواء من ناحية النظم والشكل، أو من ناحية المعنى والمقصد، تلك الحروف التي يختم بها القرآن أواخر آياته، من كلمات وأحرف وتسمى عند اللغويين تشابه الأطراف، فهي معجزة في ذاتها، فكيف إذا ما قُرنَت بجمل وتراكيب لغوية بديعة، وعبارات بيانية رائعة، حتما سيزيدها ذلك رونقا في الشكل، وقوة في المعنى، من جراء ذلك الترابط الذي يزيدها متانة وجزالة، ويفرغ عليها حلة الإعجاز، فيصدق فيه قول الله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾¹، ومن أهم علامات إعجازه، الفواصل التي عرفها السيوطي في الإتقان فقال عنها: «الفاصلة كلمة آخر الآية ككافية الشعر وقرينة السجع»².

¹ - سورة هود، الآية: 01.

² - الإتقان في علوم القرآن، (مصدر سابق)، ج1، ص: 213.

وقال أيضا: قال الداني: هي: «كلمة آخر الجملة»¹، والفواصل - في نظر الرماني - حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعنى².

قال الرماني³ في كتابه: النكت في إعجاز القرآن: «والفواصل: هي تتبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها».

ولا يراد بالفاصلة القرآنية مراعاة الحروف فحسب، وإنما يراد المعنى قبل ذلك، ويلتقي الحرف بالمشابهة اللفظية مع المعنى، وأحيانا لا يراعي القرآن الكريم الفاصلة؛ بل قد تأتي مغايرة عن غيرها، وهذا دليل على أن المقصود بالدرجة الأولى هو المعنى.

فالقرآن يُعنى بالانسجام الموسيقي للفاصلة القرآنية لحد بعيد، مثل قوله تعالى: ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾⁴، وقوله أيضا: ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾⁵، بل ويمد فيما يُرى أنه لا مد فيه، كقوله: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَوَارِيرًا﴾⁶، وليس التقديم والتأخير، أو الخروج عن بعض ما لا ترومه اللغة، هو لأجل مراعاة الفاصلة؛ بل هو مراعاة للمعنى، ومنه تناسب الفاصلة مع الكلمات والموضوع، فالقاعدة الأساسية في فواصل الآيات أن فاصلة الآية متوافقة مع كلماتها ومتناسبة مع موضوعها، فأيات البشارة تحتم بالرحمة، وآيات التهديد تحتم بالترهيب، وآيات التخويف تحتم بالرجاء... وهكذا.

ونشير هنا إلى بعض الحروف التي لم ترد في أي فاصلة قرآنية⁷:

1 - المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

2 - أبو الحسن الرماني، ومفهومه للإعجاز القرآني، للدكتور: أحمد جمال الدين العمري، ص: 07.

3 - هو علي بن عبد الله أبو الحسن الرماني الإخشيدي الوراق، ولد الرماني سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة ببغداد أو سامراء، وشغل بطلب العلم وتحلق في حلقات شيوخ عصره مثل أبي بكر ابن دريد، وأبي بكر السراج. والزجاج. وغيرهم من أساتذة اللغة والنحو، صنف الرماني مجموعة ضخمة من المصنفات والمؤلفات، قدرتها بعض المصادر بما يقرب من مائة كتاب، معظمها في علم النحو، مثل: "النكت في إعجاز القرآن"، و"ألفات القرآن"، و"شرح معاني القرآن للزجاجي"، و"شرح كتاب سيبويه"، وهي أكثر من 100 مؤلف. انظر: طبقات النحويين، (مصدر سابق)، ج1، ص: 211.

4 - سورة الفرقان، الآية: 01.

5 - سورة الفرقان، الآية: 02.

6 - سورة الإنسان، الآية: 15.

7 - أ.د. محمد زكي خضر، مجلة الفرقان، العدد الثالث والثلاثون، جمادى الأولى / جمادى الآخرة 1425هـ، تموز / آب

2004م، على مائدة النبوة، حروف الفاصلة القرآنية؟

حرفان: الحاء والغين، (جرب مخرجيهما -الواقع في وسط الحلق- يعفك عن ذكرهما في اللغة ناهيك عن ذكرهما في القرآن).

- أما الحروف التي وردت مرة واحدة في القرآن كله فهما حرفا: الضاد والحاء.

حرف الضاد:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنُنَّا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (51/فصلت)

حرف الحاء:

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (1/النصر)

- أما الحروف التي وردت مرتين في القرآن كله فهي حروف التاء والذال والشين

حرف التاء:

في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (11/الضحى)، و﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (4/القارعة)

حرف الذال:

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ (69/هود)، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (108/هود)

حرف الشين:

في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (5/القارعة)، وفي قوله: ﴿لَا يَلَافُ قُرَيْشٍ﴾ (1/قريش)

- وقد ورد حرف الفاء ثلاث مرات:

حرف الفاء:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ (8/الذاريات)، وقوله: ﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ (2/قريش)، وقوله أيضا: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَعَاءَمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ (4/قريش).

كما وردت واو الجماعة في ثلاث آيات:

في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (3/النساء)، وفي قوله: ﴿قَالَ يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ (92/طه)، وقوله أيضا: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (62/النجم).

- أما الحروف الأخرى التي وردت في فواصل الآيات ويقل عدد مرات ورودها عن عشرة فهما حرفا الجيم والكاف:

حرف الجيم:

قال تعالى: ﴿...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (5/الحج)، وقوله تعالى: ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (58/ص)، وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ (5/ق)، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (6/ق)، وقوله: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (7/ق)، وقوله: ﴿رَزَقْنَا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (11/ق)، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ (42/ق)، وقوله: ﴿مَنْ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ (3/المعارج)، وقوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ (1/البروج).

حرف الكاف:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ (7/الذاريات)، ﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ (9/الذاريات)، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (7/الانفطار)، ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ (8/الانفطار)، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (1/الشرح)، ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ (2/الشرح)، ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ (3/الشرح)، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (4/الشرح).

- وأما باقي الحروف فتكررت عشرات المرات لما تحمله من معنى صوتي يضاف إلى معناها المعجمي. ومن الأمثلة على ذلك ما استجد في كتب المتأخرين الذين من الله بهم على هذه الأمة أمثال: الأستاذ الشيخ محمد عبده، ومحمد مصطفى المراغي، ومحمود شلتوت، والشعراوي، وغيرهم، وفي تونس العلامة محمد الطاهر بن عاشور، ومحمد الخضر حسين، وفي السعودية فضيلة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، والدوسري، وابن عثيمين، وغيرهم، وكذا في باقي الأقطار الإسلامية.

ومن ذلك ما ذكره الدكتور حسن باجودة حول فاصلة سورة الفرقان فقال: "فلو أنعمت النظر في سورة الفرقان هذه لتبينت جنوح بعض الأجزاء نحو العنف والصخب، ويبدو ذلك حتى نهاية القسم الرابع من السورة⁽¹⁾، حيث تركزت فاصلة الرء فجاءت في ثلاث وأربعين آية من اثنتين وستين .

وفاصلة الرء أشد فواصل السورة الخمس قوة، والمعروف أن هذه الأقسام الأربعة تطبع بصفة الإنذار التي أشارت إليها الآية الأولى من السورة الكريمة: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾⁽²⁾، ولتبينت أيضاً جنوح بعض الأجزاء نحو الهدوء والهمس، ويبدو ذلك واضحاً في القسم الخامس والأخير من السورة الذي يتعامل بالدرجة الأولى مع عباد الرحمن، والذي يتكون من خمس عشرة آية، حيث جاءت فاصلة حرف الميم، وهو من الحروف الرخوة، اثنتي عشرة مرة من أربع عشرة مرة جاءت فيها هذه الفاصلة في السورة، أما الآيات الثلاث الباقية في القسم فقد كان من نصيب فاصلة النون آيتان، والباء آية واحدة³ .

ولقد بدلت بدوري جهداً مقلاً، -ولا أدعي فيه الاستيفاء- في الكشف عن الفاصلة في سورة الحج فكان هذا المثال الذي أسوقه إليكم:

لقد حاولت بقدر طاقتي أن أكتب في موضوع الفاصلة في سورة الحج، ولست أزعم أنني وفيت ما فيها من معاني، ومن لطائف تخدم موضوعات سورة الحج، ولعلي فتحت باباً للبحث عن الفاصلة في سورة معينة، حتى يأتي من يواصل هذا الجهد من طلبة العلم، ولهذا حاولت أن أتبع فواصل سورة الحج، فلاحظت أن حروف القلقلة قد تكررت في السورة خمسة وعشرين مرة، وهي: الدال والقاف والجيم والباء والطاء، كلها في نصف السورة الأول، من الآية الأولى إلى الآية الخامسة والأربعين، نحو شديد، مريد، الحريق، العبيد الجلود، ثمود، لوط... الخ، وقد ناسب هذا الترتيب الحديث في بداية المقطع الأول عن الأهوال والزلازل الذي توعد الله به الناس الذين لم يؤمنوا بالبعث، ولم يحققوا التقوى التي أمرهم الله بها في أول السورة في قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾⁴، ولا تصاف هذه الحروف بصفات الشدة والقوة، فقد ناسب تذييل الآيات بها، وذلك لتخويف الناس وحثهم على التقوى

¹ - يعني من أول السورة الكريمة إلى الآية رقم (62) قبل بداية الحديث عن صفات عباد الرحمن .

² - سورة الفرقان الآية: 1 .

³ - تأملات في سورة الفرقان، حسن باجودة، ص: 18، 19 .

⁴ - سورة الحج، الآية: 01.

التي هي مدار حديث السورة كلها، لما في هذه الحروف من صفات توحى بالتقريع والزجر والتخويف والتهويل، كما سنؤكده بعد قليل.

وتكررت حروف الهمس أيضا بنفس العدد، وهي: حرفا النون والميم، وقد جاءت كلها تقريبا في الجزء الثاني من السورة، أي من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الثامنة والسبعون، يعني إلى آخر سورة الحج، وإذ تقتضي تلك الحروف الخفة واللين والرخاوة والاستفال، فهي أنسب أن تأتي في موضع الحديث عن تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم، وإرجاء مصير الكفار إلى يوم القيامة، وإمهال الذين لم يؤمنوا حتى تتضح لهم الآيات، وحتى يتوبوا إلى الله عز وجل، ولهذا الإرجاء والإمهال تلميح في قوله تعالى في الآية الثامنة والأربعين: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقوله في الآية التي بعدها: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ ثم يقول في التي بعدها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.... وهكذا، كل الآيات بعدها بنفس الأسلوب، طبعاً هذا يخدم الدعوة إلى الله، وإلى تحصيل وتثبيت الإيمان والتقوى ويهدي إلى الطريق المستقيم، وذلك بإمهال العصاة والكفار، وإعطائهم فرصة من الوقت الكافي لمراجعة العقل والنفس، كما قال تعالى في الآية الرابعة والخمسين: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وقوله تعالى في الآية السادسة والخمسين: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، وكل هذا يستدعي أن يكون أسلوب القرآن أسلوب لين وبيان في مثل هذه المواقف، لا سيما المواقف التي يتعلق بها مصير الناس يوم القيامة، ليتمكن القاصرون والجاهلون من اللحاق بركب المؤمنين الذين أمرهم ربهم بالاستقامة والمشى على صراطه المستقيم، ومن ثم إقامة العبودية والطاعة، وهذا من تمام رحمة الله عز وجل بعباده.

ثم أن تكرار حرفا النون والميم يحدثان غنة في مخارجهما، فترى فيهما أنه من ندم وموسيقى من حزن، وحسرة على الكافرين، في الفواصل مثل: الجحيم، وعقيم، ومهين.... الخ.

وفيها أيضا بالمقابل بشرى وأمل وسعادة ونعيم بالنسبة للمؤمنين، في مثل قوله: ﴿رِزْقٍ كَرِيمٍ﴾، و﴿لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ و﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾... الخ.

ومما زاد هذا المعنى وضوحا تكرار فاصلة الراء التي أعيد ذكرها هي الأخرى خمسة وعشرين مرة، نفس عدد ذكر الفواصل الأخرى، فذكرت إحدى عشرة مرة في المقطع الأول، وأربعة عشرة مرة في

المقطع الثاني، حيث تخللت آيات العذاب والوعيد مرات قليلة، وتخللت آيات النعيم والإرجاء والمصير والعفو مرات كثيرة، وذلك والله أعلم لخلق توازن بين آيات السورة كلها؛ آيات العذاب وآيات النعيم بطريقة لطيفة رائعة قل من ينتبه لها أو يحس بها، ذلك أن حرف الراء وهو من الحروف المستفلة؛ إلا أن العلماء شبهوه بحروف الاستعلاء التي تقتضي التصعد والقوة، وهو ليس بحرف استعلاء ولكنه قريب منها، قال ابن بري¹:

ورقق الأولى له في بشرر
ولا ترققها لدى أولى الضرر
إذ غلب الموجب بعد النقل
حرفان مستعلٍ وكالمستعلي
والمقصود بالمستعلي: حرف الضاد، وكالمستعلي: حرف الراء من قوله "أولى الضرر".

فتخلل هذه الفاصلة الفواصل الأخرى يخدم المعنى جيدا، وهو يحافظ من جهة أخرى على ذلك التوازن والانسجام في موسيقى السورة إن صح التعبير، وفي بناء نظم السورة من أولها إلى آخرها، فأحيانا تستعمل هذه الفاصلة في الوعد والوعيد كما في قوله في الآية الرابعة: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، وكما في قوله في الآية السابعة: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ وقوله معنا الذين يشهدون الزور في الآية الثلاثين: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾، وأحيانا أخرى بل وفي أكثر الأحيان في الإرجاء والإمهال والدعوة إلى الثبوت وإعمال العقل للرجوع إليه عز وجل: وذلك في مثل قوله في الآية التاسعة والخمسون: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُو غَفُورٌ﴾، وقوله أيضا في الآية الثانية والستون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾... وهكذا.

بالإضافة إلى أربعة فواصل وهي حرف الظاء في الآية الخامسة عشرة، والهمزة في الآية الثامنة عشرة، والزاي في الآية الأربعين، والآية الثالثة والسبعين، وقد تفرقت في السورة كلها، محدثة زيادة في التوازن والتشاكل، ومبينة أن المعنى هو الفيصل وليس شيئا آخر.

وأما تحليل بعض اختلاف فواصل الآيات في سورة الحج، فلموافقة المعنى، حيث يقول الله تعالى في الآيات الثامنة والخمسون، والتاسعة والخمسون والتي بعدها:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (58) ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ هذان الاسمان يناسبان الآية: (عليم) قال

¹ - ابن بري، درة المتون في قراءة الإمام نافع، شرح: أحمد رحمانى، دار الامام مالك، 1420هـ، 1999م، طبعة، الجزائر، ص:

تعالى: ﴿لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ﴾، فعندما قال (يرضونه) إذن ينبغي أن يعلم ما يرضيهم، ثم هؤلاء الذين هاجروا في سبيل الله ينبغي أن يعلم بأحوالهم وأحوال أعدائهم.

وأما ﴿حليم﴾ فلا يعاجل أعداءهم بعقوبة، لأن الله تعالى حليم، فحلمه هو ذاك الحلم الذي لا يعجل بالعقوبة ويُمهل.

وفي الآية الستون في قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، هو عاقب بما عوقب به، ثم بغى عليه، لكنه لم يعاقب الآن، ولكنه فقط بغى عليه، لم ينصره أحد فقال: (إن الله لعفو غفور)، ولما قال تعالى (إن الله لعفو غفور) إشارة إلى أنه إذا عفا وغفر نصره الله، لأن الله تعالى يقول له ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾¹ ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾²، فعندما قال بغى عليه ولم يأخذ بحقه، معناه أنه عفا وغفر، ففي الأولى قال عوقب فعاقب، ثم لما بغى عليه لم يأخذ حقه، وبما أنه عفا وغفر فقد نصره الله، ثم قال (لعفو غفور) يعني تخللوا بأخلاق الله تعالى، فالله عفو غفور فأنت اعف واغفر، وهذا تلميح لنا لأن نعفو ونغفر، وأن لا نعجل بالعقوبة، فهذا توجيه للمؤمنين أن يتصفوا بصفات الله عز وجل، وخلاصته أن المؤمن لم يعاقب ولم يأخذ بحقه، وإنما عفا وغفر، والله عفو غفور، فقال: ﴿لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

وفي قوله تعالى في الآية الواحدة والستون: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ فالليل آتته السمع لا الإبصار، وأما النهار فالسمع والإبصار، والله سبحانه وتعالى في الليل والنهار سميع بصير، فالآية مرتبطة بقوله تعالى (يولج الليل في النهار) ومرتبطة بما قبلها أيضا في قوله: (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) يسمع ويرى من عاقب ومن عوقب، ثم قال (لينصره الله) والناصر ينبغي أن يسمع ويرى وإلا كيف ينصر؟. ومرتبطة بالليل والنهار وآيتهما السمع والبصر.

وفي الآية الثانية والستون في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ الناصر لمن بغى عليه والذي يولج الليل والنهار والسميع البصير ليس هو العلي الكبير؟ بلى.

¹ - سورة الشورى الآية: 40.

² - سورة البقرة، الآية: 237.

ونحن نقف أمام هذا الترابط بين هته الفواصل ومعاني الآيات وأخذها بأعناق بعض، فليس لنا إلا أن نسلم وأن نتقي صاحب هذا الكلام، ونخافه ونرجوه، سبحانه وتعالى عما يشركون، ونواصل مع الآية الثالثة والستين، حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، لطيف أي متفضل على العباد، يلطف بهم بإيصال منافعهم، وأن تصبح الأرض مخضرة فهذا من لطفه سبحانه بالخلق أيضا، وخبير أي عليم بدقائق الأمور، وبمصلحتهم، فيلطف عن خيرة بالمقادير التي يفعلها وعن حكمة، فعندما أنزل من السماء ماء لتصبح الأرض مخضرة فهذا لطف منه بالعباد كلهم، وعليم بالمقادير التي قدرها لهم فهو خبير لطيف، والله أعلم.

وهذه لمسة بيانية أخرى تبين علاقة الفاصلة بالمعنى، حيث يقول الله عز وجل في الآية الرابعة والستين: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، الذي له ما في السموات والأرض من أغنى منه؟! لا أحد، وقطعا هو سبحانه الغني الحميد، فالحميد هو المحمود في غناه، لأنه قد يكون الشخص أحيانا محمودا في فقره ولا يُحمد في غناه، لأنه قد يتغير، وكثير من الناس تغيروا لما صاروا أصحاب أموال، أما الله سبحانه وتعالى فهو المحمود في غناه وفي كل شيء، ولذلك كثيرا ما يجمع الغني والحميد في القرآن، مثل قوله في سورة لقمان: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾¹ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾².

ونكتفي بعد ذكر هذا المثال في الآية الخامسة والستين من السورة حيث يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يقول الدكتور فاضل السامرائي: «فلو لم يرأف بهم ما أمسك السماء، وما سخر لهم ما في الأرض والبحر، فإمساكه للسماء، وتسخييره الفلك وما في الأرض كلها رأفة ورحمة بالعباد، فناسب أن تكون الفاصلة موافقة للمعنى وهي: ﴿لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾»³.

وأخيرا نلاحظ كيف أن الفاصلة تخدم الموضوعات الرئيسية للسورة، وتساعد على معرفة المعنى الحقيقي، وتوضح المناسبة بين مقاطع السورة، وكذا بين مواضع السورة في سياق واحد وانسجام

1 - سورة لقمان، الآية: 12.

2 - سورة لقمان، الآية: 26.

3 - فاضل السامرائي، لمسات بيانية، (مصدر سابق)، ص: 63.

أن يتقوه، وأما المعنى الثاني، فهو أسلوب خبري أخبر عن حقيقة هذا الشيء، ولكن أثره فيه واضح جلي، إذ يحمل المعنى الثاني الناس على الاستحابة للمعنى الأول الذي خوطبوا به، وهو نداء الناس لتحقيق التقوى، وذلك بذكر الزلزلة ووصفها بالشيء العظيم، وتنكير هذا الشيء أيضا هو زيادة في التخويف والتهويل، لأن الإنسان مفطور على الخوف من المجهول، كما أن القرآن يتوقع من المخاطب سؤالا عن هذا الشيء المبهم، فنأتي الإجابات بعد ذلك في الآيات اللاحقة في قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾، ثم يأتي ذيل هذه الآية مناسب تماما لهذا الوصف والتفصيل، حيث يحمل تلك المعاني في معنى واحدا هو أن كل من الدهول، والوضع بغير ميعاد، والترنح في المشي، هو لون من ألوان العذاب الشديد الذي خوف الله به عباده، فقال: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، فسبحان الذي ألف بين معاني هذه الآيات.

ثم انظر لقوله تعالى في الآيات التي جاءت بعد ذلك كيف وافقت تذييلاتها بداياتها في تناسق دقيق، وسرد متوافق متين، ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فمن كان على مثل هذا الوصف من الناس، فهو على خطى الشيطان، الذي كان أول مجادل في الله بغير علم، عندما طلب الله منه السجود لآدم، ولهذا ذيلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، الذي كتب الله عليه وعلى من تولاه، وسار سيره، وانتهج نهجه، عذابا يوم القيامة، ولهذا جاء ذيل الآية التي بعدها يؤكد ذلك فقال تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

وألطف من ذلك ما نراه في الآية الخامسة من السورة التي تحدثت عن البعث، وعن أدلته، حيث بدأت باستفهام قصده التنبيه على ما سيأتي من تفصيل لمراحل الخلق، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ﴾، حيث يبدؤه الله من التراب إلى أن يصير إنسانا كاملا متكاملا، وهي دعوة لإعمال العقول والأبصار والأسماع، فقال: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، ثم ذيلت الآية بالحديث عن إحياء الأرض بعد موتها، وكيف أن الله يتزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، حيث تهمز وتربوا وتنتب من كل زوج بهيج، في قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، فناسب هذا التذييل بداية الآية، لأن المقصود من

ذكر هذه المراحل من الخلق، إنما هي للوصول إلى نتيجة مشتركة بين النبات والإنسان، وهي الإحياء بعد الإماتة، وقد انصرفت الآية من دليل عقلي إلى دليل أوضح منه، وهو الدليل المرئي السبي على النظر والبصر، إذ لا يتسنى لكل واحد من البشر الإطلاع على مراحل تشكل الخلق في الأرحام، إنما المتسنى لكل إنسان النظر في تقلب الأيام واختلاف الفصول، وما يحدث للنبات فيها من اصفرار بعد احضرار، ومن حياة بعد موت، وهو دليل معهود مشاهد، فهو برهان أقوى من بقية الأدلة، حيث يقيم به الله الحجج على جميع الخلق، مؤمنهم وكافرهم، عالمهم وجاهلهم، ليؤمنوا ويتقوا.

ومما جاء من ذلك في الكتاب العزيز متضمناً القسامين معاً قوله تعالى: ﴿إِن اللّٰهُ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل اللّٰه فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من اللّٰه﴾¹، ففي هذه الآية الكريمة تذييلان: أحدهما قوله تعالى: "وعداً عليه حقاً"، فإن الكلام قد تم قبل ذلك، ثم أتى سبحانه بتلك الجملة لتحقيق ما قبلها، والآخر قوله سبحانه: "ومن أوفى بعهده من الله"، فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر لتحقيق ما تقدمه، فهو تذييل ثانٍ للتذييل الأول، وقد جاء في السنة من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم: "من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن هم بسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك"²، فقوله (ﷺ): "ولا يهلك على الله إلا هالك"، تذييل في غاية الحسن، خرج الكلام فيه مخرج المثل³.

ومن أقرب المصطلحات للتذييل⁴:

- 1- ذكر الخاص بعد العام، قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى﴾.
- 2 — ذكر العام بعد الخاص، قال تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾.

1- التوبة: الآية: 111.

2 - الحديث: أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: 187، 323/1.

3 - تحرير التحبير: 1/ 77.

⁴ - من أسرار التذييل في آي من التزييل من الآية: 189 إلى الآية: 202 من سورة البقرة، إعداد/ د. رمضان خميس زكي الغريب، جامعة الأزهر، 2004م.

3 — توضيح الكلام المبهم بما يفسره، قال تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾.

4 — التوشيح، وهو أن يؤتى بمثنى يفسره مفردان، كقوله (عليه السلام): العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان).

5- الإيغال: بأن يختم الكلام بما يفيد نكتة يتم بدونها المعنى، قال تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾.

6- الاحتراس: وهو أن يأتي بكلام يوهم بخلاف المقصود، فيأتي بما يدفع الوهم، وهو على نحوين:

أ: إنه قد يأتي به وسط الكلام، كقوله: فسقى ديارك غير مفسده، صوب الربيع وديمة تهمي .

فقد قال: (غير مفسده) دفعا لتوهم الدعاء للمطر عامة حتى المفسد منه.

ب: وقد يأتي به آخر الكلام، كقوله: حلِيم إذا ما الحكم زين أهله، مع الحلم في عين العدو مهيب.

7 — التتميم، وهو زيادة مفعول أو حال أو نحوهما؛ ليزيد حسن الكلام، كقوله: دعونا عليهم مكرهين، وإنما دعاء الفتى المختار للحق أقرب، فـ (مكرهين) يزيد حسن الكلام كما لا يخفى.

8 - تقريب الشيء المستبعد وتأكيده لدى السامع نحو قوله: (رأيته بعيني يفعل كذا)، (وسمعته بأذني يقول كذا).

9- الدلالة على الشمول والإحاطة، قال تعالى: (فخرّ عليهم السقف من فوقهم)؛ فإنّ السقف لا يخرّ إلاّ من فوق، لكن بذكره (من فوقهم) دلّ على الشمول والإحاطة.

وكل هذا يزيد في درجة إعجاز النص القرآني، ويدل على روعة السبك والانسجام التام في النظم القرآني.

ومن أنواع مناسبة تذييل الآيات:

1-التناسب في ختم آيات القرآن بأسماء الله الحسنى

من أنواع التناسب المعنوي في القرآن الكريم، تذييل الآيات بأسماء الله تعالى وصفاته، فترى آيات الرحمة محتومة بأسماء الرحمة، وآيات العذاب محتومة بأسماء العزة، والقدرة والحكمة، والعلم، والقهر، وهكذا، فهنالك تناسب دقيق، محكم وحكيم، ورباط وثيق يجمع بين الآيات وما خُتمت به من أسماء أو صفات، ومعلوم أن الله تعالى تسعا وتسعين اسما سمي بها نفسه من أحصاها وعمل بها أدخله الله الجنة، وقد ورد

حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في أكثر من خمسين موضعاً من كتب السنة يرفعه إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث قال: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"¹، وهذا مبحث لطيف موجز يكشف لنا هذه الصورة، ويشير إلى هذه الحقيقة، وقد اهتم بهذا الأمر الباحث عبد العزيز الداخل، في كتاب بعنوان: "المرتبة الأسنى لأسماء الله الحسنى"، جمعها وأعدّها من كتب ابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى.

ولا شك أن ختم الآيات بأسماء الله تعالى وصفاته جاء على ذلك النحو لتحقيق أغراض خاصة ومقاصد عظيمة ومنافع جليلة تعز عن الحصر، وتستعصي على العد، فمنها: أ - إعلام العباد أن كل الأمور صادرة عن الله تعالى: ب - معرفة آثارها في اختيارات الإنسان: ج - تحقيق الطمأنينة في نفس المكلف لإيمانه بحكمة المشرع: د - تحقق الاستفادة من طريقة معاملة الله لعباده.

ولكن قد تتغير هذه الأسماء والصفات بذكر العزة والحكمة بعد المغفرة مثلاً، أو بتقديم الحكمة على العلم تارة وتأخيرها تارة أخرى، فيُستشكل أمرها على غير المتدبر للقرآن الكريم، وسأذكر في هذا المقام موضعاً واحداً من القرآن الكريم مما استشكل تذييل بعض الآيات بأسماء وصفات الله تعالى توهم القارئ بأنها جانبت موضعها والحقيقة خلاف ذلك، في محاولة مني جريئة الكشف عن تناسبها في ذلك المقام رافعا بإذن الله ما استشكل فيها، وهو:

قوله تعالى في سورة المائدة في قصة عيسى -عليه السلام-: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾² فرمما قيل: إن المناسب هنا هو: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم؟ يقول القرطبي في تفسيره: "وقال: فإنك أنت العزيز الحكيم ولم يقل: فإنك أنت الغفور الرحيم على ما تقتضيه القصة من التسليم لأمره، والتفويض لحكمه، ولو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم لأوهم الدعاء بالمغفرة لمن مات على شركه، وذلك مستحيل؛ فالتقدير إن تبقيهم على كفرهم حتى يموتوا وتعذبهم فإنهم عبادك، وإن تهدمهم إلى توحيدك وطاعتك فتغفر لهم فإنك أنت العزيز الذي لا يمتنع عليك ما تريده؛ الحكيم فيما تفعله"³. وربما أعالج هذا الموقف من نظرتي القاصرة مبتدأ بما جاء في سورة مريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ

1- الحديث مُخْرَجٌ فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ ذِكْرِ الْأَسْمَاءِ وَدُونَ سَرْدِهَا.

2- سورة المائدة، آية: 118.

3- تفسير القرطبي، ص: 292.

وتخر الجبال هدا (90) أن دعوا للرحمن ولدا (91) وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا (92) إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا (93) لقد أحصاهم وعدهم عدا (94) وكلهم آتية يوم القيامة فردا (95) ¹.

قال ابن عباس وكعب: فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين وكادت أن تزول وغضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا: اتخذ الله ولدا²، ويقول الطبري: "تكاد الجبال أن تخر انقضاضا، لأن دعوا للرحمن ولدا"³، وقال ابن كثير: "وقال الضحاك: (تكاد السماوات يتفطرن منه)، أي: يتشققن فرقا من عظمة الله، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: (وتنشق الأرض) أي: غضبا لله، عز وجل، (وتخر الجبال هدا)، قال ابن عباس: هدا، وقال سعيد بن جبير: (هدا) ينكسر بعضها على بعض متتابعات"⁴.

وبما جاء في سورة المائدة قال تعالى: ﴿وَإِذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ المائدة 118.

والعلاقة بين الآيات من سورة مريم وهذه الآية واضحة إذ أن بني إسرائيل نسبوا لله الولد واتفقوا على عبادته بل وأمه أيضا، فإن الله لم يغضبه شيء من عباده كغضبه منهم حين نسبوا له الولد -تعالى

¹ - سورة مريم، الآيات: 88-95.

² - الحسين بن مسعود البغوي تفسير البغوي، دار طيبة، ص: 258.

³ - محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، دار المعارف، ص: 260.

⁴ - تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، سنة النشر: 1422هـ / 2002م، ص: 266.

الله عما يصفون- ما بالك حينما عبدوا هذا الولد واتخذوه وأمه إلهين يعبدونهما من دون الله، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن الله قد توعد في سورة المائدة بني إسرائيل بعذاب لم يعذبه أحدا من العالمين إذا هم كفروا بعد إظهار المعجزة لهم، حيث شهدوا نزول المائدة من السماء وأكلوا منها.

وعليه فإنهم لم يتركوا سماً للخياط، ولا مثقال ذرة من شيء يحاجون به يوم القيامة، وقد بلغوا بكفرهم مبلغاً لا يضاهيه كفر لا من بعده ولا من قبله، فماذا بعد هذا الوعد والوعيد، وبعد الإثبات بالمعجزات والإمهال؟ من أين تأتيهم المغفرة والرحمة، خاصة وأن الله قد عدّهم وأحصاهم وعلم أنهم ماتوا على كفرهم، وربما أعلم عيسى عليه السلام بهذا بعد أن توفاه الله إليه.

شيء آخر لاحظته من خلال الآية وهو تقديم العذاب (إن تعذبهم)، وتأخير المغفرة (وإن تغفر لهم) - عكس ما يأتي عموماً في مثل هذه الآيات من تقديم المغفرة على العذاب- يوحي لك أن العذاب مصيبيهم لا محالة حال كونهم ماتوا على الكفر، وهذا إيذان قبل نهاية الكلام بسخط الله عليهم، فناسب تغاير التذليل بما يستحقونه، لأن الله عزيز عن عبادتهم حكيم في إصدار حكم بحقهم، فافتضى تحقيق الجزاء المترتب على كفرهم بعد إيمانهم، وشركهم عند اتخاذ عيسى عليه السلام- إلهما من دون الله. والله أعلم.

2- الفرق بين تذييل الآية بـ: "والله خير بما تعملون" و"والله بما تعملون خير":

وهذا أقرب ما يكون من باب تناسب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، وقد اهتم بهذا النوع ابن القيم الجوزية في كتابه: بدائع الفوائد.

ولنضرب مثالا على ذلك:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾¹ فما سبب تقديم كلمة "خير" على "بِمَا تَعْمَلُونَ" والجواب هو أن الأعمال التي طلبها في السياق فيها معاني الخفاء والإسرار والنيات في الأعمال مثل الصلاة، والزكاة كذلك، وطاعة الله ورسوله، فهي أعمال قلبية لا يطلع عليها إلا الله عز وجل، فهو الخير بصدق أو كذب أصحابها، فافتضى الحال تقديم "خير" على "ما تعملون".

¹ - سورة المجادلة، آية: 13.

أما عبارة التذييل (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾¹، فالتربص بعد هلاك الزوج أمر ظاهر، وعمل لا يخفى على الآخرين، فاقترضى الحال تقديم العمل على خبير. والله أعلم.

والقاعدة التي نستخلصها هنا: هو إذا كان السياق في عمل الإنسان يقدم العمل (والله بما تعملون خبير)، وإذا كان السياق في أمور قلبية أو عن الله سبحانه وتعالى يقول: (خبير بما تعملون).

3- اللف والنشر:

وهو ذكر عدة أشياء على سبيل الإيجاز، ثم ذكرها على سبيل التفصيل، وهذا لون من ألوان البديع، وهو قسمان:

1. اللف والنشر المرتب، وهو الأصل: وهو ذكر الأشياء المتعددة، ثم ذكر ما يتصل بها على سبيل الترتيب، الأول للأول، والثاني للثاني، وهكذا..

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾، فقد جمع في هذه الآية الليل والنهار أولاً، ثم ذكر السكون ليل وابتغاء الرزق للنهار على الترتيب.

2. اللف والنشر (المعكوس)، وهو الفرع، ويعدّ خروجاً عن الأصل: وهو أن نذكر الأشياء ثم نذكر ما يتصل بها، ولكن لا على سبيل الترتيب، فربما نذكر المتقدم للمتأخر، والمتأخر للمتقدم، وهكذا... وذلك لنكتة بيانية.

كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾².

هذه الآية الكريمة من النوع الثاني، وعدم الترتيب فيها لنكتة بيانية، ذكرها المفسرون:

جاء في التحرير والتنوير:

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ تفصيل للإجمال السابق، سلك فيه طريق النشر المعكوس، وفيه إيجاز لأن أصل الكلام، فأما الذين اسودت وجوههم فهم الكافرون يقال لهم أكفرتهم إلى آخر: وأما الذين ابيضت وجوههم فهم المؤمنون وفي رحمة الله هم فيها خالدون، قدّم

¹ - سورة البقرة، آية: 234.

² - آل عمران، الآية: 106.

عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشرifaً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً عظيماً في يوم فيه نعيم عظيم، ثم قُدّم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم¹.

4- التقديم والتأخير:

ومن أسرار التقديم والتأخير في القرآن الكريم بلاغة تدل على حسن النظم وإعجاز اللفظ في كتاب الله الكريم، وتركيب آياته سبحانه وتعالى، ففي قوله تعالى: ﴿وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾، حيث قدم الفاضل على المفضول، يقول ابن القيم في بدائع الفوائد: «ومن المقدم بالرتبة قوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾، لأن الذي يأتي راجلاً يأتي من المكان القريب، والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد، على أنه قد روى عن ابن عباس أنه قال: "وددت أني حججت راجلاً، لأن الله قدم الرجالة على الركبان في القرآن" فجعله ابن عباس من باب تقدم الفاضل على المفضول، والمعنيان موجودان»².

وعن الفائدة الموجودة في هذه الآية، التي تقدمت فيها بعض الألفاظ على أخرى يقول ابن الجوزية: «وأما تقديم الرجال على الركبان، ففيه فائدة جلييلة، وهي أن الله شرط في الحج الاستطاعة، ولا بد من السفر إليه لغالب الناس، فذكر نوعي الحجاج، لقطع توهم من يظن أنه لا يجب إلا على راكب، وقدم الرجال اهتماماً بهذا المعنى وتأكيده، ومن الناس من يقول: قدمهم جبراً لهم، لأن نفوس الركبان تزدر بهم، وتوبخهم، وتقول: إن الله لم يكتبه عليكم ولم يرد منكم، وربما توهموا أنه غير نافع لهم، فبدأ بهم جبراً لهم ورحمة»³.

وليس هذا فقط، وإنما الحج هو رفعة وعلو عند الله، لأنه مدعاة إلى مغفرة الذنوب، ومعناها أن السائر إلى طريق الحج يرتفع عند الله منزلة، وكلمة فج وعميق أنسب من بعيد، وبينهما مناسبة، لأن

¹ - التحرير والتنوير، ج4، ص: 44.

² - ابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي للنشر، الطبعة الأولى، سنة: 2002م، تحقيق: عدنان درويش، الجزء1، ص: 50.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 55.

كونه يأتي من فج عميق فضاير، وعميق أنسب مع الحج، لأنها ارتفاع، والحج ارتفاع عند الله، وكلمة بعيد لا تعطي هذا المعنى قطعاً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

التناسب الموضوعي

جامعة الأمير
عبد القادر
للعلوم الإسلامية

المبحث الأول: تناسب الآيات

رأينا في الباب السابق أن ترتيب الآيات تم بأمر من رسول الله ﷺ، فهو توقيفي لا شك في ذلك، وهذا ما يجعل هذا التناسب بين آياته وجها من أوجه إعجازه، وقد كتبت في هذا المبحث: تناسب الآيات؛ أي بين الآية والآية تحت مبحث التناسب الموضوعي باعتبار أن الآية يمكن أن تمثل موضوعا معيناً مستقلاً كآية الدين، وآية الكرسي... وغيرهما.

والآية في اللغة: أصلها أيبة على فعلة عند سيبويه¹، وآية على مثال فاعلة عند الكسائي²، وأيبة على وزن فعلة عند بعض، وأيبة عند الفراء³، وتعني العجب والعلامة، وبمعنى الجماعة، وسميت آية القرآن لأنها علامة دالة على ما تضمنه من الأحكام، وعلامة دالة على انقطاعه عما بعده وعما قبله، أو لأن فيها عجائب من القصص والأمثال والتفصيل، ولأن كل آية جماعة من الحروف وكلام متصل المعنى إلى أن ينقطع، وينفرد بإفادة المعنى، والعرب تقول: خرج القوم بأياتهم أي بجماعتهم، وقال الشاعر:

خرجنا من النقيبين لا حي مثلنا ** بأياتنا نزجي اللقاح المطافلا⁴

¹ - هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، وسيبويه لقبه الذي به اشتهر، حتى طغى على اسمه، وكنيته، وهي كلمة فارسية تعني رائحة التفاح، وهو إمام النحاة، صاحب كتاب العربية الأشهر، فارسي الأصل، ولد سنة: 140هـ/756م، في مدينة البيضاء ببلاد فارس، على بعد ثمانية فراسخ من شيراز، رحل إلى البصرة فأصابه المرض بها فمات في الأربعين من عمره في طريقه إلى خراسان، سنة: 180هـ/794م. أنظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج6، ص: 238/239، ومعجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، ج2، ص: 584، مؤسسة الرسالة، (دون طبعة)، (دون تاريخ).

² - هو أبو الحسن علي بن حمزة بن عبد الله بن بهمن بن فيروز الأسدي مولاهم الكوفي الملقب بالكسائي، لكساء أحرم فيه، شيخ القراءة والعربية، تلا عن أبي ليلة، وعلي حمزة... وحدث عن جعفر الصادق، والأعمش وسليمان بن أرقم، واختار قراءة اشتهرت، وصارت إحدى السبع... وجالس في النحو الخليل بن أحمد الفراهيدي، له عدة تصانيف منها: "معاني القرآن" و"مختصر في النحو والقراءات"، مات بالري، بقرية أرنوبة، سنة: 189هـ، عن عمر 70 سنة. أنظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، دار الفكر، ج6، ص: 118.

³ - هو يحيى بن زياد الأقطع من مشاهير اللغويين والنحويين، وهو تلميذ الكسائي، ومعلما لأبناء هارون الرشيد من بعده، وهو إیراني، وكان أبوه زياد الأقطع في وقعة فخ، مع شهيد فخ الحسين بن علي بن الحسن المثنى، ففقطعت يده عقوبة له، ولذلك عرف بالأقطع، مات الفراء عام 207هـ./ أنظر: وفيات الأعيان، ج2، ص: 228، والأعلام للزركلي، ج8، ص: 146/145. والشبكة الإسلامية، مشاهير اللغة العربية، www.islamweb.net، تاريخ التحديث: 2006/02/28م.

⁴ - أي خرجنا بجماعتنا نسوق النوق وصغارها.

وقال في معنى العلامة:

إذا طلعت شمس النهار فسلمي** فأية تسليمي عليك طلوعها¹

وتطلق الآية ويراد بها أيضا:

المعجزة: قال تعالى: ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيْنَةٍ﴾²

العلامة: قال تعالى: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾³

العبرة: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً...﴾⁴

الأمر العجيب: قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَةَ آيَةً﴾⁵

البرهان والدليل: قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ...﴾⁶

2- تعريف الآية إصطلاحا:

نقل الزركشي عن الجعبري قوله: «حد الآية قرآن مركب من جمل ولو تقديرا، ذو مبدأ، أو مقطع مندرج في السورة، وأصلها العلامة... وقال غيره: الآية طائفة من القرآن، منقطعة لما قبلها وما بعدها ليس بينها شبه بما سواها. وقيل: هي الواحدة من المعدودات في السور، سميت بها لأنها علامة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها. وقيل لأنها علامة انقطاع ما قبلها من الكلام وانقطاعها عما بعدها»⁷.

وجاء في مناهل العرفان: الآية هي: «طائفة من ألفاظ القرآن ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة منه»⁸، والآية من القرآن هي جماعة من الكلمات، أو الحروف، كيفية بترتيب خاصة وصور مستقلة تحدث البشر فأعجزتهم⁹.

¹ - بصائر ذوي التمييز، الفيروز ابادي، (مصدر سابق)، ج1، ص: 86.

² - سورة البقرة: آية: 211.

³ - سورة البقرة: آية: 248.

⁴ - سورة الشعراء: الآيات: 8-67-103.

⁵ - سورة المؤمنون: آية: 50.

⁶ - سورة الروم: آية: 22.

⁷ - الزركشي، البرهان، (مصدر سابق) ج1، ص: 267.

⁸ - الزرقاني، مناهل العرفان، (مصدر سابق)، ج1، ص: 339.

⁹ - محمد الصديق، البيان، (مرجع سابق)، ص: 135.

والمناسبة بين هذا المعنى والمعاني اللغوية السابقة واضحة تماماً، فالآية القرآنية معجزة، وعلامة صدق من جاء بها، وعبرة لمن أراد أن يعتبر ويذكر، وفيها أيضاً معنى الجماعة لأنها مؤلفة من الألفاظ والحروف. وعدد آيات القرآن في المصحف المدني: ستة وثلاثون ومائتان وستة آلاف آية ما عدا البسملة في أول سورة براءة، وعدد حروفه: خمسة وأربعون وثلاث مائة وخمسة مائة وخمسة وعشرين ألف حرف¹. ونشير هنا أن ثمة إشارات قوية في تراثنا تُشير إلى أن السابِقين من أهل الصِّدْرِ الأول من الصَّحَابَةِ وكبار التَّابِعِينَ كانوا يَعْرِفُونَ أمرَ المُنَاسِبَةِ، ويهتمون بها في كتاب الله - تَعَالَى -، بما في سليقتهم من أفانين العَرَبِيَّةِ، ودقة إدراكهم لمرامي الكتاب العَزِيزِ.. وقد نقل البقاعي - رَحِمَهُ اللهُ - بعض الأثار الدَّالَّةَ على ذلك² فَمِنْهَا ما روى عبد الرَّزَّاق بِإِسْنَادِهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: "إِذَا سَأَلَ أَحَدُكُمْ صَاحِبَهُ كَيْفَ يَقْرَأُ آيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَلْيَسْلُهُ عَمَّا قَبْلَهَا"³، فِي إِشَارَةٍ مِنْهُ إِلَى أَنَّ مَا قَبْلَهَا يَدُلُّ عَلَى تَحْدِيدِ لَفْظِهَا، بِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ المُنَاسِبَةُ.

وَمِنْهَا ما رَوَى عَنِ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَنَّهُ حَدَّثَ أَنَّ قَوْمًا يَدْخُلُونَ النَّارَ ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَقَالُوا لَهُ: أَوْلَيْسَ اللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (المائدة/37) -؟ فَقَالَ لَهُمْ أَبُو سَعِيدٍ: اقْرَأُوا مَا فَوْقَهَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (المائدة/36)⁴.. وَفِيهِ تَنْبِيهُ لَهُمْ إِلَى مُرَاعَاةِ السِّيَاقِ، حَتَّى لَا يَضِلُّوا فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ المَجِيدِ، وَيَضْرِبُوا بَعْضَ آيَاتِهِ بِبَعْضٍ.

وَمِنْهَا ما رَوَى عَنِ مُسْلِمِ بْنِ يَسَارٍ - التَّابِعِيِّ الجَلِيلِ، رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا حَدَّثْتَ عَنِ اللهِ حَدِيثًا، فَقِفْ حَتَّى تَنْظُرَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ)⁵.

¹ - المصدر السابق، ص: 137.

² - انظرها في: مصاعد التَّظَر، ج 1/ ص: 154، 155.

³ - مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، رَقْم: (5988).

⁴ - أَخْرَجَهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِيمَا ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي (تَفْسِيرِهِ) عِنْدَ تَفْسِيرِ اللَّيْتِينَ (36) وَ (37) مِنْ سُورَةِ المَائِدَةِ، وَلَكِنْ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ.

⁵ - أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ 231/7، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي الحَلِيَّةِ 2/292.

أما ارتباط الآية بالآية¹، فينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: أن يظهر التناسب بين الآية الثانية والآية الأولى، كأن تكون الآية الثانية سببا للأولى، أو مفسرة لها، أو مؤكدة، أو بدلا، أو جاءت معترضة، إلى غير ذلك من وسائل الإرتباط، وهذا النوع لا يتطلب كثير جهد في استخراج المناسبة، ما دام الطالب لمعرفتها، واستخراجها، مستوفيا للشروط التي يجب توافرها في المفسر، لأن الترابط واضح.

ومن أمثلة هذا القسم:

أ: أن تكون الآية الثانية سببا للأولى: وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وعرهم في دينهم ما كانوا يفترون²، ووجه النظم: أنه تعالى لما قال في الآية الأولى: ﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون﴾، قال في الآية الثانية: ﴿ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات﴾ أي: ذلك التولي والإعراض إنما حصل بسبب أنهم قالوا: (لن تمسنا النار إلا أياما معدودات)³.

ب: أن تكون الآية الثانية تفسيرا للأولى: - وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾⁴. قال الآلوسي: «وترك العطف في النداء الثاني وهو: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ..﴾، لأنه تفسير لما أجمل في النداء قبله من الهداية إلى سبيل الرشاد، فإنها التحذير من الإخلاد إلى الدنيا، والترغيب في إيثار الآخرة على الأولى، وقد أدى ذلك فيه على أتم وجه وأحسنه»⁵.

ومثله قوله تعالى: ﴿إن الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا﴾⁶.

¹ - فقد ذكره السيوطي في الاتقان باختصار ودون أمثلة، ص: 695-696.

² - سورة آل عمران: الآيات/ 23 . 24 .

³ - الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (مرجع سابق) ، ج4 / ص234، و عبد العزيز ، د. سمير: الإيضاح والتبيين في علوم القرآن الكريم ، مطبعة الفجر الجديد، القاهرة . ص 1.

⁴ - سورة غافر: الآيات / 38، 39 .

⁵ - الآلوسي: روح المعاني(مرجع سابق): ج24/ ص 70، 71 . وانظر: عبد العزيز، سمير: الإيضاح والتبيين (مرجع سابق)، ص: 110 .

⁶ - سورة المعارج: الآيات: 19، 20، 21 .

فقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ... الْآيَاتِ﴾ تفسير لقوله: هلوعا، ويؤتى بالتفسير إذا كان في الكلام خفاء يحتاج إلى ما يكشفه ويبينه¹.

ج: أن تكون الآية الثانية تأكيدا للأولى:

مثل قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النُّجُوتِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾²

فقوله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ...﴾ تأكيد لما قبله، فقد كرر نداءهم إيقاظا لهم عن سنة الغفلة، واهتماما بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما تقابلون به دعوته³.

د: أن تكون الآية الثانية بدلا من الأولى: مثل قوله تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾⁴ .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾⁵، فإن لفظ (الصراط) الثانية في الآيتين بدل من الأولى فيهما، والبدل موضح، ومبين للمبدل منه⁶ .

هـ: أن تكون الآية معترضة: -

فبالإضافة إلى أن الإعتراض يقع مؤكدا لمفهوم الكلام الذي وقع فيه، ومقررا له في نفوس السامعين، فإنه يأتي لأغراض بلاغية، منها:

أنه يأتي لتعظيم المقسم به، وتفخيمه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾⁷.

1- انظر : الجمل، سليمان بن عمر (ت 1204هـ) : الفتوحات الالهية (حاشية الجمل على الجلالين)، دار إحياء التراث العربي، بيروت : ج 4 / ص: 406 .

2- سورة غافر: الآيتان : 41، 42 .

3- انظر: الألوسي، روح المعاني، (مرجع سابق) ج 24 / ص 71 .

4- سورة الفاتحة: الآيتان: 6، 7 .

5- سورة الشورى: الآيتان، 52، 53 .

6- انظر: عبد العزيز، سمير، الإيضاح والتبيين (مرجع سابق) ص 111 .

7- سورة الواقعة، الآيات: 78، 79، 80 .

ففي هذا الكلام اعتراضان: أحدهما قوله: (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم)، لأنه اعتراض بين القسم الذي هو: (فلا أقسم بمواقع النجوم)، وبين جوابه: (إنه لقرآن كريم) .

والثاني: قوله: (لو تعلمون)، وهو اعتراض بين الموصوف الذي هو: (قسم)، وبين صفته، الذي هو: (عظيم)

وفائدة الاعتراض: هو تعظيم شأن المقسم به في نفس القارئ ، أو السامع، أي: أنه من عظم الشأن وفخامة الأمر، بحيث لو علم ذلك لوفى حقه من التعظيم 1.

فالإعترض ليس وسيلة للتحسين فحسب، وليس حشوا يمكن الإستغناء عنه، بل إنه إذا وقع موقعه المناسب، كان من مقتضيات النظم، ومن مقتضيات المقام، ولو أسقط من السياق سقط معه جزء أصيل من المعنى، فهو يحمل بجانب كونه جزءا من المعنى الأصلي، معاني فرعية أخرى، تلتحم جميعا في تكوين معنى كلي . .

ولا بأس أن أقدم هذه المحاولة في مثال ضل الناظرون فيه في حيرة ودهشة، لعلي أطلع على بريق أمل فيه فأوضح جانبا منه قد يخالفني الحظ فيه وهو من سورة القيامة، عند ذكر قوله تعالى: ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به... ﴾ 2، فقد يقول قائل ما مناسبة هذه الآيات في هذا السياق الذي يتحدث عن القيامة ومشاهدها؟

فلعل ذكر الجمع ثلاث مرات، جمع الشمس والقمر وقد تم ذلك في ظاهرتي الكسوف والخسوف حيث تجتمع على استقامة واحدة، والجمع الثاني هو جمع القرآن في صدر الرسول ﷺ ولم يفلت منه حرفا واحدا، فإذا حصل هذان الجمعان أتشكون أن يجمع الله عظامكم يوم القيامة، أبقى شك في جمع عظام الانسان.. ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، والله أعلم.

القسم الثاني: - وهو ما لا يظهر التناسب فيه بين الآيتين:

¹ - ابن القيم، محمد بن أبي بكر (ت751هـ)، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت: ص 95.

² - سورة القيامة، الآية: 16

لقد جرت عادة القرآن إذا ذكر أحكاما، أن يذكر بعدها وعدا أو وعيدا، ليكون باعثا على العمل، ثم يذكر آيات توحيد، وتزييه، ليعلم عظم الأمر والناهي، فتبدو - في الظاهر - كل آية مستقلة عن الأخرى، وأما خلاف النوع المدو به .

وينقسم هذا القسم إلى نوعين: -

أ - أن تكون الآية الثانية معطوفة على ما قبلها بحرف من حروف العطف، فتشاركها في الحكم، ولا بد أن تكون بينهما جهة جامعة، إذ لا بد منها عند العطف، كقوله تعالى: (والله يقبض ويبسط) 1 فالجهة الجامعة هي:

التضاد، وأمثلة هذا القسم تظهر في: الطباق 2، والمقابلة 3.

أما الطباق: - فهو أن يجمع بين متضادين مع مراعاة التقابل، مثل: البياض، والسواد، والليل، والنهار، وهو قسمان: لفظي، ومعنوي .

فاللفظي، مثل قوله تعالى: - ﴿فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون﴾ 4.

وكقوله تعالى: - ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وترزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ 5.

وأما الطباق المعنوي، فمثل قوله تعالى: - (قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون) 6، ومعناه: ربنا يعلم إننا لصادقون 7.

1- سورة البقرة: آية / 245 .

2- الطباق: - هو الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أ الخطبة أو البيت من بيوت القصيد. انظر: العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل، الصناعتين، الكتابة والشعر، ط1، الآستانة، 1319هـ. ص238، والزرکشي: البرهان (مرجع سابق) ج3، ص: 512 .

3- المقابلة: إيراد الكلام ثم مقابلته بمتله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة . انظر العسكري، أبو هلال: الصناعتين (مرجع سابق) : ص 264 . والزرکشي: البرهان (مرجع سابق)، ج3/ ص515.

4- سورة التوبة: آية / 82 .

5- سورة آل عمران: آية / 26.

6- سورة يس: الآيتان: 15، 16.

7- انظر: عبد العزيز، سمير: الإيضاح والتبيين (مرجع سابق)، ص 113

وأما المقابلة: - وهي ذكر الشيء مع ما يوازيه في بعض صفاته، ويخالفه في بعضها، وهي قريبة من الطباق، ويفرق بينهما من وجهين: أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا بين الضدين غالباً، والمقابلة: تكون لأكثر من ذلك غالباً.

ثانيهما: الطباق لا يكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وغيرها، فالمقابلة أعم من الطباق، وعليه فكل طباق مقابلة، وليس العكس.

مثال المقابلة: قوله تعالى: ﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾¹، فقابل بين: صدق، وكذب، وبين صلى: الذي هو الإقبال على الله تعالى، وتولى: الذي هو الإعراض عنه².

ب: - ألا تكون الآية الثانية معطوفة على الأولى: -

إذا لم يكن هناك عطف بين الجملتين، فلا بد إذن من دعامة يعتمد عليها في الربط، وتؤذن بارتباط الكلام، وهي قرينة معنوية يدركها المتدبر، كإلحاق النظير بالنظير، كما في قوله تعالى من سورة الأنفال: ﴿يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾³، ثم بين أوصافهم، وختم ذلك بقوله: ﴿أولئك هم المؤمنون حقا﴾⁴، وذكر جزاءهم فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾⁵.

والنظير هنا: في أن الغنائم لما انتزعت من أيدي المجاهدين في أول الأمر، وجعلت لله والرسول -صلى الله عليه وسلم-، تألم بعضهم لحرمانه منها، فألحق الله ذلك بكراهيتهم للخروج إلى الجهاد في أول الأمر، وتبينهم بعد ذلك أن في الخروج الغنيمة والنصر، وعز الإسلام، وهلاك الأعداء، كأنه يقول: (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم)⁶.

ومن الروابط: الإستطراد⁷: -

¹ - سورة القيامة : الآيتان: 31، 32.

² - انظر: الزركشي: البرهان (مرجع سابق) ، ج3/ ص 515 - 516.

³ - سورة الأنفال: آية / 1.

⁴ - سورة الأنفال: آية / 4

⁵ - تكملة الآية السابقة.

⁶ - سورة البقرة: آية / 216 . وانظر الزركشي: البرهان (مرجع سابق): ج1/ ص 75.

⁷ - الإستطراد هو: أن يأخذ المتكلم في معنى، فبيناً يمر فيه يأخذ في معنى آخر .. العسكري، ابو هلال : الصناعتين (مرجع سابق): ص 316 . وانظر السيوطي: الإتقان (مرجع سابق): ج3/ ص 325.

ومثاله: قصة آدم في سورة الأعراف، وفيها بدو السوأة، واستطرادا في هذا الباب قال: ﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾¹، إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعارا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقى، ثم رجع إلى تكملة القصة فقال: ﴿يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ..﴾².

ومن أوجه الربط: الانتقال من حديث إلى حديث تنشيطا للسامع، والربط بين الحديثين باسم الإشارة، ومثاله: أنه - سبحانه - لما تحدث عن بعض الأنبياء في سورة (ص)، ختم هذا الحديث بقوله: ﴿واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب﴾³، فقوله: هذا ذكر: يشير إلى ذكر الأنبياء، ثم يشرع في ذكر الجنة، وبعد ذلك يشرع في ذكر النار، فيقول: ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب. جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾⁴.

ومن الروابط: حسن التخلص:

كأن يصل إلى غرضه أثناء الحديث عن شيء، إلى شيء آخر، كالحديث عن موسى -عليه السلام- في سورة الأعراف في أكثر من أربعين آية، ثم يصل إلى الحديث عن محمد ﷺ، وبعد ذلك يعود لإتمام الحديث عن موسى - عليه السلام-، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .. الآيات﴾⁵ وبعد ذلك يعود فيقول: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾⁶.

¹ - سورة الأعراف: آية / 26.

² - سورة الأعراف: آية / 27.

³ - سورة ص: الآيتان: 48، 49.

⁴ - سورة ص: الآيتان: 55، 56.

⁵ - سورة الأعراف: الآيات / 156-158.

⁶ - سورة الأعراف: آية / 159 . وانظر: القيعي، د . محمد عبد المنعم : الأصولان في علوم القرآن، ط4، 1996م، القاهرة،

المبحث الثاني: تناسب المواضيع في السورة الواحدة.

من الواضح البين أن كل سورة من سور القرآن الكريم تناولت موضوعاً أو عدة مواضيع تتحدث عنها أو تدعوا إليها أو تنهى عنها أو تحللها أو لأي غرض سيقت له، ومن العجيب أن هذه المواضيع تتربط في بينها بخيوط وأوصال قد تستدق فتخفى على بعض الناس، أو تغلظ حتى تبدو لكل قارئ فضلاً عن متدبر، وذلك مهما بدت هذه المواضيع مختلفة متشعبة، يقول الطاهر بن عاشور في مقدمته: «وإن من أعظم ما يعين على ذلك -التفسير- فهم مقاصد السور، والوقوف على أغراضها وما تحتوي عليه من موضوعات»¹، ويقول أيضاً: «ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها؛ لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته، ومعاني جملته كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله»².

والعلم بمقاصد السور لم ينص عليه الأوائل، وإنما اعتبره الصحابة والتابعون -بالاستقراء- في تفسيرهم، ولكن لم ينص على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، وذلك شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، لكن لم تكن التسمية موجودة، فعلم النحو كان ممارسة ولم يكن موجوداً، والبلاغة كانت ممارسة ولم تكن موجودة، وكذا علم أصول الفقه كان ممارسة في بعض الأحكام من القواعد الأصولية ولم يكن موجوداً بهذا الاسم، وهكذا في علوم القرآن في أنحاء شتى، ومصطلح الحديث وعلوم أخرى.

ويقول صالح بن عبد العزيز آل شيخ في الرد على سؤال نصه: فما المقصود بعلم مقاصد السور؟ فقال: «معلوم أن الله جل جلاله هو الذي تكلم بهذا القرآن وأن القرآن كلامه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ فالقرآن كلام الرب جل جلاله، ومقاصد السور يعني بها عند أهل هذا العلم، وهي: الموضوعات التي تدور عليها آيات سورة ما؛ يعني أن أي سورة من السور التي في القرآن أو أن معظم السور أو كل السور لها موضوع تدور عليه الآيات والمعاني التي في هذه السورة، إذا علم هذا المقصد؛ يعني هذا الغرض أو هذا الموضوع، فإن فهم التفسير سيكون سهلاً،

¹ - الطاهر بن عاشور مقدمة التحرير والتنوير، ص: 22

² - المصدر نفسه، ص: 24

بل سيفهم المرء كلام الأولين، وسيفهم كلام المحققين بأكثر مما إذا أخذ الآيات مجردة عن موضوع السورة»¹.

وقد ثبت أن كثير من المفسرين والعلماء يذكرون مقاصد وأغراض السور عندما يقبلون على تفسير بعض السور مثل ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً في سورة المائدة: "بأن هذه السورة كلها مختصة بعلم الأحكام والحلال والحرام والعقود بخاصة"، والرازي والشاطبي والزرکشي وغيرهم كثير، خاصة من المتأخرين، بل بعضهم أفرد كتباً في أغراض السور ومقاصدها. ولأهمية معرفة التناسب بين أغراض ومقاصد وموضوعات السورة الواحدة نمثل بمثال أو مثالين:

المثال الأول: سورة الذاريات

سورة مكية آياتها ستون آية ترتيبها في المصحف واحد وخمسون، بين سورة ق والطور، نزلت بعد سورة الأحقاف، ذكر سبب نزول بعض آياتها عن قتادة في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، قال: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمَا لَمَّا نَزَلَتْ اشْتَدَّ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ وَرَأَوْا أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ قَدْ حَضَرَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ (وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)، وقد اشتملت على مقاصد متعددة، تبدو في أول وهلة متباعدة المعاني مختلفة المقاصد، مترامية الأطراف، لكن المدقق والمتدبر قد تظهر له خيوطاً وقواسم مشتركة غاية في الحسن متينة في الحبك، قد تذهل العقول وتصدم النفوس، خاصة إذا تعلق الأمر بموضوع هو الشغل الشاغل للعباد، وهو سبب قطع الأرض بالسماء، ألا وهو الرزق.

يقول محمد علي الصابوني في تفسير سورة الذاريات: "هذه السورة تقوم على تشييد دعائم الإيمان وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان"². أقول أن سورة الذاريات قد بدأت بالقسم المنبه لعظمة المقسم به أو للتنبيه للمقسم عليه، والمقسم عليه هنا هو وقوع يوم القيامة وصدق هذا الوعد، وأما المقسم به فالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات، فالذاريات الرياح المحملة بقطرات الماء التي هي سبب للأرزاق وسبب لنمو

¹ - عبد العزيز آل الشيخ، مقال: مقاصد السور وأثر ذلك في فهم التفسير، <http://saleh.af.org.sa/node/34>

² - سلسلة مع أعلام المفسرين 3، الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، سورية، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت لبنان. ج 27،

الزرع والثمار، والجاريات هي السفن التي تجري في البحار محملة بالمتاع وبالعباد وتستخدم في التجارة والملاحة لاستجلاب الأرزاق، أو النجوم السابحات في الفضاء التي بها يهتدي الناس ويحسبون الأيام والأشهر وليعلموا مواعيد الزرع والحراث، والمقسمات أمرا وهي الملائكة تقدر وتقسم الأرزاق والأقدار، وقد اختلفت أرزاق الناس وكذلك اختلفوا في أقوالهم وإيمانهم بالبعث بسبب عدم تدبرهم في هذه الخلائق الدالة جميعها على عظمة الله وقدرته، فتوعدهم الله بالعذاب، ثم أثنى على العباد المؤمنين المتقين الذين أعملوا العقل وءامنوا وأسلموا لله رب العالمين، فكانوا يبيتون لرهم يصلون ويستغفرون، وينفقون من أموالهم التي ساقها الله لهم، مع تيقنهم بأن الله هو رازقهم وهاديهم، بما يشاهدونه من الآيات في أنفسهم وفي الأرض والآفاق، ثم يقر الله حقيقة أن الرزق وما يوعدون في السماء عند الله، وأقسم على ذلك بما لو استعمله الانسان لكان متيقن أنه يفعله وهو النطق.

ثم يضرب لنا مثلا بسيدنا إبراهيم الخليل الذي ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر، فقد جاء بعجل سمين فقربه إلى الضيوف مع أنهم ثلاثة كانت تكفيهم دجاجة، ولكن الله قال ضيف إبراهيم المكرمين، فهم مكرمون وسيدنا إبراهيم كان كريما أيضا، ولكن الله أعظم مكرمة منهم جميعا، فقد أعطى من لا طاقة له بإنجاب الولد من عقم وكبر سنّ الولد الذي يعتبر من خير الأرزاق، كما رزق الولد اسماعيل خير ما يطلبه مخلوق وهو العلم والحكمة والنبوءة.

والمدقق في القصص بعد ذلك وهلاك تلكم الأقوام هو بسبب كفرهم بنعم الله المتمثلة في نعمة الإيمان والإسلام، فكان عذابهم من جنس ما كانوا به يسترزقون، وهي الطين التي كانت تصور بها التماثيل وتباع في الأسواق وتذر عليهم رجاً وفيروساً فقذفهم الله بها، ثم قوم فرعون أغرقهم مما كانوا منه يأكلون وبه يسقون ويزرعون، ثم عاد بالرياح التي كانت ريحا طيبة من قبل تأبر أشجارهم وتذروا السحب لبلادهم فتمطر السماء وتستغني الأرض... .

ثم عادت السورة لذكر نعم الله على الناس من سماء ومدها وأرض وفرادها ومن كل شيء خلق زوجين أصل التكاثر والنمو والإزدهار والحياة.

ثم أمر الله عباده بالرجوع إليه على لسان نبيه وبالإيمان به، وبأنبيائه، وأنذرهم، أن يحصل لهم ما حصل للأقوام السابقين، وتسلية لرسوله أيضا إذ أن هذه سنة الله كلما دعاهم نبيهم إلى الحق أعرضوا وقالوا ساحر أو مجنون، وقال له إنما عليك التذكير والبلاغ.

وفي الأخير قلب العجز على الصدر وذكرهم بأن الحياة هي لعبادة الله وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين فلا يشغلكم طلب الرزق عن ذكر الله وعن الإيمان به، فإنه من يفعل ذلك ويكفر فإن له موعداً ويوماً يرد فيه إلى الله ثم يوفيه الله حسابه.

إذا بدى جلياً الآن أن سورة الذاريات قد تناسبت موضوعاتها جميعاً لتصب في مقصد واحد هو الرزق، وعليه يمكن أن نستخلص أسباباً وتصورات كاملة عن السورة وحوها فتفسر في هذا السياق، وقضية الرزق من أهم المسائل في حياة الناس فعدت من المشاغل القلبية التي تلهي عن الذكر والإيمان، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾، ولهذا أوضحت هذه السورة حقيقة أن الرزق بيد الله فلا ترهق نفسك في طلبه وتضيع حياتك في تحصيله وتنسى ذكر الله، فأرضى بما قسم الله لك، واعلم أن الدنيا فانية وأن الرزق الحقيقي هو الذي ينتظرك في السماء.

المثال الثاني: سورة الكهف:

فسورة الكهف مكية التزول بإجماع المفسرين، وقد نقل هذا الإجماع القرطبي في تفسيره، وابن الجوزي في زاد المسير، وغيرها، قال ابن الجوزي: «روى أبو صالح عن ابن عباس أن سورة الكهف مكية»¹، قلت اشتملت السورة على عدة مواضيع تشكلها القصص المذكورة فيها أصحاب الكهف ثم صاحب الجنتين ثم قصة الخضر مع موسى وختمت بقصة ذو القرنين، والرابط الأساسي بين هذه القصص هو تعدد صور حفظ الله تعالى لعباده من فتنة المال والعلم والدجال وفتنة الملك، حيث استهلّت السورة بالحمد لله تعالى على حفظه الكتاب الذي هو المصدر الأول للدين وبحفظه لهذا الدين حفظ من تمسك به فضرِبَ لذلك مثلاً بأصحاب الكهف الذين حفظ الله توحيدهم بلجوتهم إلى الكهف للحماية من الملك الوثني، كما حفظ الله وصان جنة الرجل المؤمن الموحد فحفظ ماله من الزوال بسبب شكره نعمة الله عليه بخلاف الآخر الذي كفر نعمة الله عليه فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها.

ثم حفظ الله تعالى سفينة المساكين بحرق الخضر لها، وحفظ الله الأبوبين المؤمنين من بطش ولديهما بقتله، وحفظ الله تعالى لمال اليتيمين حيث كان أبوهما صالحاً، وحفظ الله تعالى القوم من بطش ياجوج وماجوج ببناء ذو القرنين سداً بينها.

¹ - ابن الجوزي، زاد المسير، ج5، ص: 72.

المبحث الثالث: تناسب موضوع أو مواضيع السورة مع اسمها:

اختلف السادة العلماء في قضية أسماء السور هل هي توفيقية أم توقيفية؟
هناك رأيان في هذه المسألة:

الرأي الأول: أنها توفيقية (أي اجتهادية)

ودليلهم ما رواه البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: قل سورة بني
النضير، قالوا: ففي هذا ما يُبين أن تسمية سور القرآن لم تكن توقيفية عند أصحاب النبي ﷺ، وإلا لما
ساغ لابن عباس أن يخالف ذلك

الرأي الثاني: أن أسماء السور توقيفية وهو رأي الزركشي والسيوطي

قال الزركشي: «ينبغي البحث عن تعداد الأسماء هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان
الثاني؛ فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسماء لها، وهو بعيد
«1 وقال السيوطي: «وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار»2.

ويمكن أن يستأنس له بقول الطبري: «لسور القرآن أسماء سماها بها رسول الله»3

ويمكن تقسيم السور من جهة الاسم الى مايلي:

الأول: سور لها اسما واحدا، وهو أكثر سور القرآن، مثل النساء والأعراف والأنعام وغيرها.

الثاني: ما له أكثر من اسم، ويشمل هذا النوع سوراً لها اسمان كسورة (محمد)، حيث تسمى (القتال)
، وسورة (الجاثية) تسمى (الشريعة)، وسورة (النحل) تسمى (النعم) لما عدد الله فيها من النعم على
عبادة

ويشمل سوراً لها ثلاثة أسماء مثل (المائدة) وتسمى (العقود) و(المنقذة)، ومثل سورة (غافر) وتسمى
(الطول) و(المؤمن)

ويشمل سوراً لها أكثر من ثلاثة أسماء مثل سورة (التوبة) اسمها (براءة) و(الفاضحة) و(الحافرة) وقال

¹ - الزركشي، في البرهان 270/1

² - السيوطي، الاتقان 156/1

³ - تفسير الطبري 100/1

⁴ - وهذا ما رجحه بعض المعاصرين ومنهم: د. فهد الرومي في (دراسات في علوم القرآن) ص118. ود. إبراهيم الهويميل في

بحث (المختصر في أسماء السور) مجلة جامعة الإمام، ع30، ص135.

حذيفة هي سورة (العذاب) وقال ابن عمر كنا ندعوها (المُشْقِشِقَةَ) وقال الحارث بن يزيد: كانت تدعى (المُبْعَثَرَةَ) ويقال لها (المُسورة) ويقال لها (البَحُوث)

وكسورة الفاتحة فقد ذكر السيوطي لها خمسة وعشرين اسماً منها (أم الكتاب) (أم القرآن) و(السبع المثاني) و(الصلاة) و(الحمد) و(الوافية) و(الكتر) و(الشافية) و(الشفاء) و(الكافية) و(الأساس)، وسورة البقرة بستة أسماء: الزهراء - سنام القرآن - ذروة القرآن - فسطاط القرآن - سيدة سور القرآن.

الثالث: أن تسمى عدة سور باسم واحد:

ومن ذلك تسمية البقرة وآل عمران بـ (الزهراوين) وتسمية سورتي الفلق والناس بـ (المعوذتين) وتسمية السور المبدوءة بـ (حم) بـ (الحواميم).

وعلى ما سبق فإن القرآن كل متكامل محكم، معجز من أي وجه كان، ولا يعتريه النقص من أي جهة كانت، ودليل هذا الاحكام وذاك الاعجاز ما سنراه في هذا التناسب بين اسم السورة وموضوعها، بل حتى مع المواضيع الجزئية فيها، وهذا دليل إضافي يؤكد الرأي الثاني، وسنضرب لذلك مثالين مما توصل إليه المعاصرون في تفاسيرهم واجتهاداتهم.

المثال الأول: المناسبة بين مضمون سورة الكهف واسمها: موضوع سورة الكهف هو الحفظ والحماية والعصمة، ومعروف أن الكهف هو رمز الحماية والحفظ عند كثير من الحضارات، فهو يقي من القر والحر ويحفظ من العدو، بل ويدخر فيه الانسان والحيوان طعامه كي لا يتلف، وقد اتخذ الانسان القديم مسكناً ومؤوى له، وما وجود الكلب بجانبه إلا زيادة في الحفظ والحماية، والستر، وإن هذه السورة قد ذكرت أنواع الفتن التي تمر بالمرء؛ إذ ذكرت فيها الفتنة في الدين في قصة الفتية، وفتنة المال في قصة صاحب الجنتين، وفتنة العلم في قصة موسى والخضر، وفتنة السلطان في قصة ذي القرنين، وفتنة المسيح الدجال، وذكرت هذه السورة المخرج من كل واحدة من هذه الفتن؛ فكأنها كهف لمن اعتصم بها من الفتن، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال" 1.

¹ - روى مسلم قال: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ قَتَادَةَ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ الْعَطْفَانِيِّ عَنْ مَعْدَانَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ الْيَعْمَرِيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عَصِمَ مِنَ الدَّجَالِ، وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَأَبْنُ بَشَّارٍ قَالَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ ح وَحَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ جَمِيعًا عَنْ قَتَادَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ قَالَ شُعْبَةُ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ وَقَالَ هَمَّامٌ مِنْ أَوَّلِ الْكَهْفِ

إذا رمزية الكهف توحى أن لكل فتنة ولكل مشكلة حل ما دام الانسان متمسك بدينه الذي ارتضاه الله له، وما دام مقتنع أن العصمة كل العصمة في اتباع نور هذا الكتاب الذي يقدم الحلول لكل ما يصادفه المسلم في حياته، وانظر إلى مختلف هذه المواضيع التي هي مشاكل قد تصادف العبد المسلم في حياته؛ حيث قدمت له سورة الكهف مخرجا لكل منها وحلا لها يناسب كل حل منها كل مشكل؛ ففتنة الدين أن يهاجر العبد بدينه إن اضطر لذلك أو فتن في دينه كما فعل أصحاب الكهف، وكما قال تعالى: "ألم تك أرض الله واسعة فتهاجروا فيها"، وفتنة العلم ألا يتكبر الانسان بعلمه ويمتثل قول الله تعالى: "وفوق كل ذي علم عليم" أو "وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، وفتنة المال تحفظ بشكر النعم، وإسناد الأمر إلى الله، وأن يمتثل العبد قول الله تعالى "لو لا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله".

وفتنة السلطان بأن يعدل الراعي مع رعيته، يتمثل قول العبد الصالح ذي القرنين حينما قال له ربه: ﴿إما أن تعذب أو تتخذ فيهم حسنا﴾، فقال: ﴿قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا﴾ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرى ﴿الكهف 88.

إذا الخروج بحلول لمشكلات متعددة أو قانون أو نظرية من القرآن بات شيئا ممكنا، وهذا ما نرمي إليه في الدعوة إلى تطوير منهجية البحث في القرآن الكريم، في إطار علم المناسبات.

المثال الثاني: ذكره الاستاذ محمود الشنقيطي معيد بقسم الدراسات القرآنية - كلية العلوم - جامعة الملك سعود¹، بين تناسب سورة الحجر ومواضيعها فقال: **فإنَّ الحجرَ في اللغة هو المنعُ ومن أوجه التناسب بين موضوعاتها واسمها ما يلي:**

كَمَا قَالَ هِشَامٌ (3/163)، ومارواه مسلم في صفة الدجال وخروجه من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (فمن ادركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف) (6/250) ويمثله في سنن ابن ماجه (12/92) وعلق السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه مانصه: "(فَوَاتِحُ سُورَةِ الْكَهْفِ) أَي أَوَّلُهَا وَقَدْ جَاءَ مِنْ أَوَّخِرِهَا فَالْوَجْهُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ وَالْكُلُّ أَفْضَلُ" حاشية السندي (12/437).

¹ - مقال من أوجه تناسب اسم سورة الحجر مع مضمونها بتاريخ: 2013-03-26، موقع:

<http://www.mktaba.org/vb/showthread.php?p=64272>

- افتتح الله هذه السورة بالحروف المقطعة التي يُحجَرُ بها على عقول المعاندين المكذبين فيمنعهم العجز عن معارضة كتاب الله ومشابهته رغم تألفه من هذه الحروف التي بها يتكلمون ، ومع ذلك لا يأتون بمثله ولو ظاهرهم من بأقطارها.

- وفي صدر السورة وصف الله القرآن بأنه مبینٌ ، وهذا صريحٌ في أن من تبع القرآن واهتدى به فإنه يمنعه من أن يضلَّ أو يختارَ أو تشبهه عليه الأمور بفضل هذه الإبانة والإيضاح التي تلازم كتاب الله.

- الأملُ واللهوُ واللعبُ هي عواملٌ تمنع بناء النفس وزيادة الإيمان وإدراك الحقائق ، فهي جماعُ أسباب الغفلة وغياب الوعي (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل..).

- من عدل الله تعالى أن يمنع عقوبته ومؤاخذته وإهلاكه للعصاة حتى يستكملوا آجالهم (وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتابٌ معلوم * ما تسبق من أمةٍ أجلها وما يستأخرون).

- أن إفلاس الكفار والعجز عن المواجهة بالحجة والبرهان مما منعهم من الإذعان للحق حيث اضطرتهم إلى إساءة الأدب في خطاب رسول الله بأسلوبٍ غايةٍ في الصفاقة وعدم الحياء قائلين (يا أيها الذي نُزل عليه الذكرُ إنك لمجنون).

- امتناع إمهال الله تعالى في حق من نزلت عليه ملائكةُ الله بعذاب (ما نزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين)

- منع الاشتباه في أن يكون في القرآن حرفٌ من عند غير الله (إنا نحن نزلنا الذكر).

- منع الله تعالى من أن يتطرق التبديل والتحريف إلى الكتاب الكريم (وإنا له لحافظون).

- منع اليأس والحزن من استيطان قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب تكذيب قومه، وذلك بتسليته وتذكيره بإخوته السابقين من رسل الله (ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين).

- أن من ختم الله على قلبه وأراد فتنته فلن يؤثر فيه خرق العادات الكونية فضلاً عن آيات القرآن ونُذره (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون)

- أن السحرَ يحجر على عقل المسحور فيؤثر في غياب الحسِّ والوعي كما يؤثر سدُّ البصر وتغشيته في غياب المحسوسات ، ولذلك قرن الله بينهما (لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون).

- أن سعة علم الله وإحاطته بكل شيء تمنع من أن يخفى عليه أمرٌ مما كان وما يكون وما هو كائنٌ ، بل وما لم يكن فإن الله يعلم لو كان كيف يكون ومن هذا الأخير (ولو فتحنا عليهم باباً من

السماء...).

- أن الله منع الشياطين من استراق السمع من السماء (وحفظناها من كل شيطان).
- أن من سمع بعض أخبار السماء من الشياطين سيمنعهُ الشهاب الذي يرسلُ عليه من الإخبار بما سمع إذ لا يخلو من الموت به أو اختلال حفظه لما استرق.
- امتناعُ القدرة على رزق المخلوقات إلا في حق الله تعالى (ومن لستم له برازقين) ولذلك لم يجرؤ أحدٌ ممن ادعى الربوبية في قديم أو حديثٍ على زعم ذلك .
- أن اعتقاد المرء امتلاء خزائن الله بكل مرغوبٍ يمنعه من استمناع أحدٍ أو ابتدائه بالسؤال قبل الله تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه).
- امتناعُ دوام الحياة المطلق على غير الله فكل شيء يهلك إلا هو (وإنا لنحن الوارثون).
- تأخير المؤاخذة ومنع وقوعها قبل بيان الحجة وانتفاء العذر عن العاصي ، لأن الله سأل إبليس وهو سبحانه أعلم ، ولكنه أخر العقوبة حتى قال إبليس (لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال).
- العادات والموروثات إذا أشربها المرء تحجر العقل عن الرضا والتسليم بأمر الله (قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصالٍ من حمإٍ مسنون).
- الامتناع عن الاعتداد بالمخالف الذي لا وجه لخلافه ، لأن الله تعالى قال (إلى يوم الوقت المعلوم) مع أن من الخلق من ينكر البعث ، فلما لم يكن لخلافهم أثرٌ أهمل ولم يعتد به.
- الجنة دار السلامة والسلام ممنوعٌ منها من كانت به شائبةٌ من معصيةٍ حتى يطهر منها بالمغفرة أو النار (ادخلوها بسلام آمنين).
- الأمن والسلامة ركنتا السعادة والهناء ، ووجود أحدهما دون الآخر يحول دون اكتمال النعيم ، ولذلك جمع الله بينهما للجنة ، وجعلهما الرسول صلى الله عليه وسلم ثلثي حيازة الدنيا.
- غرابة أخلاق الضيف وامتناعه عن طعام المضيف مما يمنع طمأنينته واستئناسه بالضيف (قال إنا منكم وجلون) وفي غير هذه السورة فصل سبب وجله بقوله سبحانه (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم..).
- الضلال هو أكبر وأعظم الموانع من رجاء رحمة الله (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون).
- من هداية القرآن تعليمه لنا الامتناع عن مباشرة ذوي الهيئات بوصف النقص ، ولذلك قالت الملائكة (فلا تكن من القانطين) ولم يقولوا لا تكن قانطاً ، وفي غير هذه السورة قال الله لنبيه نوح (إني أعظك

أن تكون من الجاهلين) ولم يقل ولا تكونن جاهلاً وقال (يعلمون أنه مثل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين).

- منع الله تبارك وتعالى لحسّ الفاجر المعاقب الذي طبع على قلبه من التيقظ وإدراك خطر ما سيحل به - استدراجاً له - فإن قوم لوط حين رأوا الملائكة لم يخطر لهم غير الفاحشة وصرحوا بذلك وجاء أهل المدينة يستبشرون).

- الكفر أغلظ الموانع من الاتعاض بمصارع الهالكين (إن في ذلك لآية للمؤمنين).
- امتناع صحة الإيمان على من كذب بأي رسول من رسل الله ، وذلك أن أصحاب الأيكة كذبوا صالحاً وحده ، ومع ذلك أنزلهم الله تعالى منزلة المكذبين بجميع رسل الله ويؤكد ذلك قول الله عن المؤمنين (لا نفرق بين أحد من رسله).

- منع الإعراض والجحود من التسليم للمعجزات فناقة صالح خرجت من الصخرة وكثر لبنها عند خروجها وعظم حجمها عن حجم النوق المعروف ومع ذلك قال الله (فكانوا عنها معرضين).

- توجيه الله تعالى لحامل القرآن بالامتناع عن النظر إلى الدنيا وأهلها واعتقاد أن غيره أوتي خيراً منه لئلاً يجهل حقيقة الحال فلا يقدر نعمة الله قدرها ، لأن الله حين امتن على نبيه صلى الله عليه وسلم بالقرآن أعقب ذلك بـ (لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به...) ولذلك فسر بعض أهل العلم قوله صلى الله عليه وسلم (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) بـ (يستغني به).

- منع الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين وحمائته له من مكرهم (إنا كفيناك المستهزئين).
- منع طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم البشرية في تأثره بقبل المشركين من إحقاق باطل الغلاة من المبتدعة الذين يترلونه منزلة الرب (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك..)
- أن التسبيح والصلاة أعظم مانع من الكآبة والضيق والحزن ، وهي أجل ما تتنفس به الكروب لأن الله لما علم بتأثر النبي صلى الله عليه وسلم أرشده إلى طريق التنفيس (فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين).

- منع جواز انقطاع أي مكلف عن عبادة الله حتى يموت خلافاً لما يزعمه بعض الجهلة من سقوط التكليف عن من بلغ منزلة اليقين كما يحسبون ، فإن الله أمر أتقى خلقه له وأحبهم إليه وأعظمهم زلفى

لديه بالاستمرار في العبادة حتى الموت ، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبدهُ ورسوله عبدهُ حتى أتاهُ اليقين وهو يغرغرُ ويوجهنا بقوله (الصلاة الصلاة) حتى ما يفيضَ بها لسانه.

المثال الثالث: تناسب موضوع سورة النساء مع اسمها

سورة النساء (مدنية) نزلت بعد سورة الممتحنة وعدد آياتها (176) مائة وست وسبعون آية، وهي السورة الرابعة في ترتيب المصحف بعد سورة آل عمران.

سورة النساء هي سورة العدل والرحمة خاصة مع الضعفاء فبعد أن حدّدت سورة البقرة مسؤولية المسلمين عن الأرض وعرضت منهج الاستخلاف، جاءت سورة آل عمران لتدعو إلى الثبات على المنهج القويم وعلى المسؤولية الملقاة على عاتق المؤمنين. ثم جاءت سورة النساء لتعلمنا أن المستأمن على الأرض لا بد أن يكون على قدر من العدل والرحمة تجاه الضعفاء الذين استؤمن عليهم وكأن الصفة الأولى التي تميّز المسؤولين عن الأرض هي العدل.. ولهذا فإن سورة النساء تتحدث عن حقوق الضعفاء في المجتمع. إنها تتحدث عن اليتامى والعبيد والخدم والورثة، كما تركز بشكل أساسي على النساء. وكذلك فإنها تتحدث عن الأقليات غير المسلمة التي تعيش في كنف الإسلام وعن حقوقها بالإضافة إلى التوجه إلى المستضعفين أنفسهم وكيف ينبغي عليهم التصرف في المواقف المختلفة. يضاف إلى كل هذا الحديث عن ابن السبيل وعن الوالدين وكيف يجب أن يُعاملوا.. فهي سورة الرحمة وسورة العدل.. يتكرر في كل آية من آياتها ذكر الضعفاء والعدل والرحمة بشكل رائع يدلنا على عظمة الإعجاز القرآني في التكرار دون أن يملّ القارئ.

والمناسبة بين اسم السورة وموضوعها:

فهو أن المرء لو عدل مع زوجته في بيته ورحمها فإنه سيعرف كيف سيعدل مع بقية الضعفاء. فهي سورة المستضعفين وقد اختار الله نوعاً من أنواع المستضعفين وهم النساء ليكونوا اسماً لهذه السورة.. وكأن الله يقول لك: قبل أن أستأمنك على الأرض، أرني عدلك في بيتك، فلو عدلت ورحمت في بيتك فستكون مستأمناً للعدل في المجتمع، إن العدل مع النساء في البيوت نموذج يقاس به عدل المسلمين في امتحان الاستخلاف على الأرض، فهل سنجد بعد هذا من يدّعي بأن الإسلام يضطهد المرأة ولا يعدل معها؟

إن هذه الادعاءات لن تنطلي على قارئ القرآن بعد الآن وخاصة مع الذي يقرأ سورة النساء، فهناك سورة كاملة تتناول العدل والرحمة معهن، وقبلها سورة آل عمران التي عرضت السيدة مريم وامرأة عمران كنموذجين للثبات (كأن سورة آل عمران تمهد لتكريم المرأة).

المثال الرابع: لماذا سميت سورة المائدة بهذا الاسم

نشير إلى سبب تسمية السورة بسورة المائدة وهل هذا بسبب ذكر قصة المائدة، فالسورة تتحدث عن الوفاء بالعقود، فما الذي يربط بينها وبين المائدة:

﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ & قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (112 - 115).

فالآية الأخيرة هي آية محورية [قال الله إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ...] (أي فمن ينقض العهد بعد إنزال المائدة)، فارتبطت قصة المائدة بقصة قوم طلبوا آية من الله تعالى فأعطاهم ربهم ما طلبوا وأخذ عليهم عهداً شديداً، إن نقضوه فسوف يعذبون عذاباً شديداً.

أما بالنسبة لأمتنا، فقد أعطاه الله تعالى في هذه السورة الآية المحورية [الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا] هذه الآية منحة ربانية مشاهمة للآية التي أعطيتها الخواريون (المائدة)، وهم قد وفوا بعهدهم فهل سيفي المسلمون بعهدهم؟

من فضلك وأنت تقرأ سورة المائدة، استشعر عظم النعمة التي أتمها ربنا علينا بإتمام الدين، وجاهد نفسك للإيفاء بعهد الله تعالى في كل أمور حياتك.

وهذا من عجيب هذه السورة التي تعددت مواضعها فإن كل موضوع فيها إلا وله علاقة باسمها، فسبحان الله مثل هذا الكتاب.

المبحث الرابع: مناسبة مطلع السورة للمقصد التي سيقى له (براعة الاستهلال):

البراعة لغة: كمال الفضل، والاستهلال لغة: الابتداء، كما في اللسان¹.
 براعة الاستهلال اصطلاحاً: ضرب من ضروب الصنعة التي يقدمها أمراء البيان، ونقاد الشعر، وجهابذة الألفاظ، بأن يبدأ المتكلم بمعنى ما يريد تكميله، وإن وقع في أثناء الكلام.
 وقد ذكر ابن المعتز فناً في محاسن الكلام سماه (حُسن الابتداءات)، وأراد بهذه التسمية ابتداءات القصائد، إذ ينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدة ابتدأها بما يدل على غرضه فيها²
 ويرى السيوطي أن براعة الاستهلال أخص من حسن الابتداء، لأن البراعة لا بد فيها من الإشارة إلى ما سيق الكلام لأجله، بخلاف حسن الابتداء فلا يشترط فيه ذلك.
 وبراعة الاستهلال أن يذكر الانسان في أول خطبته أو قصيدته أو رسالته كلاماً دالاً على الغرض الذي يقصده ليكون ابتداء كلامه دالاً على انتهائه، كما قيل لكاتب أكتب إلى الامير وعرفه بأن بقرة ولدت حيواناً على شكل الانسان فكتب. أما بعد حمد الله الذي خلق الأنام في بطون الانعام. ومنه قوله تعالى : ﴿الْمُغَلَّبَاتِ الرُّومِ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ الروم، آية: 01، ومنه قوله تعالى : ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ التوبة/01، ومنه في القرآن كثير .. وشرطه أن لا يتبدأ بشيء يتطير منه كقوله الاخطل (642-718)م:

ولم يبق إلا من قليل مصرّد إذا مات مات الجود وانقطع الندى

— وان يجتنب التشبيب بالاسم المستكره كقول جرير (653-728)م:

هلاً هويت لغيرنا يا بوزع وتقول بوزع قد دنيت لغيرنا

ومن أمثلة حسن الابتداء قول امرئ القيس (520-565)م، في أول معلقته :
 قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل * بسقط اللوى بين الدخول فحومل

¹ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المصري، لسان العرب المحيط، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة/ يوسف خياط. المجلد الأول، (مادة: برع) ص: ١٩٦، وانظر في ذلك: الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م، مؤسسة الرسالة - بيروت (مادة هلل) ص: ١٣٨٤.

² - انظر: طبانة، بدوي، معجم البلاغة العربية، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، دار العلوم - الرياض، المجلد الأول، (براعة الاستهلال) ص: ٨٥، و (حسن الابتداء) ص: ١٩٧.

قالوا: إنه في هذه البداية البارعة وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب ومثله في مصراع واحد.

ومن ضروب هذا العلم حسن المطالع والفواتح: والفواتح: جمع فاتحة، أصلها الفعل الثلاثي فتح: ضد أغلق، وفاتحة الشيء: أوله وفواتح القرآن: أوائل السور¹. والسورة: (الشَّرْفُ) والفضلُ والرَّفْعَةُ، وبه سُمِّيَت سُورُ الْقُرْآنِ ؛ لِإِجْلَالِهِ وَرَفْعَتِهِ².

وذلك دليل على جودة البيان وبلوغ المعاني إلى الاذهان فإنه أول شيء يدخل الأذن، وأول معنى يصل إلى القلب، وأول ميدان يجول فيه تدبر العقل، وهو في القرآن العظيم على قسمين: جلي وخفي، أما الجلي فكقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأكثر مطالع سور القرآن على هذا النمط.

وأما الخفي فمثل قوله تعالى: ﴿الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾، وقوله ﴿الْم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقوله: المص، وقوله: ﴿حَم﴾، وقوله: ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾، وقوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾، وما يجري مجرى ذلك من السور التي افتتحت بالحروف المفردة والمركبة³.

ولنأخذ بعض الأمثلة من القرآن الكريم تفيد في زيادة المعنى وتزيد التفسير وضوحا:

المثال الأول: سورة براءة سورة التوبة (مدنية) نزلت بعد المائدة، وهي في ترتيب المصحف بعد الأنفال، عدد آياتها 129 آية، وهي آخر سورة كاملة أنزلت على النبي ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

و سورة التوبة هي السورة الوحيدة التي لم تبدأ بالبسملة كما هو الحال في كل سور القرآن. وسبب غياب البسملة عن أول سورة التوبة - على قول أغلب العلماء - هو أنها أكثر سورة تكلمت عن الكفار والمنافقين، فحرموا من البسملة ومن معاني الرحمة الموجودة فيها، من أولى كلماتها [بِرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ] (1).

ولسورة التوبة أسماء أخرى، فقد سميت بالفاضحة¹ لأنها فضحت المشركين، ففيها خمس وخمسين صفة من صفات المنافقين التي كانوا يمارسونها مع النبي ﷺ، وسميت بالكاشفة لأنها كشفت عيوب الكفار

¹ - القاموس المحيط، ج1، ص: 297.

² - تاج العروس، ج12، ص: 202.

³ - الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلوم البيان، شمس الدين الزرعي، قسم: 22، ص: 203.

والتخاذلين عن نصره الإسلام، وسميت بسورة السيف لكونها أكثر سور القرآن دعوة للجهاد وتحريضاً على القتال وتحذيراً من القعود والتخاذل، فهي سورة شديدة إزاء، ولهذا ناسب مطلعها بعدم ذكر البسملة في بدايتها للغرض الذي سيقته له من وعد ووعيد وغيرها، ولهذا تكرر الأمر بالتوبة مرات كثيرة، فرغم كون السورة تتكلم عن المنافقين والكفار إلا أنها تدعوهم إلى التوبة في مرات عديدة، فنلاحظ تكرار قوله تعالى [فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ]².

وإذا بحثنا ورود لفظة (التوبة) ومشتقاتها في هذه السورة وفي القرآن كله، نجد أنها تكررت في هذه السورة سبع عشرة مرة وهي أكثر سور القرآن إيراداً لكلمة (التوبة).

بينما ذكرت في سورة البقرة مثلاً ثلاثة عشر مرة مع أنها أطول سورة في القرآن، وذكرت في سورة آل عمران ثلاث مرات وفي سورة النساء اثني عشر مرة وفي المائدة خمس مرات وفي هود ستة مرات وفي الأنعام مرة واحدة.

مثال آخر:

تأمل مطلع سورة الرحمن عروس القرآن، إذ افتتحها الله تعالى بقوله: ﴿الرحمن﴾ وهو اسم من أسمائه الحسنی يتضمن معنى الرحمة الواسعة بخلقه، ثم سرد الله ﷻ بعد هذا المطلع الموجز البليغ جملة من النعم العظيمة التي من الله بها على خلقه مؤمنهم وكافرهم رحمةً منه ﷻ بهم . ونكتة أخرى تبين براعة الاستهلال في هذه السورة، إذ أن السورة مكية نزلت في العهد المكي الذي تجبر فيه كفار قريش وعتوا عتواً كبيراً، فعندما يسمع السامع قول الله تعالى: ﴿الرحمن﴾ يبدأ يتساءل في نفسه، قائلاً لمن يخاطبه؟ ما الرحمن، كما قال الله تعالى عنهم في سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ آية: 60، فكأنه يقول لهم: الرحمن الذي أنعم عليكم بكذا وكذا، ثم بدأ يذكر لهم تلك النعم العظيمة التي أسبغها عليهم رحمة منه وفضلاً، مع أنه هو العزيز الجبار لا يعبأ بهم، ولن يعجزه أن يهلكهم كما أهلك من سواهم، لذلك خوفهم بقوله: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ الرحمن، آية: 31.... إلى أن قال: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ الرحمن، آية: 41. كما أن التأمل في هذا التخويف العظيم ليجد فيه معنى الرحمة، فكأنه ﷻ يخوفهم ويتوعدهم ليتوبوا ويأبوا إلى ربهم، مخافة أن ينالهم غضبه وعقابه، وهذا من رحمته بهم جل في علاه.

¹ - خرجه البخاري عن سعيد ابن جبیر عن ابن عباس رضي الله عنهم.

² - الحاوي في تفسير القرآن، ج7، ص: 232.

مثال ثالث:

سورة الحاقة

مطلع سورة (الحاقة) التي تروي لنا النهايات المفزعة لمصارع قوم نوح و عاد و ثمود و فرعون و المؤتفكات اخوان لوط و تصور مشاهد النهاية المروعة لهذا الكون لا يناسبها إلا استهلال قوي و مهول فجاء مطلع السورة ﴿الحاقة، ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة﴾ الحاقة، آية: 1-2، و لفظ الحاقة في دلالة اللغوية هو أفضل لفظ يناسب اتجاه السورة و موضوعها و براعة استهلال السورة بلفظ (الحاقة) لا يقف عند حد الدلالة اللغوية للفظ و ايقاعها، وإنما تتجلى براعة الاستهلال في كون (الحاقة) كلمة مفردة لا خبر لها في ظاهر اللفظ، ثم تتبع باستفهام حافل بالاستهوال و الاستعظام لماهية هذا الحدث العظيم (ما الحاقة؟) ثم يزداد هذا الاستهوال و الاستعظام بالتجهيل و اخراج المسألة عن حدود الإدراك و العلم (وما أدراك ما الحاقة؟) ثم يسكت و لا يجيب عن هذا السؤال .. و يدع قارئ (المطلع) و سامعه واقفاً أمام هذا الأمر العظيم الذي لا يدره و لا يتأتى له أن يدره لأنه أعظم من أن يحيط به العلم و الإدراك.

المبحث الخامس: تناسب بداية السورة و نهايتها (المطلع و الخاتمة)

المثال الأول: تناسب بداية البقرة مع نهايتها

وهو ما يعرف في البلاغة و الأدب بقلب العجز على الصدر، و الذي يدل على ترابط الكلام، و أنه مكملًا بعضه بعضا يستمر في سياق واحد لا يجاوزه، حتى وإن بدى أنه يخالف بعضه بعضا في بعض تفاصيله، إما لطول المقطع أو كثرة الآيات أو كثافة المواضيع، و خير دليل على ذلك قوله — تعالى —: في أول سورة البقرة: ﴿الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون﴾، ثم قال في آخر السورة: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه و المؤمنون كل آمن بالله و ملائكته و كتبه و رسله...﴾، فهو في أول السورة يذكر صفات المتقين التي يتميزون بها، و في آخر السورة يبين أن الرسول ﷺ و الذين آمنوا معه قد امتثلوا تلك الصفات و تحلوا بها.

في حين لم يفصل السيوطي في هذا المثال¹، و اكتفى بقوله: قال الاصبهاني: وافق آخرها أولها من ذكر أوصاف المؤمنين ثم الإشارة إلى وصف الكافرين.

¹ - في كتابه: "مرائد المطالع في تناسب المقاطع و المطالع" ص: 126، تحقيق: محمد بن عمر بن سالم بازمول، المكتبة المكية، ط1، 2002م.

والتجديد في استنباط معنى أو حكم في هذا المقام هو أن المؤمنين بالغيب هم أصحاب العقيدة الصحيحة وهم الذين حققوا أركان الإيمان وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وحققوا السمع والطاعة بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع اعترافهم بالتقصير والتفريط، ولسان حالهم يقول غفرانك ربنا وإليك المصير، فمصيرهم هو الفلاح: ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي الفائزون بالجنة في الآخرة والمنصرون على الكافرين في الدنيا.

المثال الثاني: تناسب بداية الحج مع نهايتها

قال السيوطي: "بدأت بذكر الساعة، وختمت بقوله: ﴿ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ وذلك يوم القيامة"¹

وقال في أولها (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم (1) يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (2)) وقال في آخرها -علمهم كيف يتقون- (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون (77) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (78)) هذه التقوى، تكون بالركوع والسجود والجهادة حتى ينجوا من عذاب الله الشديد، ثم كرر الطلب في آخر آية (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (78))، كيف يتقون؟ بهذا التفصيل، بعد أن أمرهم علمهم كيف يفعلون، هذه مظاهر التقوى، لما قال لهم اتقوا الله يقولون كيف نتقنك؟ فيحييهم افعلوا كذا وكذا.

المثال الثالث: سورة المؤمنون

ومن أوضح المناسبات بين بداية سورة المؤمنون ونهايتها قوله في أولها: ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، وفي آخرها: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾، وقد نسب هذا للزمخشري.²

المثال الرابع:

¹ - المصدر نفسه: ص: 141.

² - ذكره السيوطي في المراد، ص: 142، وأوزره للزمخشري، ج3، ص: 55، وعبارة الزمخشري هي: "جعل فاتحة السورة ﴿قد أفلح المؤمنون﴾، وأورد في خاتمتها: ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾، فشتان بين الفاتحة والخاتمة. اهـ

بدأت سورة الأنعام بقوله - تعالى - : ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾، ثم ختمت بقوله - تعالى - : ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾، ففي بدايتها قال: جعل الظلمات والنور، وفي الختام قال: جعلكم خلائف الأرض. فتأمل

المثال الخامس:

بدأت سورة الإسراء بتسبيح الله - عز وجل - ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ وختمت بقوله - تعالى - : ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾، فقد شملت أفضل أنواع الذكر (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)، فتأمل براعة الاستهلال وحسن الختام.

المثال السادس:

افتتحت سورة الروم بذكر ما يفرح له المؤمنون وهو نصر الروم أهل الكتاب على الفرس الوثنيين وأن ذلك سيكون في بضع سنين، ثم ختمت بالوصية بالصبر حتى يتحقق ذلك النصر فقال - سبحانه - : ﴿فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾، فتدبر كيف كان التناسق بين المطلع والختام.

الفصل الثالث

مناسبات عامة

تمهيد للفصل: المقصود بالمناسبات العامة الخروج عن النص أو السورة والغوص في الحديث عن علائق السورة بما يتصل بها من سور أخرى سواء كانت قريبة من ناحية المجاورة سابقة ولاحقة أم كانت بعيدة، أو اتصل بالسورة ما يشابهها من ناحية الفواتح والمطالع، أو الاشتراك في الاسم أو الفضل... أو غير ذلك مما يشير لقرب معنى السورة بقريبتها، والغريب في الأمر وجود تلاحم عجيب واتحاد غريب بين بعض السور وإن تباعدتا في الترتيب المصحفي أو حتى في الترتيب التزوي، وهذا ما يزيد ويعزز مسألة الإعجاز والتحدي.

المبحث الأول: التناسب بين السور المتتابعات

المطلب الأول بين السورتين المتتابعتين المختلفتين في الفواتح

لقد رأينا سابقا مثل هذا النوع من الإعجاز الحاصل في ترتيب سور القرآن الكريم، وأقررنا بهذا التناسب الموجود بين آياته وسوره، وكتب كثير من العلماء حول هذا الموضوع، وفي مناسبات السور المتتابعة خاصة، فبينوا هذا الترابط وهذا التسلسل والتلاحم الدال على وحدة النظم ووحدة المعنى، ودقة التناسب والانسجام بين نهاية السورة وبداية التي تليها، أو بداية الأولى وبداية التالية... أو غير ذلك من أوجه الترابط بين السورتين.

هذا الأمر الذي يجعل القارئ لكتاب الله والمفسر لسوره يعيش جوا عاما يدور في فلك واحد، وفي ملحمة متكاملة، يفسر على أساسها كثيرا من الآيات والمقاطع، لأن النظرة الشاملة للسورة أو للموضوع الذي تدور حوله السورة أو عدة سور تساعد المفسر على وضع اليد على المعنى العميق والمدلول الدقيق لسياق الآيات والسور، وبالتالي التوصل إلى معاني جديدة، وكسب أفكار إيجابية من خلال معرفة هذا التناسب.

المثال الأول: سورتي التوبة والأنفال

فمن لطائف القرآن نشير إلى أن سورتي التوبة والأنفال مثلا جاءتا متتاليتين بالإضافة إلى أنهما توافقان الترتيب الزمني لغزوتي بدر وتبوك، فسورة الأنفال تتحدث عن أول غزوة غزاها النبي بينما سورة التوبة تعقب على آخر غزوة لرسول الله، وقد جاءت السورتان متتاليتان؛ حتى نلاحظ الفرق في المجتمع الإسلامي بين بداية نصرته المسلمين لدينهم ونهاية الانتصار العظيم، فالسورتان تفتحان المجال أمام علماء الاجتماع والباحثين كي يلاحظوا الفروقات بين المجتمعين ويحللوا سنن تطور المجتمعات، وهذا أمر يحتاج من علماء الاجتماع والمحللين والدارسين إلى النظر والتفكير.

المثال الثاني: سورة الفيل وقريش

يتساءل البعض عن افتتاح سورة قريش بلام التعليل لإيلاف قريش، وما سر هذا المطلع؟ وما علاقته بالكلام الذي سبقه؟ وقد جاء في كتاب التحرير والتنوير لابن عاشور أن أبي بن كعب كان يجعلها سورة واحدة ليس بينهما بسملة¹.

وفي بعض الآثار عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجمع بينهما في الركعة الواحدة، وعن عمر أنه صلى بالناس كة عند الكعبة فلما قرأ فليعبدوا رب هذا البيت جعل يومي بإصبعه إليها وهو في الصلاة بين يدي الله تعالى²، وجاءت آثار كذلك عن بعض الصحابة والتابعين أن متعلق (لإيلاف) هو ما قبله (فجعلهم كعصف مأكول)، وإن كان بعضهم جعل المتعلق (فليعبدوا).

فأما موضوع سورة قريش فهو كما يرويه سيد قطب: «استجاب الله دعوة خليله إبراهيم، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره: ﴿رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات﴾ .. فجعل هذا البيت آمناً، وجعله عيقاً من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين؛ وجعل من يأوي إليه آمناً والمخافة من حوله في كل مكان .. حتى حين انحرف الناس وأشركوا برهيم وعبدوا معه الأصنام .. لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان، مما فصلته سورة الفيل، وحفظ الله للبيت أمنه، وصان حرمة؛ وكان مَنْ وله كما قال الله فيهم: ﴿أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم؟﴾.

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عامين من خطوط التجارة — عن طريق القوافل — إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال، وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين: إحداهما إلى اليمن في الشتاء، والثانية إلى الشام في الصيف .

ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء؛ وعلى ما كان شائعاً من غارات السلب والنهب، فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجبرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغربية،

¹ - الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (م، س)، ج12، ص: 231.

² - الالوسي، روح المعاني، ج15، ص: 465.

وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة؛ وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الراجحتين، فصارتا لهم عادة وإلفاً!
 هذه هي المنة التي يذكرهم الله بها — بعد البعثة — كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة، منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف، ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين — وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله، ومنة أمنهم الخوف، سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله، أم في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يقول لهم: من أجل إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة، وتنال من ورائها ما تنال " فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع " .. وكان الأصل — بحسب حالة أرضهم — أن يجوعوا، فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع " وآمنهم من خوف " .. وكان الأصل — بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئته من حولهم — أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف!

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس، ويثير الخجل في القلوب، وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمة في حياتها، وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده، وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة، إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولا وثن، ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمي بيتها، إنما قال له: "أنا رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه" .. ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطوق، ولا يثوب إلى حق، ولا يرجع إلى معقول.

وهذه السورة تبدو امتداداً لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها، وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب «1..1

وأما موضوع سورة الفيل فهي تحكي عن قصة أبرهة الحبشي الذي جاء لهدم الكعبة في العام الذي ولد فيه النبي ﷺ، وتذكر ما حصل لهم من العقاب.

¹ - سيد قطب، الظلال، (مصدر سابق)، ج6، ص: 261

قوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل* ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾؛ أي: ألم تعلم بما صنعه الله بأبرهة وقومه الذين غزو مكة بجيش فيه أفيال، وأرادوا أن يهدموا الكعبة؟، لقد جعل الله سعيهم وتديبرهم في صرف الناس عن الكعبة ومحاولة هدمها عملاً ضائعاً لا فائدة فيه .

قوله: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل* ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصف مأكول﴾؛ أي وألم تعلم بما عاقبهم به من بعث طيور من السماء جاءت جماعات كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً، تحمل حصى صغيرة من طين¹، تلقيه على أصحاب الفيل، فتقضي عليهم، حتى صاروا كبقايا الزرع المأكول الذي تحول بعد الخضرة والنصرة، إلى أن صار ملقى على الأرض يداس بالأقدام؟

المثال الثالث: وجوه التناسب بين الإسراء والكهف

1- تستهل سورة الإسراء بقوله تعالى : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده..﴾، وتستهل سورة الكهف بقوله تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده ...﴾ .

2- آخر آية من سورة الإسراء: ﴿وقل الحمد لله ...﴾ وأول آية من سورة الكهف ﴿الحمد لله﴾ سورة الكهف، آية: 01.

3- آخر آية من سورة الإسراء: ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا..﴾ والآية الرابعة من سورة الكهف : ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا﴾. وآخر جملة في سورة الكهف هذه الوصية: ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾، ومن الجمل التي وردت في آخر آية من سورة الإسراء : ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾.

4- الآيات من (2-8) من سورة الإسراء تتحدث عن إفسادين لليهود في الأرض المباركة، الإفساد الأول كان قبل الإسلام، والثاني بعد الإسلام، وهو الإفساد المتحقق الآن، وكانت بدايته عام 1948م، وستكون نهايته بدخول المؤمنين الذين يعملون الصالحات رحاب المسجد الأقصى محررين. وقد أطلق القرآن على الإفساد الثاني ونهايته تعبير (وعد الآخرة). واللافت للانتباه أن ذكر (وعد الآخرة) تكرر في آخر سورة الإسراء أيضاً، مما يشير إلى أهمية هذا (الوعد) ومركزيته

1 - ورد تفسير سجيل بالطين في كتاب الله تعالى ، فقد ورد في عذاب قوم لوط قوله تعالى : {وأمطنا عليهم حجارة من سجيل} [هود : 82] ، وقال عنه في موضع آخر : {لنرسل عليهم حجارة من طين} [الذاريات : 33] .، فدل على أن سجيل هو الطين.

في السورة، وتعقيباً على الحديث عن وعد الآخرة، جاء في الآية 9 من سورة الإسراء: ﴿إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾، كما جاء في التعقيب على (وعد الآخرة) في خواتيم سورة الإسراء الآية 105 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، في حين جاء في الآية الأولى والثانية من سورة الكهف: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا، قِيمًا لِيَنْذَر...﴾ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً.

الفرع الأول: تناسب بداية السورة وبداية لاحقتها ﴿تناسب البدايات﴾

إن ترتيب السور في القرآن الكريم على هذا النمط لأمر عجيب ولشيء فريد؛ حيث يرى الناظر والمدقق أن هنا ارتباطاً متيناً بين سور القرآن الكريم على هذا الترتيب، وانسجاماً عجيباً لآياته وسوره، وقد كتب بعض العلماء في هذا الشأن وأفردوا كتباً مخصوصة تتحدث عن التناسب بين سور القرآن الكريم، مثل كتاب: "البرهان في تناسب سور القرآن" للشيخ ابن الزبير الغرناطي، وكتاب: "الدرر في تناسب الآيات والسور" للسيوطي، وكذا كتاب الحجة الشيخ برهان الدين البقاعي في كتابه: "تناسق الدرر"، وغيرها من الكتب، مستخرجين أوجه ترابط هذه السور فيما بينها.

وإن المتتبع لعلاقة سورة الحج بسورة الأنبياء مثلاً: يرى روابطاً ومناسبات متعددة بينها، سواء في الشكل أو الموضوعات، ففي سورة الأنبياء ذكر الله تعالى في الآية الأولى اقتراب حساب الناس، في قوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾، وفي الآية الثامنة والأربعون ذكر بعض ما يحدث يوم الحساب من تبدل للقوانين الربانية، والسنن الكونية في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، فناسب ذلك ذكر وقت هذا الحساب في بداية سورة الحج، وما يحدث فيه، وهو تماماً ما جاء في سورة الأنبياء، حيث ذكر يوم الحساب في أول آية، وذكرت أيضاً تبدل القوانين الكونية في كون وضع الحامل لحملها وترنح الناس في مشيتهم كأنهم سكارى وما هم بسكارى... فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

فإذا لاحظنا هذا التناسب بين السورتين فلا بد أن نؤمن بأن هذا الترتيب التوقيفي صادر عن حكمة بالغة لله سبحانه وتعالى، فلم يكن ترتيب السور خبط عشواء، بل كان لحكمة بالغة، يقول الإمام

الزركشي: «لترتيب وضع السورة في المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفي صادر عن حكيم»¹، وهذا واقع في جميع القرآن.

وزيادة في الفهم نعطي مثالا آخر عن سورتي العصر والتكاثر، إذ أقر الله تعالى في بداية سورة التكاثر انشغال الإنسان بالدنيا والتهائه بها، حيث قال: ﴿ألهكم التكاثر﴾ آية: 01، لتأتي بعدها سورة العصر وفي قسم على حقيقة أخرى في أول آية منها بأن الانسان في تناقص وزوال حيث قال: ﴿والعصر إن الانسان لفي خسر﴾ آية: 01، وكأن لسان الحال يقول إذا ظنَّ الانسان أنه في تكاثر وتزايد فهو مخطأ بل الصحيح أنه إلى فناء ونقصان، والنقصان عكس التكاثر، يفسر قوله تعالى: ﴿لفي خسر﴾ قوله في سورة المطففين: ﴿ويل للمطففين الذين... كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ يعني ينقصون في الميزان ويطففون فيه، والظاهر أن هذه المناسبة مناسبة تضاد.

الفرع الثاني: تناسب نهاية السورة وبداية لاحقتها

هذا النوع من المناسبات مشهور بين العلماء والمفسرين... قال الزركشي رحمه الله: «ويدل عليه أن هناك علاقة ومناسبة بين افتتاح السورة وخاتمة السورة التي قبلها كالمناسبة بين نهاية سورة الفيل ﴿كعصف مأكول﴾، الفيل: 5، وبداية سورة قريش: ﴿إيلاف قريش﴾ [قريش: 1]»²، بل وغالب ما في كتاب أحمد ابن الزبير الغرناطي المسمى: "البرهان في تناسب سور القرآن" هو من هذا القبيل، فنهاية كل سورة يتناسب مع مطلع السورة التالية، ويقرر ذلك الإمام الزركشي بقوله: «وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لم ختم به السورة قبلها»³.

ومن بديع تناسب نهايات السور مع بدايات التي تليها:

1- قال تعالى في نهاية سورة القيامة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ يَمِينِي (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى (39) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (40)﴾... الإنسان من نطفة.

ثم قال في بداية سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)﴾... الإنسان من نطفة

1- البرهان: 383/1، إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية، دار عمار، عمان، الأردن، ص: 76.

2- البرهان: 186/1.

3- نظر الدرر: 19/1.

2- ولا بأس أن نستأنس بكلام علمائنا في هذا المقام في الكشف عن التناسب الموجود بين سورة الأنبياء وسورة الحج، حيث يقول الشيخ برهان الدين البقاعي في مناسبة السورة لما قبلها: «لما ختمت التي قبلها بالترهيب من الفزع الأكبر، وطى السماء وإتيان ما يوعدون، والدينونة بما يستحقون، وكان أعظم ذلك يوم الدين، واستفتحت هذه السورة بالأمر بالتقوى المنجية من هول ذلك اليوم فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾¹ [أي الذين تقدم أول تلك أنه اقترب لهم حسابهم] يعني الذين ذكروهم في بداية سورة الأنبياء، ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾²، أي احذروا عقاب المحسن إليكم بأنواع الإحسان، بأن تجعلوا بينكم وبينه وقاية الطاعات»³.

وقد ذكر رابطا واحدا من حيث النظم، وهو تكرر لفظة "الناس" في بداية السورتين، وذكر رابطا أيضا من ناحية المعنى، وهو خاتمة سورة الأنبياء بذكر تلك المشاهد المرهوبة كالفزع الأكبر، وطى السماء، وغيرها، وابتداء سورة الحج بما ينجي من هذه الأهوال من الأمر بما يجعل الإنسان في مأمن منها.

ولقد توسع ابن الزبير الغرناطي في كشف أوجه الربط بين السورتين، فقال: «لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ آية¹، وكان واردا في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾⁴، وقوله تعالى: ﴿سُؤْرِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁵، وقوله أيضا: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ..﴾⁶، وقوله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾⁷، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مَشْفُقُونَ﴾⁸، وقوله: ﴿وَكُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾⁹، وقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾¹،

1 - سورة الحج، الآية: 01.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 01

3 - نظم الدرر، البقاعي، (مصدر سابق)، ج5، ص: 129.

4 - سورة الأنبياء، الآية: 35

5 - سورة الأنبياء، الآية: 37

6 - سورة الأنبياء، الآية: 28

7 - سورة الأنبياء، الآية: 47

8 - سورة الأنبياء، الآية: 49

9 - سورة الأنبياء، الآية: 93

وقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾²، إلى ما تخلل هذه السورة، من التهديد وشديد الوعيد، حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار، بما في الساعة وما بعدها، وما بين يديها، في نظير هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدأت، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة، وعظيم أمرها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ..﴾³، إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾⁴، ثم أتبع هذا ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ﴾⁵، ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ..﴾⁶، أي اطردها هذا الحكم العجيب، ووضح من تقلبكم من حالة على حالة في الأرحام، وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود، والموت حين نزول الماء، فيحيي النبات، وضروب الثمرات، كما أحياكم أولا، وأخرجكم من العدم إلى الوجود، وأحيا الأرض بعد موتها، وهمودها، كذلك تأتي الساعة من غير ريب، ولا شك، ويعثكم لما وعدكم من حسابكم، وجزائكم، فريق في الجنة وفريق في السعير»⁷.

كما جاء في خواتيم الأنبياء عن الساعة وما يليها من العقاب والثواب، في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (96) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (97)﴾ إلى آخرها ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102)﴾، وجاء في بداية الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فذكر في آخر الأنبياء أحداث الساعة، وفي الحج الدعوة إلى ما يجب وما ينبغي لنا فعله تجاه هذه الأهوال، وهو أن نتقي ربنا لأن: ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، فهناك كلام في الساعة، وهنا أيضا كلام عن الساعة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يعني استكمال لما انتهى به في السورة السابقة وكأها سورة واحدة.

1 - سورة الأنبياء، الآية: 97.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 104

3 - سورة الحج، الآية: 1.

4 - سورة الحج، الآية: 2.

5 - سورة الحج، الآية: 5.

6 - سورة الحج، الآية: 6.

7 - البرهان في تناسب سور القرآن، ابن الزبير، (مصدر سابق)، ص: 256.

ويمكن إضافة وجه آخر في ربط الحديث عن الساعة في سورة الحج بآية أخرى ختمت بها سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وافتتح هذه بذلك فقال في الآية الأولى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ﴾.

ونكون بهذا قد وضعنا اليد على كثير من الروابط والمناسبات بين سورة الحج وسورة الأنبياء، إن من ناحية النظم والشكل وإن من ناحية المعنى والموضوع، وهذا ما يكتشفه القارئ للقرآن الكريم عند تتبعه ترتيب سور القرآن، وما ينطوي عليه من أسرار ولطائف، حيث تزيد الإنسان فهما وتدبرا لسور القرآن وآياته.

ومثال رابع: لفاضل السامرائي:

البقرة وآل عمران: البقرة من خواتيمها قوله تعالى ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (284) وفي بداية آل عمران ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (5) آل عمران ﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ كَأَنَّهَا جِزءٌ مِنْهَا، إِذْ مَرْتَبَةٌ، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (6) في آل عمران وقال في البقرة ﴿فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (284) ذكر ما يشاء في التصوير وذكر ما يشاء في الخاتمة، يصوركم في الأرحام كيف يشاء هذا في بداية الأمر والخليفة يتصرف كيف يشاء ثم ﴿فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (284) يتصرف كيف يشاء في الخاتمة إذن تصرف في التصوير كيف يشاء وتصرف في الخاتمة كما يشاء. آية البقرة تقول (فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) المفهوم من الآية أن الله يتصرف كما يشاء (فَيَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ صارت المبتدأ والخاتمة بمشيئته سبحانه.

في نهاية البقرة ذكر من آمن بالله والملائكة والكتب والرسول ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ (285).

وذكر في أول آل عمران الكتب ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ (3) هذه كتب، والمترل عليهم هم الرسل إذن من آمن بهذه آمن بتلك فإذا ذكر الكتب وما في آخر البقرة وذكرها في أول آل عمران. ثم قال في خاتمة البقرة ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (286) وفي بداية آل عمران ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (4) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ (12) قال فانصرنا على القوم الكافرين ثم قال قل للذين كفروا ستغلوبون وكأنها استحابة لهم، استحباب لهم دعاءهم، كأنها استحابة، ثم ذكر ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (286) ثم ذكر في أوائل آل عمران نصر المسلمين في معركة بدر ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ التَّتَقْنَا﴾ (13) فكانها استحابة للدعاء الذي دعوا به (فانصرنا على القوم الكافرين)، قل لهم وفعل، قل لهم موجهة للكفار، قال للرسول ﷺ قل لهم ستغلوبون، هم قالوا فانصرنا على القوم الكافرين فقال تعالى قل لهم ستغلوبون وفعل إذن استحابة بالقول وبالفعل، إذن هي مترابطة. وقد يكون من الترابط ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (7) إلى أن يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (7) وقال في البقرة ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (286) أنتم لا تعرفون المتشابه والراسخون في العلم يقولون آمنا به ولا يعلم تأويله إلا الله ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، هذا ليس من شأنكم ليس في طاقتكم معرفة المتشابه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾؛ إذن ليس في طاقتكم أن تبحثوا هذا الأمر والله لا يكلفكم هذا الأمر ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (286) في التفكير والقصد والفعل.

ربما تنمة الآية (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) هذه في العمل وتلك في آل عمران في الاعتقاد والتفسير، حتى في التكليف أو عدم التكليف بالاعتقاد، وسعها أي شيء ليس في وسعك لا تفكر فيه، إذن صار ترابط من حيث العمل ومن حيث الاعتقاد والتفسير والتأويل الذي ليس في وسعك لا يكلفك ربك به، إذن صار هناك ترابط في أكثر من نقطة.

الفرع الثالث: تناسب نهاية السورة ونهاية لاحقتها ﴿تناسب النهايات﴾

هذا النوع من التناسب جديد لم يكتب فيه أحد ولم يضعوه كقسم من أقسام علم المناسبات، فذكروا تناسب بداية السورة ونهاية السورة التي سبقت، وتناسب المطالع مع ما سبقت له الآية، وتناسب بداية

السورة ونهايتها وغيرها من أوجه التناسب... لكن لم يتطرق أحد فيما أعلم الى هذا الوجه، وقد سميته تناسب النهايات، أي نهاية السورة ونهاية السورة التي تليها، وسأبين ذلك من خلال كشف المناسبة بين نهاية سورة الأنبياء ونهاية سورة الحج، فلقد تحدثت سورة الأنبياء في أواخرها عن الصالحين وعبادتهم، وعن نعمة الإسلام فقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103) يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104) وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (106) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، وهي الآيات نفسها تتكرر في أواخر سورة الحج، حيث تحدثت السورة عن الدعوة لعبادة الله وتذكير الناس بنعمة الإسلام وفضل سيدنا إبراهيم عليه السلام إذ سمنا المسلمين من قبل، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (77) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾، وما هذا التوافق وهذا الانسجام وذلك التناسب بين آيات القرآن الكريم إلا أكبر دليل على إعجاز هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

المطلب الثاني: التناسب بين السور المتتابعة المشتركة في الفواتح

الفرع الأول: المشتركة في الفواتح

لقد جاءت افتتاحيات السور القرآنية مختلفة تماماً عما عهده العرب، في الماضي وفي الحاضر، من افتتاحيات لمختلف فنونهم الأدبية، كالقصيدة والخطبة والرسالة والتوقيع والمقامة والمقالة والخطبة والبحث والفصل من الكتاب.

وإذا أجرينا مسحاً لفواتح السور المائة والأربع عشرة التي يتألف منها القرآن الكريم فسنجد معظمها، إن لم يكن كلها، مختلفاً تماماً عن آية فواتح معهودة في أي فن من الفنون الأدبية المعروفة لدى العرب، وربما غير العرب أيضاً.

وهناك عدة سور في القرآن الكريم مشتركات في الفواتح مثل الاستفتاح بحروف التهجي وذلك في تسع وعشرين سورة، فمنها المبدوءة بحرف واحد مثل ص، ق، ن، والمبدوءة بحرفين نحو: طه، النمل، يس. وهناك المبدوءة بثلاث أحرف نحو: (طسم): الشعراء، القصص والمبدوءة بأربعة أحرف نحو (المص): الأعراف (المر): الرعد والمبدوءة بخمسة أحرف نحو: (كهيعص): مريم (حم*عسق): الشورى.

وبعض السور استفتحت بغير حروف التهجي مثل الحواميم والمسبحات وما ابتدأت بفعل الأمر "قل"، وما استفتحت بالنداء وغيرها¹، كما عده ثلة من العلماء، ولعل اشتراك هذه السور في الفواتح يخفي سرا ما نريد ان نطلع عليه في هذه الوريقات.

- المتشابهات في الفواتح

إن من جملة ما تميّز به هذا النوع الأدبي السماوي الجديد، فيما امتاز به من خصائص استقلّ بها عن الفنون الأدبية الأرضية، فواتح سورته. فلقد جاءت افتتاحيات السور القرآنية مختلفة تماماً عما عهدته العرب، فبعضها متشابه والآخر مختلف، فهل اشتراك بعض السور في الفواتح دليل على اشتراكها في موضوع واحد، ووحدة موضوعية واحدة؟

¹ - النوع الأول: الاستفتاح بالثناء على الله عز وجل

وهو على قسمين: الأول: يثبت صفات المدح، مثل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ومثل: قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ﴾، والثاني بتزيينه من صفات النقص، نحو: سور المسبحات.

النوع الثاني: الاستفتاح بحروف التهجي مجموعة في قولهم: [نص حكيم قاطع له سر].

النوع الثالث استفتاح السور بالنداء وذلك في عشر سور: نحو قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ونحو: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ونحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ونحو: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

النوع الرابع: الاستفتاح بالجمل الخبرية وجاء ذلك في ثلاث وعشرين سورة قوله تعالى: ﴿بِرَأْيِ مَنْ لَلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

النوع الخامس: الاستفتاح بالقسم وجاء في خمس عشرة سورة، نحو والصفات، والذاريات، والطور، والنجم

النوع السادس: الاستفتاح بالشرط جاء في سبع سور، نحو: قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾.

النوع السابع: الاستفتاح بالأمر جاء في ست سور نحو: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾.

النوع الثامن: الاستفتاح بالاستفهام وجاء في ست سور نحو: قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾.

النوع التاسع: الاستفتاح بالدعاء وجاء في ثلاث سور نحو: - قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾.

النوع العاشر: الاستفتاح بالتعليل نحو: قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفَافُ قَرِيشٌ قَرِيشٌ﴾.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك الحواميم، فما هي هذه السور وما سر افتتاحها جميعاً بلفظ "حم"؟
المتبذأة بـ حم أو ما يعرف بالحواميم.

الحواميم هي سبع سور من القرآن الكريم تشترك في أنها تُفْتَحَ بـ (حم) ومن هنا فقد صارت كالعائلة الواحدة فأطلق عليها بعائلة الحواميم، وقد حرص السلف الصالح على تسمية هذه السور المبدوءة بحرفي (حم) بـ (آل حم) مما يدل على أنهم اعتبروا هذه السور السبع أسرة واحدة وزمرة واحدة¹، ولا يخفى ما بين الحواميم من التشاكل²، وهو أن كل سورة منها ابتدأت بـ (حم) ثم استفتحت بالكتاب أو وصفه مع تفاوت المقادير في الطول والقصر وتشاكل الكلام في النظام وهو ما ذكره السيوطي في (تناسق الدرر) نقلاً عن الكرمانى في (العجائب)³ فضلاً عن ذلك فإنها تتميز بما يأتي :

1- إنها تتكون من سبع سور متتالية في ترتيبها في المصحف الشريف هي: (غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف).

2- نزلت سور هذه المجموعة متتالية ومنتابعة أيضاً فقد نزلت أولاً السورة رقم (40) ثم (41) ثم (42) وهكذا إلى رقم (46).

3- ومن المهم أن نعلم بأن هذه السور قد نزلت جميعاً بمكة ؛ فعن ابن عباس قال: (نزلت الحواميم جميعاً بمكة)⁴.

4- أنها تبدأ بـ (حم) باستثناء (الشورى) فأيتها الأولى (حم) وآيتها الثانية (عسق) مما جعلها تتميز عن باقي سور المجموعة وقد يكون لها الصدارة بين هذه السور أو قد تمثل عاملاً مشتركاً بين سور المجموعة. وجاء في فضل سور الحواميم أحاديث منها قول رسول الله ﷺ : (الحواميم سبع وأبواب النار سبع، يجيء كل حم منها يقف على باب من هذه الأبواب يقول : اللهم لا تُدخِل من هذا الباب من كان

¹ - الأساس في التفسير، سعيد حوى : 1 / 4927.

² - سور الحواميم - دراسة بلاغية، (أطروحة دكتوراه)، عبد القادر الحمداني : 10 (جامعة الموصل)

³ - تناسق الدرر : 130، والإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي : 2 / 114.

⁴ - المحرر الوجيز : 13 / 1 . والدر المنثور : 7 / 268 .

يؤمن بي ويقرؤني¹، وقول النبي ﷺ: (إن لكل شيء ثمرة وثمره القرآن ذوات حاميم، هي روضات محصنات متجاورات، فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم)²، وقوله ﷺ: (الحواميم ديباج القرآن)³.

وأول سورة من الحواميم هي سورة (غافر) لتدل على أن عملية ستر الذنوب جارية إلى يوم القيامة بشرط الاستغفار والإنابة وسميت بذلك لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل في أول السورة في قوله تعالى: (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ) (غافر: من الآية 3) وتسمى أيضاً سورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها في قوله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) (غافر: من الآية 28)، وتسمى (حم الأولى) لأنها أولى ذوات حم⁴.

وتأتي سورة فصلت بعد سورة غافر، وقد سُمِّيتْ (فُصِّلَتْ) بصيغة (فُعِّلَ) التي تدل على التكرير والتكثير وعلى منتهى البيان والتفصيل⁵، لأن الله تعالى فصل فيها الآيات ووضح فيها الدلائل على قدرته ووحدانيته، وأقام البراهين القاطعة على وجوده وعظمته وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بجلال الله وعظيم سلطانه⁶، وقد وردت لفظة (فصلت) في أول السورة في قوله تعالى: (كِتَابٌ فَصَّلْتُ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (فصلت: 3)، ثم في قوله تعالى: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) (فصلت: من الآية 44).، وتسمى هذه السورة أيضاً بـ (حم السجدة) لأنها تميزت عن السور المفتوحة بـ (حم) بأن فيها سجدة من سجود القرآن في قوله تعالى (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) (فصلت: 37) ولذلك تسمى أيضاً بـ (سورة السجدة).

وتأتي بعدها سورة الشورى (وقد ذكر اسم السورة في أثناء حديثها عن صفات المؤمنين، وجاء عنوان هذه التسمية تنويهاً بمكانة الشورى في الإسلام وتعليماً للمسلمين أن يقيموا حياتهم على هذا المنهج

1 - الدر المنثور في التفسير المأثور: 269 / 7.

2 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي: 412 / 1.

3 - المستدرک علی الصحیحین، الحاکم النیسابوری: 437 / 2، والدر المنثور: 269 / 7.

4 - بصائر ذو التمييز: 409 / 1.

5 - سور الحواميم دراسة بلاغية تحليلية (أطروحة دكتوراه)، 12، عبدالقادر الحمداي.

6 - صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: 115 / 3.

الأمثل الأكمل (منهج الشورى) لما له من أثر عظيم في حياة الفرد والمجتمع¹ وذلك في قوله تعالى :
(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ) (الشورى:38)،
وظهر أن تسلسل لفظة (شورى) في الآية الكريمة هو السابع، وقد زيد في افتتاحها بـ (حم) حروف
أخرى هي (عسق)، ولذلك تسمى أيضاً بـ (حم عسق) وتسمى سورة (عسق) لقصد الإختصار².

ورابعة الحواميم؛ سورة الزخرف، وسميت بالزخرف لقوله تعالى : ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف:35)، وسمها البخاري في صحيحه: (حم
الزخرف)3، كما أن لفظة (زخرفاً) لم تقع في غيرها من القرآن الكريم فكانت عنواناً لها .

وتأتي بعدها سورة الدخان، وسميت بذلك لما ذُكرَ فيها من علامات الساعة ومنها خروج الدخان
فقال تعالى : ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ (الدخان:10).

أما سورة الجاثية فقد سُميت بذلك تنديداً بالمنكرين للبعث وتهديداً لهم بالخسران يوم القيامة يوم تجثوا
أُمَّمُ الْخَالِقِ كُلِّهَا لخالقها الواحد الأحد إذ يقول تعالى : (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) (الجاثية: من
الآية28) .

وتختتم (آل حم) بسورة الأحقاف، وسميت بالأحقاف لورود لفظ (الأحقاف) في قوله تعالى : (وَأذْكَرُ
أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ) (الأحقاف: الآية21) ولقد تفردت هذه السورة بلفظ (الأحقاف) فلم
يرد اللفظ في غيرها من السور .

مَوْضُوعَاتُ الْحَوَامِيمِ :

ذكرنا فيما سبق ما بين الحواميم من التشاكل والاشتراك في صفات عديدة في الشكل، ونود الإشارة إلى
ما بين هذه المجموعة من السور من توافق واشتراك في المعاني والمضامين إذ يمكن استخلاص (سبع)
موضوعات رئيسة ناقشتها سور الحواميم على السواء يمكن تلخيصها بالعناوين الآتية⁴
1- تزييل القرآن وصفاته. 2- النعم الألهية. 3- قصص الأنبياء والأمم السابقة .

¹ - سور الحواميم - دراسة بلاغية تحليلية (أطروحة دكتوراه) : 13.

² - المستدرک علی الصحیحین، الحاکم النیسابوری : 2 / 437، والدر المنثور : 7 / 269.

³ - صحیح البخاری : 3 / 185.

⁴ - سور الحواميم - دراسة بلاغية تحليلية، عبدالقادر الحمداني-أطروحة دكتوراه (جامعة الموصل) 10

4- خطاب الرسول ﷺ . 5- الإنسان، والإيمان والكفر 6- مشاهد القيامة. 7- قواعد إيمانية.

المبحث الثاني: السور المتباعدة

رأينا التناسب بين السور المتباعدة وهذا ليس بغريب لأننا كشفنا علة تتابعهما لكن السؤال هل تبقى مناسبات من هذا النوع أو من نوع آخر بين السور التي تنتفي صفة التتابع فيها. لعل أهم ما يربط بين السورتين المتباعدتين هو افتتاحهما بنفس العبارات، فمنها ما يبدأ بالتسبيح ومنها ما يبدأ بالحمد والثناء ومنها ما يشترك في ابتدائه بحروف الهجاء، وهذا أيضا قد يطال السورتين المتجاورتين، وقد شهد أئمة البيان والبلاغة للقرآن الكريم أنه أتت فيه فواتح السور على أحسن الوجوه وأكملها، حتى أخذت منه فنون حسن الإفتتاح وبراعة الاستهلال، كما أخذت من أساليبه سائر فنون البلاغة.

وهذه الفواتح من علوم القرآن التي تعنى بتتبع وتقسيم السور حسب مطلعها، وإن القرآن الكريم له مئة وأربعة عشر سورة، وقد قسم العلماء فواتح السور إلى عشر أقسام¹، وهي الثناء بالتحميد والتسبيح لله تعالى، وحروف التهجي، والنداء، والجملة الخبرية، والقسم، وجمل الشرط، والأمر، والإستفهام، والدعاء والتعليل.

المطلب الأول: الاستفتاح بالثناء:

الفواتح هي أول ما يقرع السمع وهي فيها من حسن الابتداء وبراعة الاستهلال ما يجعل القلب يميل إلى سماعها وينجذب إليها، ولم تكن الفواتح على نسق واحد، بل جاءت بأعزب لفظ وأرق أسلوب وأحسن نظم وأوضح معنى وأحلى عبارة وبما يناسب كل سورة.

الله عز وجل استفتح أربع عشرة سورة بالثناء عليه سبحانه، نصف هذه السور افتتح بإثبات صفات الكمال، ونصفها افتتح بسلب صفات النقص وتزويه الله عز وجل، فإثبات صفه المدح في سبع سور، خمس ابتدأت بالحمد الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر، وسورتان بـ تبارك وهما الفرقان، والملك.

و السور التي تبدأ بالحمد لله خمسة وهي كالتالي:

الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آية 1

الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ آية 1

¹ - وقد ذكرناها سابقا في الهامش.

الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ آية 1
سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾
آية 1.

فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ
يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية 1.
وأما السورتان التي تبدأ بتبارك فهي:

الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ آية 1.
الملك: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية 1.

ويبدو عند التدقيق والتمعن والتدبر أن هذه السور قد اشتركت في مواضيع بعينها، مثل تعدد النعم
ووجوب الشكر عليها، وهي نعم متعددة تبدأ بنعمة التوحيد والإيمان، ونعمة إنزال القرآن الذي يعتبر
المصدر الأول للتشريع، ونعمة الحفظ والصون، ونعمة تسخير ما في السموات والأرض للإنسان من
خير.

فسورة الكهف هي إحدى السور الخمس، التي افتتحت بتقرير الحقيقة الأولى في كل دين، وهي أن
المستحق للحمد المطلق، والثناء التام، هو الله رب العالمين.

وأما سورة الأنعام وإن كانت قد اشتركت في هذا الافتتاح، إلا أن لكل سورة طريقتها في بيان الأسباب
التي من شأنها أن تقنع الناس، بأن المستحق للحمد المطلق هو الله - تعالى - وحده.
وإنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله - تعالى - ، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو
صادر عنه ، ومرجعه إليه؛ إذ هو الخالق لكل شيء ، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ،
فهو في الحقيقة حمد لله ، لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه.
وقد بين بعض المفسرين الحكمة في افتتاح بعض السور بلفظ الحمد دون المدح أو الشكر فقال ما
ملخصه : أعلم أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر ، أما بيان أن المدح أعم من الحمد،
فلأن المدح يحصل للعاقل ولغير العاقل ، فقد يمدح الرجل لعقله، ويمدح اللؤلؤ لحسن شكله،

وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار ، على ما يصدر منه من الإِنعام ، فثبت أن المدح أعم من الحمد. وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإِنعام، سواء أكان ذلك الإِنعام واصلاً إليك أم إلى غيرك ، وأما الشكر فهو عبارة عن تعظيمه لأجل إِنعام وصل إليك وحدك ، فثبت أن الحمد أعم من الشكر . وكان قوله: الحمد لله تصريحاً بأن المؤثر في وجود العالم هو الفاعل المختار، الذي وصلت نعمه إلى جميع خلقه، لا إلى بعضهم¹.

المطلب الثاني: المتشابهات في النداء

هناك عشر سور تبدأ بالنداء، وبصيغة قرآنية خاصة وثابتة في السور جميعاً هي (يا أيها)، وهي تختلف عن صيغ النداء في لغتنا، بل عن صيغة النداء في الحديث الشريف أيضاً؛ إذ تكاد تقتصر فيه على (يا) أو (أيها) منفردتين، ولا تستعمل بصيغة النداء (يا أيها)؟ أو بالنكرة.

ولقد جاءت هذه الصيغ في عشر سور: خمس منها نداء للرسول صلي الله عليه وسلم يأيها النبي : (الأحزاب، الطلاق، التحريم) يأيها المدثر: (سوره المدثر) يأيها المزل: (سوره المزل) .

وثلاث منها نداء المؤمنين: يأيها الذين امنوا : (المائدة، الحجرات، الممتحنة).

وفي سورتين نداء للناس: يأيها الناس : (النساء، الحج).

يقول عبد الله بن مسعود: "إذا سمعت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فارعها سمعك فإنه أمر خير تؤمر به أو شر تنهى عنه"، ومعنى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي يا من آمنتم بالله حقاً، يا من رضيتم بالله رباً، يا من أقررتم بالله معبوداً، اسمعوا وأطيعوا.

مثال سورة المائدة:

سورة المائدة (مدنية)، ومنها ما نزل في مكة (بعد حجة الوداع)، نزلت بعد سورة الفتح، وهي في ترتيب المصحف بعد سورة النساء، وعدد آياتها 120 آية، وهي من السور التي تبدأ بالنداء، وتكرّر هذا النداء في القرآن كله 88 مرة، منها 16 مرة في سورة المائدة، فكلما يأتي نداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تنتقل بنا السورة إلى محور جديد وأحكام جديدة تفصيلية، والملفت أن كل آيات السورة تدور في فلك

¹ - التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، سورة الأنعام.

هذه المحاور التي تبين أحكاماً كثيرة في الحلال والحرام: مثل الطعام والشراب والصيد والذبائح، والأسرة والزواج، والإيمان والكفارات، والعبادات، والحكم والقضاء والشهادات وإقامة العدل، وتنظيم علاقات المسلمين والأديان الأخرى، خاصة اليهود والنصارى.

و سورة المائدة هي سورة الحلال والحرام في الإسلام، فهي السورة الوحيدة التي جمعت مقاصد الشريعة الإسلامية الخمسة:

1. حفظ الدين
2. حفظ النفس
3. حفظ العقل
4. حفظ العرض
5. حفظ المال

فهذه السورة التي احتوت قوله تعالى ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ تريد أن ترشدنا إلى أن شرع الله تعالى هو أحسن شرع لضمان مصلحة البشرية في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال:

1. حفظ الدين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ (54) ﴾ فأول ما تهتم به الشريعة هو حفظ الدين وترك الكفر.
2. حفظ النفس ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا (32) ﴾ وفيها تحريم قتل النفس.
3. حفظ العقل ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ (90) ﴾... والغاية من تحريم الخمر هي حفظ العقل.
4. حفظ العرض ﴿ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ (5) ﴾ في تحريم العلاقة بين الجنسين قبل الزواج.

5. حفظ المال ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا. (38) ﴾

فمقاصد الشريعة الخمسة قد ذكرت في سورة المائدة لتثبت لنا أن الأوامر والنواهي المطلوب إيفاؤها إنما هي لضمان مصلحة الناس ضمن المحاور الخمسة المذكورة.

سورة النساء: لا يخفى على الناس موضوع سورة النساء فهي إحدى السور المدنية الطويلة وهي سورة مليئة بالأحكام التشريعية التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين وهي تعني بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية وقد تحدثت السورة الكريمة عن أمور هامة تتعلق بالمرأة والبيت والأسرة والدولة والمجتمع ولكن معظم الأحكام التي وردت فيها كانت تبحث حول موضوع النساء ولهذا سميت "سورة النساء."

سورة الحج: هي السورة الوحيدة في القرآن كله التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام وهو الحج، فالسورة تتحدث عن مواضيع كثيرة منها يوم القيامة والبعث والنشور والجهاد والعبودية لله.

الفرع الثالث: الم - الر

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، فمنهم من قال هي مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها إلى الله ولم يفسره، ومنهم من فسرها وأختلف هؤلاء في معناها، وعن ابن نجيح عن مجاهد أنه قال: الم، وح، والمص، وص، .. فواتح افتتح الله بها القرآن، وقيل أنه أسم من أسماء السور .. والله أعلم. وقيل هي أسم من أسماء الله تعالى ... وقال شعبة عن السدي بلغني أن العباس قال "الم أسم من أسماء الله الأعظم." هكذا رواه ابن أبي حاتم .. قال سألت السدي عن "حم وطس والم" فقال، قال ابن عباس هي "اسم الله الأعظم"، .. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هو "قسم الله به وهو من أسماء الله تعالى" وعن ابن عباس قال: "الم قال أنا الله أعلم"¹ وهي بعض السور التي تشترك في ابتدائها بالحروف المقطعة التي جمعها بعضهم في قوله: (نص حكيم قاطع له سر) وهي:

السور المستفتحة بـ (الم): البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

السور المستفتحة بـ (الر): يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر.

المطلب الثالث: المسبحات

تتريه عن صفات النقص: في سبع سور وكلها بصيغته التسييح: بالمصدر في: سوره الإسراء (سبحان الذي أسرى بعبده)، وبالماضي في: سورة الحديد، الحشر، الصف (سبح الله) وبالمضارع في الجمعة، والتغابن: (يسبح لله)، والأمر في الأعلى: (سبح اسم ربك الأعلى).

¹ - تفسير ابن كثير من ص 35 الى ص 38 المجلد الأول للناسر المكتبة القيمة طبعة 1993م.

وتسمى هذه الأخيرة السور المسبحات ولها فضل كسائر سور القرآن الكريم، وفيها زيادة فضل جاء في حديث النبي ﷺ عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم : (كان لا ينام حتى يقرأ المسبحات ويقول فيها آية خير من ألف آية) 1، قالت عائشة رضي الله عنها : (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ " الزمر " و "بني إسرائيل" (أي سورة الإسراء)) 2 ولنيل فضل هذه الآية حرص العلماء على الاجتهاد لمحاولة اكتشافها، فقال الحافظ بن كثير إنها قوله تعالى: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ 3، كما قيل إنها ما ورد في آخر سورة الحشر من قوله تعالى: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون﴾ 4.. كما قيل إنها الآية التي صدرت بـ سبح 5.

وحول هذا الإخفاء قال الطيبي: «أخفى الآية فيهن كإخفاء ليلة القدر في الليالي، وإخفاء ساعة الإجابة في يوم الجمعة، محافظة على قراءة الكل لكيلا تشذ تلك الآية» 6.

وانظر لعجيب ترتيب هذه السور في القرآن الكريم حيث بدأ بالمصدر ثم الماضي فالمضارع فالأمر، قال الكرمانى: «سبح لله هذه كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر منها في بني إسرائيل لأنه الأصل، ثم الماضي سبح لله في الحديد والحشر والصف لأنه أسبق الزمانين، ثم المستقبل في الجمعة والتغابن،

1 - أخرج الترمذي وأبو داود وأحمد وغيرهم واللفظ للترمذي في أبواب فضائل القرآن باب 21 بسنده إلى عرباض بن سارية أنه حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد يقول: "إن فيهن آية خير من ألف آية" وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال الشيخ الساعدي في تخرجه وشرحه لمسند الإمام أحمد عند هذا الحديث: وأخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن وحسنه أيضا الحافظ. [رواه الترمذي وصححه الألباني / 2712] ..

2 - [رواه الترمذي وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة / 641] ..

3 - سورة الحديد، الآية: 03.

4 - سورة الحشر، الآية: 23.

5 - سبح اسم ربك الأعلى

6 - مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة: 1422هـ/2002م، ج7، ص: 21.

ثم بالأمر في سورة الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها وهي أربع المصدر والماضى والمستقبل والأمر المخاطب»¹.

والأعجب من كل هذا اشتراكها جميعاً في مواضيع متشابهة، فسورة الحديد: من السور المدنية التي تعنى بالتشريع والتربية والتوجيه وتبني المجتمع الإسلامي المختلط على أساس العقيدة الصافية والخلق الكريم والتشريع الحكيم.

وسورة الحشر: هذه السورة تسمى (سورة بني النضير) وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وهي تتحدث عن بناء المجتمع الذي كان للمنافقين واليهود دور فيه، وتحدث عن بناء المجتمع الإسلامي بالتشريعات، فجاءت قضية التكافل الاجتماعي، وقضية توزيع الفيء على المسلمين، بالإضافة إلى قضية ترسيخ قضايا الأخلاق التفصيلية في قضية الصدق والإيثار في وصف الأنصار بذلك، ووصف المهاجرين بذلك أيضاً، وعدم الحقد والغل على السابقين حيث ذكر في الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فهي قضية بناء وقضية صيانة المجتمع وهذه الأهداف كانت أهداف سورة الحشر باختصار.

وأما سورة الصف: فقد قال البقاعي فيها ما يلي:

«سورة الصف: وتسمى سورة الحواريين، ومقصودها الحث على الاجتهاد التام في الاجتماع على قلب واحد في جهاد من دعت الممتحنة إلى البراءة منهم، بحملهم على الدين الحق، أو محققهم عن جديد الأرض أقصى الحق، تزيها للملك الأعلى عن الشرك، وصيانة لجنابه الأقدس عن الإفك، ودلالة على الصدق في البراءة منهم والعداوة لهم، فهي نتيجة سورة التوبة، وأدل عما فيها على هذا المقصد الصف بتأمل آيته، وتدبر ما له من جليل النفع في أوله وأثنائه وغايته، وكذا الحواريون»². اهـ.

وفيها عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها، وتشريف صفوف الغزاة والمصلين، والتنبية على جفاء بني إسرائيل، وإظهار دين المصطفى على سائر الأديان، وبيان التجارة الرابحة مع الرحيم الرحمن، والبشارة بنصر أهل الإيمان، على أهل الكفر والخذلان، وغلبة بني إسرائيل على أعدائهم ذوى العُدوان، في قوله: فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ.

¹ - الكرمانى، البرهان في تأويل متشابه القرآن - سورة الحديد -

² - نظم الدرر، البقاعي، ج2، ص: 123.

والذي نستنتجه من اسمها فيها دعوة للصف والوحدة والتراص في سبيل الله وفيها آيات تدل على المزيد من الإلتناء ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَتْهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ آية 4، وآيات تدل على العكس ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ آية 8 وتختتم السورة بسيدنا عيسى ودعوته إلى الحوارين أن ينتموا إلى الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ آية 14، فالإلتناء حتى عند سيدنا عيسى والحواريين والدين ليس محصوراً بالصلاة والصوم والعبادة وإنما هو الإلتناء للدين أيضاً.

وجاء في سورة الجمعة:

رمز الوحدة والإلتناء والوحدة بين المؤمنين وبعضهم واجتماع المؤمنين، والسورة حددت أهداف صلاة الجمعة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ آية: 2 يتلوا آياته، يزكيهم، يعلمهم الكتاب والحكمة، هذه الأهداف التي يجب أن تكون عليها صلاة الجمعة فهل تؤدي الصلاة الآن الهدف بالتزكية والوحدة والاجتماع؟ الجمعة هو يوم وحدة الأمة ويوم تذكرة الأمة وهذا من ضمن الإلتناء للإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آية: 9، وقد جاء في السورة ذكر اليهود الذين لم ينتموا ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ آية 5.

ولا تبتعد مقاصد وأهداف سورة التغابن عن سابقها من السور فأهدافها: الشواغل التي تمنع من الإلتناء للدين أو تشغل عنه، وبيئت خطورة بعض الأولاد والزوجات الذين قد يلهوا المسلم عن الإلتناء للإسلام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ آية 14 وهذا في الغبن (ذكر من أولادكم أي ليس الكل) أما في الفتنة فجاءت الآية: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ آية 15 ﴿للكل ولم يستثنى أحدا. ولكي تحافظ على الإلتناء عليك أن تنتبه لما قد يشغلك عن الدين وانتمالك له.

كما تشترك سورة الاسراء في مواضيع السور السابقة فمقاصد السورة تدور معظم موضوعات على العقيدة؛ وبعضها عن قواعد السلوك الفردي والجماعي وآدابه القائمة على العقيدة، إلى شيء من القصص عن بني إسرائيل، وطرف من قصة آدم وإبليس وتكريم الله للإنسان، والعنصر البارز في كيان هذه السورة، ومحور موضوعاتها الأصيل هو شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وموقف القوم منه في مكة.

ونفس الأمر بالنسبة لسورة الاعلى: سورة الأعلى عظيمة وجاء تعظيمها في القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم كان شغوفاً بها يقرؤها في الجمعة ويقرؤها في العيد ويقرؤها في اجتماع الناس، فمطلعها الأمر بالتسبيح ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾﴾...، فالمتدبر لهذه السورة يشعر أن الأمر قد استقر للإسلام وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، وظهر الدين وبان وانكشفت تعاليم الدين وبان الحق، قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى... ثم يذكر الناس أن هذا الأمر كان في صحف إبراهيم وموسى إشارة إلى بني إسرائيل، وإلى رسالة الأنبياء جميعاً الذين ورثوا النبوة عن أبيهم إبراهيم.

فها هي سور المسبحات تشترك في مواضيع متعددة مع تفصيلات دقيقة بين سورة وأخرى، بحسب معالجتها للموضوعات التي تناولتها، فسبحان من جمع بين هذه السور، التي شكلت وحدة موضوعية مشتركة، وللمفسر بعد ذلك أن يستنبط ما شاء من معاني في ضل هذه الموضوعات والسياقات العامة لهذه السور.

المبحث الثالث: تناسب السور المكية والمدنية:

لقد رأينا سابقاً تناسب السور في القرآن الكريم، وأسباب ذلك التناسب، وأرجعناه في الأساس، إلى قضية الإعجاز الحاصل فيه، وهذا الإعجاز قد يكون في صور متعددة ومتنوعة، فقد يكون في النظم أو في المعنى أو في التركيب...وله أوجه متعددة كما هو معروف، ولا شك أن هذا الإعجاز حاصل في جميع آيات القرآن وسوره، سواء كان الرابط بين السور وبين الآيات واضحاً أم غامضاً، كاشتراك في فاتحة السورة أو تجاوز بينها، والعجيب أن تناسب السور أوسع من تناسب الآيات، لأن تناسب الآيات سببه التجاور بينها، أما السور فقد تتباعد أحياناً ورغم تباعدها فإن المتأمل يجد لحمة بينها تربطها كما قلنا مناسبات مختلفة.

ومن يتوسع في الكشف عن أغراض ومناسبات السور المكية والسور المدنية يرى تلك اللحمة بين كل كتلة من هذه السور جميعاً، حيث تجمع أغراضاً متقاربة ومقاصد جامعة لمواضيع معينة، وهذا ما يعرف بعلم مقاصد السور.

ويقصد منه الوقوف على المعاني والأغراض الأساسية والموضوعات الرئيسة التي تدور عليها سورة معينة، وقد يُعبّر المفسرون عن مصطلح (مقاصد السور) بمصطلحات أُخرى، مثل: مغزى السورة، أو غرض السورة، أو الوحدة الموضوعية، أو نحو ذلك .

والعلم بمقاصد السور لم ينص عليه الأوائل، وإنما اعتبره -الصحابة والتابعون- بالاستقراء والممارسة في تفسيرهم، ولم يُنص على هذا العلم بهذا الاسم إلا عند المتأخرين، وذلك شأن جميع العلوم، فإن العلوم كانت ممارسة عند السلف، ولكن التسمية جاءت متأخرة، فعلم النحو مثلاً كان ممارسة ولم يكن موجوداً، وعلم البلاغة كان ممارسة ولم يكن موجوداً، وهكذا في علوم القرآن في أنحاء شتى، ومصطلح الحديث وعلوم أخرى..

يقول برهان الدين البقاعي في كتابه مصاعد النظر مؤكداً ذلك: " وقد كان أفاضل السلف يعرفون هذا، بما في سليقتهم من أفانين العربية، ودقيق منهاج الفكر البشرية، ولطيف أساليب النوازع العقلية، ثم تناقص العلم حتى انعجم على الناس، وصار حد الغرابة كغيره من الفنون "1.

وحصر الغزالي مقاصد السور في قسمين، فقال: "وسر الكتاب حاصل في دعوة العباد إلى ربهم المعبود، ولذلك انحصرت سوره في ستة أنواع: ثلاثة مهمة: تناولت معرفة الله تعالى، ومعرفة الصراط، والمآل، وثلاثة متممة: تناولت أحوال الأولياء والأعداء وسبل الطاعة "2.

وكما نرى في هذا المطلب الذي بين أيدينا، حيث نكشف عن تناسب بين مجموعتين كبيرتين من السور، وهي السور المكية والسور المدنية.

المطلب الأول: فوائد معرفة المكي والمدني

لمعرفة المكي والمدني فوائد عدة، تظهر في ما يلي:

1- من فوائد معرفة المكي والمدني الاستعانة بهذا العلم في تفسير القرآن الكريم؛ إذ إن معرفة مكان

نزول الآية تعين على فهم المراد بالآية ومعرفة مدلولاتها، وما يراد منها.

1 - البقاعي، مصاعد النظر، ص: 154.

2 - الغزالي، جواهر القرآن، ص: 17.

- 2- من خلال معرفتنا بالمكي والمدني من القرآن تظهر لنا بلاغة القرآن في أعلى مراتبها؛ إذ يُخاطَبُ كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة، أو لين وسهولة.
- 3- ومن فوائد هذا العلم معرفة تاريخ التشريع، والوقوف على سنة الله في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكرية وبناء العقيدة والأخلاق، ثم بناء الأحكام عليها، مما كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلامية بالقبول، ومن ثم الإذعان لأحكامها.
- 4- ومن فوائده تربية الدعاة إلى الله وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع، من حيث المخاطبين؛ بحيث يبدأ بالأهم فالمهم.
- 5- ومن فوائده بيان عناية المسلمين بالقرآن واهتمامهم به، حيث إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني فحسب؛ بل تتبعا أسباب نزوله، وأماكن نزوله، وما كان قبل الهجرة وما كان بعدها، وما نزل بالليل وما نزل بالنهار، إلى غير ذلك من الأحوال.
- 6- ومن فوائده تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.
- 7- ومن فوائده الثقة بهذا القرآن وبوصوله إلينا سالمًا من التغيير والتحريف.
- 8- وآخر فوائده التي أمكننا جمعها استخراج سيرة الرسول ﷺ، وذلك بمتابعة أحواله ﷺ بمكة المكرمة ومواقفه في الدعوة، ثم أحواله في المدينة وسيرته في الدعوة إلى الله فيها⁽¹⁾.

المطلب الثاني: عدد السور المكية والمدنية وبعض المؤلفات فيه

1- السور المكية:

وعدها اثنان وثمانون سورة، وهي:

الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، الحج، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الواقعة، الملك، القلم، الحاقة، المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، الإنسان، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكويز، الانفطار، الانشقاق، البروج، الطارق،

1- انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ج 1 ص 195، محاضرات في علوم القرآن، ص 80-81.

الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الانشراح، التين، العلق، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهزلة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، والمسد.

2- السور المدنية:

وعدها عشرون سورة، وهي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، والنصر.

3- السور المختلف فيها:

وهي السور المختلطة بين الآتي المكي والمدني وعددها اثنا عشر وهي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، والناس.

4- بعض المؤلفات في المكي والمدني

وقد ظهرت في عصر التابعين مؤلفات لعلم المكي والمدني، وأصبح هذا العلم علماً مستقلاً، له مصادره الأصلية، وكان من الكتب المؤلفة فيه:

- 1- "نزول القرآن" للضحاك بن مزاحم الهلالي (ت 104 هـ).
- 2- "نزول القرآن" لعكرمة أبي عبد الله القرشي البربري (ت 105 هـ).
- 3- "نزول القرآن" للحسن بن أبي الحسن البصري (ت 110 هـ).
- 4- "تزييل القرآن" لمحمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت 124 هـ)، مطبوع.
- 5- "التزييل في القرآن" لعلي بن الحسن بن فضال الكوفي (ت 224 هـ).
- 6- "فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة" لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن الضريس البجلي (ت 294 هـ)، مطبوع.
- 7- "بيان عدد سور القرآن وآياته وكلماته ومكيه ومدنيه" لأبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي (ت 400 هـ تقريباً)، وهو من الكتب التي اعتمدت عليها اللجنة التي أشرفت على طباعة "مصحف المدينة النبوية".
- 8- "تزييل القرآن" لأبي زرعة عبد الرحمن بن زنجلة المقرئ (ت 403 هـ تقريباً)، مخطوط.
- 9- "التزييل وترتيبه" لأبي القاسم الحسن بن محمد النيسابوري (ت 406 هـ)، مخطوط، وهو جزء من كتابه الكبير "التنبيه على فضل علوم القرآن".

- 10- "كتاب المكي والمدني" لمكي بن أبي طالب القيسي (ت 437هـ).
11- "المكي والمدني في القرآن واختلاف المكي والمدني في آيه" لأبي عبد الله محمد بن شريح الرعيبي المقرئ (ت 476هـ).

وهذا عدا المؤلفات التي خصصت باباً لعلم المكي والمدني، منها:

- 1- "فضائل القرآن ومعالمه وأدبه" لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ)، مطبوع.
 - 2- "المصنف في الأحاديث والآثار" لعبد الله بن محمد بن أبي شيبه (ت 235هـ)، مطبوع.
 - 3- "فهم القرآن" لحارث بن أسد المحاسبي (ت 243هـ)، مطبوع.
 - 4- "البيان في عد آي القرآن" لأبي عمرو الداني (ت 444هـ)، مطبوع.
- وهي كثيرة جداً، نكتفي بما يسمح به المقام.

المطلب الثالث: ضوابط وأغراض السور المكية

لقد رأينا سابقاً التناسب الواقع بين سور القرآن الكريم، ومهما تباعدت السور أو تقاربت، ورأينا أيضاً التناسب بين الآيات مهما اختلف وقت نزولها ومهما تباعدت، وهذا ما يؤكد صاحب المنار إذ يقول: "واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سبباً في هذا الترتيب الذي بينها، فرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع بينهما أخرى، فمن الأول الفصل بين سورتي الهمزة واللهب وموضوعهما واحد، والفصل بين السور المبدوءة بلا تسيح بسورة المنافقين، ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم، وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكوير والانفطار، وربما يقال إن التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية"¹.

ربما بسبب مواضعها الحساسة في جانب العقيدة إذ تعتبر الركيزة الأهم والبنیان الأساس لهذا الدين. ويقول أيضاً: "من حكمة الفصل بين القوية التناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والأصول العامة والزواجر الصادرة، والمدنية التي موضوع أكثرها الأحكام العملية - أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأنأى به عن الملل، وأدعى له إلى التدبر، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد

¹ - رشيد رضا، تفسير المنار، ج 11، ص: 117.

القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد وأحكام عملية، وحكم أدبية، وترغيب وترهيب، وبشارات ونذر، وأمثال وقصص، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع¹.
ولمعرفة المكي والمدني طريقان:

1- سماعي: وهو النقل الصحيح عن الصحابة أو التابعين.

2- قياسي: وهو ضوابط كلية، وهذه الضوابط مبناها على التبع والاستقراء المبني على الغالب.

الفرع الأول: ضوابط السور المكية وخصائصها:

1- : ضوابط القرآن المكي:

1- كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية، وقد ذكر هذا اللفظ في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها في النصف الأخير من القرآن، وكلها من السور المكية، مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تَطْعَهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [سورة العلق:19].

قال الديريني -رحمه الله-:

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى

"وحكمة ذلك أن نصف القرآن الأخير نزل أكثره بمكة وأكثرها جابرة، فتكررت فيه على وجه التهديد والتعنيف لهم والإنكار عليهم؛ بخلاف النصف الأول وما نزل منه في اليهود لم يحتج إلى إيرادها فيه لذلتهم وضعفهم"².

2- كل سورة فيها سجدة فهي مكية لا مدنية، وذلك مثل: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [سورة السجدة:15]. وقد نستثنى من ذلك سورتي الرعد والحج عند من يقول إنهما مدينتان، وما نراه أنهما مكيتان.

3- كل سورة في أولها حروف الهجاء كـ(الم)، و (الر) ونحو ذلك فهي مكية سوى البقرة وآل عمران، وفي الرعد الخلاف السابق.

4- كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة فهي مكية سوى البقرة.

5- كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى سورة البقرة أيضاً، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [سورة طه:120].

¹ - المصدر نفسه: ص: 117.

1- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص 109.

6- كل سورة فيها ((يا أيها الناس)) وليس فيها ((يا أيها الذين آمنوا)) فهي مكية، إلا سورة الحج (مع مراعاة الخلاف الذي فيها) ففي آخرها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [سورة الحج:77]. وذلك مثل سورة يونس، وسورة الأعراف.

أما إذا اجتمع النداءان فالسورة مدنية، وذلك مثل سورة البقرة، والنساء، فقد ذكر فيهما ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلا سورة الحج عند من يرى مكيتها.

2- خصائص القرآن المكي¹:

الخصائص تقسم إلى خصائص متعلقة بالأسلوب وإلى خصائص متعلقة بالموضوع.

- الخصائص الأسلوبية:

1- قصر الآيات والصور، وإيجازها.

2- كثرة أسلوب التأكيد ووسائل التقرير ترسيخاً للمعاني، كالإكثار من القسم وضرب الأمثال والتشبيه.

3- كثرة الفواصل، والفاصلة هي حاتمة الآية كالقافية في الشعر.

4- قوة الإيقاع الصوتي.

- الخصائص الموضوعية:

1 - الدعوة إلى أصول العقائد كالإيمان بالله واليوم الآخر وتصوير الجنة والنار؛ لأن غالب

المخاطبين ينكرون ذلك، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [سورة المؤمنون:16].

2- الدعوة إلى التمسك بالأخلاق الكريمة، والتشريعات العامة التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

3- مجادلة المشركين وتسفيه أحلامهم، وتشنيع القبيح من عاداتهم بحجج دامغة وبراهين مقنعة.

فكثير من الآيات المكية فيها فضح لأعمال المشركين من سفك الدماء، وأكل أموال اليتامى، وواد البنات، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [سورة الإسراء:31].

1- الذهبي، بحوث في علوم التفسير (الوحي والقرآن)، ص344-364.

4- إنذار المشركين والكفار بما قص عليهم من أنباء الرسل مع أقوامهم بانتصار أهل الإيمان وإبادة أهل الكفر، فكثير من الآيات المكية فيها عرضٌ لقصص الأنبياء وتكذيبٌ لأقوامهم للعبرة، والزجر، ولتسليّة الرسول ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة يوسف: 111].

الفرع الثاني: ضوابط وأغراض السور المدنية

1- : ضوابط القرآن المدني:

1- كل سورة فيها إذنٌ بالجهاد أو ذكر له وبيان لأحكامه فهي مدنية، إلا الحج عند من يرى أنّها مكية.

2- كل سورة فيها تفاصيل لأحكام الحدود والفرائض والحقوق، والقوانين المدنية والاجتماعية والدولية فهي مدنية، فسورة النساء التي ذكرت فيها الفرائض، وسورة المائدة وسورة النور من السور المدنية باتفاق العلماء، فيهما ذكرٌ لبعض الحدود.

3- كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية ما عدا سورة العنكبوت؛ إلا أنّ الآيات الإحدى عشرة الأولى منها مدنية وفيها ذكر المنافقين.

4- كل آية بدأ فيها الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهي مدنية.

2- : خصائص القرآن المدني:

- الخصائص الأسلوبية:

1- طول آياته وسوره في الغالب الأعم.

2- الأسلوب الهادئ عند مناقشة أهل الكتاب.

- الخصائص الموضوعية:

1- التحدث عن التشريعات التفصيلية والأحكام العملية في العبادات والمعاملات والأحوال الشخصية؛ لأنّ المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة، فهم في حاجة لتفصيل العبادات والمعاملات؛ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: 17].

2- بيان قواعد التشريع الخاصة بالجهاد، وحكمة تشريعه، وذكر الأحكام المتعلقة بالحروف

والغزوات والمعاهدات والصلح والغنائم والفيء والأسرى؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [سورة محمد:4].

3- كثرة الحديث عن أهل الكتاب ودعوتهم إلى الحق ومناقشتهم في عقائدهم الباطلة وبيان ضلالهم فيها؛ لأنَّ المدينة فيها أهل الكتاب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة:30]

4- بيان ضلال المنافقين وإظهار ما تكنه نفوسهم من الحقد والعداوة على الإسلام والمسلمين؛ لأنَّ النفاق لم يظهر إلا في المدينة، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [سورة النساء:138]¹.

1- انظر: الزرقاني، مناهل العرفان، ج1 ص196-198، وج1 ص202-204. وأبو شهبه، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص226-232. فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، ج1 ص274 وما بعده. والذهبي، بحوث في علوم التفسير (الوحي والقرآن)، ص344-364.

الخاتمة:

بعد البحث والتقصي والدراسة المتواصلة جئنا الآن لوضع خاتمة لهذا البحث آمليين في أن نكون قد توصلنا إلى بعض الإجابات عن التساؤلات التي طرحناها في المقدمة، حيث خلصت إلى بعض النتائج والتوصيات نلخصها في النقاط التالية:

أولاً: خلصنا إلى أن التجديد حركة حيوية مطلوبة ومحمودة وحاجة ضرورية ومرغوبة، لصيقة بحياة الفرد والمجتمع، وعلى أساس هذه الفكرة شرع الاجتهاد في الدين وفي فهم النصوص وتزليلها على واقع الناس لتساير المستجدات والتطورات الخاصة في المجتمع الاسلامي.

ثانياً: التجديد في المناهج وطرق استنباط الاحكام والتعامل مع النصوص الدينية لا سيما نصوص الكتاب الحكيم خدمة والمجتمع والدين.

ثالثاً: التجديد في علم التفسير يتناسب طردياً مع تطور العلوم اللصيقة به سواء ارتباط مباشر مثل علوم القرآن وعلوم اللغة والبلاغة أم غير مباشر كالعلوم الاجتماعية والنفسية وكذا العلوم الدقيقة المختلفة.

رابعاً: لعلم المناسبات القرآنية أثر كبير في فهم سياق الآيات وترتيب السور، واستنباط معاني متجددة ومواضيع متعددة وفهوم متنوعة في حدود ما تمليه اللغة والنصوص الشرعية (عدم معارضة المفاهيم الجديدة للنصوص).

خامساً: التجديد يطال علم التفسير بشقيه الجانب النظري والجانب التطبيقي أيضاً أو العملية التفسيرية.

سادساً: الكشف عن معاني جديدة للقرآن الكريم تقتضيها اللغة، وابرار وجه الترابط بينها وبين ما استجد من علوم شرعية، وعلوم كونية.

سابعاً: الكشف عن علاقة التجديد في التفسير وعلم المناسبات، لا سيما في العصر الحديث.

تاسعاً: إبراز دور المدارس التجديدية في خدمة التفسير، وفضل المناهج الجديدة في ذلك.

عاشراً: بيان خصائص النص القرآني وصلاحيته لكل زمان ومكان.

الحادي عشر: إرساء ضوابط وقواعد جديدة تتحكم في العملية التفسيرية، وتحول دون وقوع المفسر في الخطأ والزلل.

وهذا والله الموفق وهو من وراء القصد.

Conclusion:

After research and investigation and study ongoing now come to put an end to this research in the hope that we will have some answers to the questions we asked in the introduction, which concluded that some of the findings and recommendations are summarized in the following points:

First. we have concluded that the renewal movement vitality needed and welcome and need necessary and desirable, closely the life of the individual and society, and on the basis of this idea began diligence in religion and in the understanding of texts and downloaded on the reality of the people to keep pace with developments and alopecia in the Muslim community.

Second. innovation in curriculum and devise ways to deal with the verdicts and religious texts, particularly the texts of the book Hakim service, society and religion.

Third: Renewal in the science of interpretation is directly proportional to the development of science by the close, both direct link such as the Koran and science linguistics, rhetoric or indirectly, such as science, social and psychological, as well as various nanoscience.

Fourth: the science of occasions Quranic significant impact on the understanding of the context of the verses and the order of the fence, and the development of renewable and the meaning and the concept of multiple threads in a variety of limits dictated by language and religious texts (not to oppose the new concepts of the texts)

Renewal science affects the interpretation, both the theoretical and practical side as well or interpretive process.

This God bless which of the intent behind.

الفهارس العامة

- فهرس الآيات.
- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات:

الآية	إسم السورة	رقمها	رقم الصفحة
﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ...﴾	يوسف	68	10
﴿...وهو الخلاق العليم﴾	يس	81	10
﴿...وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾	الفرقان	33	11
﴿ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة...﴾	الحشر	05	13
﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ...﴾	البقرة	127	18
﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾	الشعراء	23	28
﴿وما تنزلت به الشياطين﴾	الشعراء	21	26
﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾	الضحى	11	38
﴿وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها...﴾	ابراهيم	34	38
﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم...﴾	المجادلة	07	38
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾	الحج	01	41
﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس...﴾	النحل	44	48
﴿وما أنزلنا إليك الكتاب إلا لتبين لهم...﴾	النحل	64	48
﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى...﴾	البقرة	238	48
﴿..وأني فضلتكم على العالمين﴾	البقرة	37	48
﴿فاقطعوا أيديهما...﴾	المائدة	38	49
﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط...﴾	البقرة	187	49
﴿إن الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم..﴾	الأنعام	82	49
﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة...﴾	النساء	03	62
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	المسد	01	64
﴿والله خلقكم وما تعملون﴾	الصفافات	96	64
﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب...﴾	آل عمران	07	67
﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى...﴾	الأنفال	17	71
﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم...﴾	التوبة	14	72

73	55	الروم	﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون...﴾
71	3-2-1	المدثر	﴿ياأيها المدثر قم فأندر وربك فكبر وثيابك فطهر﴾
71	117	الصفات	﴿وآتيناهما الكتاب المستبين﴾
71	55	الروم	﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون﴾
88	17	النور	﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين﴾
97	13	آل عمران	﴿فِتْنَةٌ تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ...﴾
99	33	النور	﴿وَلَيْسَتُغْفِرَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا...﴾
102	80	الشعراء	﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾
102	38	الانعام	﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء...﴾
102	89	النحل	﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...﴾
102	07	الروم	﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا...﴾
103	12	المؤمنون	﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾
104	53	فصلت	﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم...﴾
106	17	الغاشية	﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت..﴾
109	54	الفرقان	﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصبغاً﴾
109	101	المؤمنون	﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾
111	21	ق	﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾
120	196	البقرة	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ..﴾
122	09	الحجر	﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾
125	82	النساء	﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ...﴾
131	23	البقرة	﴿وإن كنتم في ريب...﴾
131	97	النساء	﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم.. الآية﴾
172	01	العلق	﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾
178	33	الفرقان	﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾
178	89	النحل	﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...﴾
179	32	الفرقان	﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة..﴾
181	106	الاسراء	﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث..﴾

182	01	الجن	﴿قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن..﴾
183	88	الاسراء	﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن...﴾
184	84	الانعام	﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا...﴾
187	03	النساء	﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا..﴾
193	27	المدثر	﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾
200	01	محمد	﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...﴾
200	05	الاحقاف	﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله...﴾
200	35	الاحقاف	﴿بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾
200	38	محمد	﴿.يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾
208	26	فاطر	﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم﴾
208	22	النجم	﴿تلك إذا قسمةٌ ضيزى﴾
209	26	الحجر	﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾
209	104	الكهف	﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾
210	08	النازعات	﴿قلوبٌ يومئذٍ واجفة﴾
211	06	الحشر	﴿فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ﴾
212	13	الانفال	﴿ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله﴾
212	115	النساء	﴿ومن يشاقق الرسول من بعد﴾
214	84	الاسراء	﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾
215	43	النساء	﴿وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم﴾
215	59	آل عمران	﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾
215	71	ص	﴿إني خالق بشرٍ من طين﴾
215	44	الاسراء	﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾
216	116	المائدة	﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾
216	67	التوبة	﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾
219	26	البقرة	﴿ربنا واجعلنا مسلمين﴾
219	22	الزخرف	﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾
220	9	الأنعام	﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾

223	85	يوسف	﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذَكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا..﴾
223	110	الانعام	﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾
225	01	هود	﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾
226	01	الفرقان	﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
226	15	الانسان	﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾
227	51	فصلت	﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنُنَا بِجَانِبِهِ﴾
230	01	الفرقان	﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾
230	01	الحج	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ..﴾
235	12	لقمان	﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾
235	26	لقمان	﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
236	26	الاسراء	﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ...﴾
238	4	الحج	﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾
238	07	الحج	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾
238	111	التوبة	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ..﴾
239	231	البقرة	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَى﴾
239	124	آل عمران	﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾
241	118	المائدة	﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ فِيهِمْ عِبَادِكُمْ...﴾
244	13	الجادلةة	﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾
244	234	البقرة	﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾
245	73	القصص	﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾
245	106	آل عمران	﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾
246	27	الحج	﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾
249	58	المؤمنون	﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَامَهُ آيَةً﴾
249	28	الروم	﴿وَمِن آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾
252	23	آل عمران	﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعُونَ..﴾
252	38	غافر	﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾
252	19	المعارج	﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا﴾

253	07-06	الفاحة	﴿إهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم﴾
254	78	الواقعة	﴿فلا أقسم بمواقع النجوم...﴾
254	16	القيامة	﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به...﴾
256	82	التوبة	﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً..﴾
256	26	آل عمران	﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء..﴾
256	15	يس	﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا...﴾
256	31	القيامة	﴿فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى﴾
257	01	الأنفال	﴿يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول﴾
257	26	الاعراف	﴿يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً..﴾
258	55	ص	﴿واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار﴾
258	156	الاعراف	﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون..﴾
260	54	الذاريات	﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾
262	09	المنافقون	﴿يا أيها الذين ءامنوا لا تلهكموا أموالكم﴾
268	14	الحجر	﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه..﴾
268	15	الحجر	﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون﴾
269	21	الحجر	﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾
269	33	الحجر	﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال﴾
269	46	الحجر	﴿ادخلوها بسلام آمين﴾
270	67	الحجر	﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾
270	285	البقرة	﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾
270	97	الحجر	﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك..﴾
272	112	المائدة	﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يُعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾
273	03	المائدة	﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ..﴾
274	01	الروم	﴿لَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾
275	01	التوبة	﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ..﴾
274	01	ابراهيم	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ﴾
275	01	الملك	﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾

275	255	البقرة	﴿الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾
276	60	الفرقان	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾
277	3-2-1	الحاقة	﴿الحاقة، ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة﴾
275	02	البقرة	﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾
275	285	البقرة	﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾
279	143	البقرة	﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾
279	01	المؤمنون	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾
280	165	الانعام	﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾
280	60	الروم	﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفِنَكَ الَّذِينَ﴾
283	67	العنكبوت	﴿أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾
283	1	الفيل	﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾
283	03	الفيل	﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾
284	01	الاسراء	﴿سَبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ..﴾
284	01	الكهف	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ...﴾
285	111	الاسراء	﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾
275	01	الانبياء	﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَعْرِضُونَ﴾
276	48	الانبياء	﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ..﴾
276	01	الحج	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ..﴾
276	01	العصر	﴿والعصر إن الانسان لفي خسر﴾
276	01	المطففين	﴿ويل للمطففين الذين...﴾
276	37	القيامة	﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى..﴾
276	01	الانسان	﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ..﴾
276	104	الانبياء	﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾
277	05	الحج	﴿يَأْيُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ﴾
277	97	الانبياء	﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ..﴾
277	101	الانبياء	﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى..﴾
276	77	الانبياء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ..﴾

276	4	فصلت	﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا...﴾
277	35	الزخرف	﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾
277	10	الدخان	﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾
299	28	الجاثية	﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً﴾
279	01	الفاتحة	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
279	01	الانعام	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾
279	01	الكهف	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ...﴾
279	01	سبا	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾
279	03	الحشر	﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...﴾
279	21	الحشر	﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا...﴾
279	04	الصف	﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا...﴾
280	08	الصف	﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ...﴾
280	02	الجمعة	﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾
282	15	التغابن	﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ...﴾
285	01	سبح	﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى...﴾

ثبت المصادر والمراجع

- 1 القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
- 2 أبو الحسن الرماني، ومفهومه للإعجاز القرآني، للدكتور: أحمد جمال الدين العمري، (د.ط)، (د.ت).
- 3 اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، إبراهيم شريف، مكتبة القرآن الكريم للطبع والنشر والتصدير، مصر، (د.ت).
- 4 اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة الأولى 1407 هـ، 1986م.
- 5 اتجاهات التفسير في مصر وسوريا، د فضل حسن عباس، (د.ط)، (د.ت)، رسالة دكتوراه، غير منشورة.
- 6 الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي، تقديم وتعليق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٧ م.
- 7 الإتقان، السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي 2004م، بيروت، لبنان.
- 8 إحياء علوم الدين، الغزالي: ط. دار المعرفة، بيروت 1403هـ/1983م.
- 9 إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق وتعليق: د. شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٨ م.
- 10 أسباب التورول، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، عالم الكتب، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- 11 الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق: الشيخ علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.
- 12 أسد الغابة، أبو الحسن علي الجزري ابن الأثير، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ١٣٩٠ هـ، ١٩٧٠ م.
- 13 الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقران الكريم، محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي، الطبعة الأولى. 1996م.
- 14 الأسلوبية وتحليل الخطاب، نور الدين السد، دراسة في النقد العربي الحديث، تحليل الخطاب الشعري والسردية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1997م.
- 15 أسماء سور القرآن وفضائلها، د. منيرة محمد ناصر الدوسري، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ.
- 16 الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع الإعجاز، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧ م.

- 17 الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٢٨ هـ.
- 18 الإعجاز البياني في ترتيب آيات القرآن وسوره، محمد أحمد القاسمي: ط1، 1979م، مصر. 244.
- 19 الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، نايف منير فارس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى - 2006م.
- 20 إعجاز القرآن الكريم، د فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، 1991م.
- 21 إعجاز القرآن، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلائي، تحقيق الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.
- 22 الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠ م.
- 23 الأعمال الكاملة، جمال الدين الأفغاني، تحقيق: د. محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981م.
- 24 الأعمال الكاملة، محمد عبده، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- 25 الإكسير في علم التفسير، للطوفي الصرصري، تحقيق: عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
- 26 الإكليل في استنباط التنزيل، السيوطي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.
- 27 الإكمال في رفع الارتياح عن المؤلف والمؤتلف من الأسماء والكنى والأنساب، أبو نصر علي هبة الله الشهير بابن ماكولا، تصحيح وتعليق: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، ١٣٨٣ هـ، ١٩٦٣ م.
- 28 الالوسي، محمود، روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، (د.ت)، بيروت.
- 29 إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية، دار عمار، عمان، (د.ط)، (د.ت) الأردن.
- 30 إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة + مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.
- 31 أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، شحاته، د. عبد الله محمود، ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1986م.
- 32 الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين القزويني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥ هـ، ١٩٨٥ م.
- 33 الإيضاح والتبيين في علوم القرآن الكريم، الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، عبد العزيز، د. سمير: مطبعة الفجر الجديد، القاهرة .

- 34) الباقلاني وكتابه القرآن، دكتور عبد الرؤوف مخلوف، منشورات دار مكتبة الحياة، 1998، بيروت.
- 35) البحر المحيط، أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، طبعة جديدة منقحة مصححة، ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م.
- 36) بحوث في أصول التفسير ومناهجه، فهد الرومي، مكتبة التوبة، طبعة 4، 1419هـ.
- 37) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الكتب العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ، ٢٠٠١ م.
- 38) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي للنشر، الطبعة الأولى، سنة: 2002م، تحقيق: عدنان درويش.
- 39) البرهان في ترتيب سور القرآن، ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، سنة: (1410هـ/1990م).
- 40) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ / 1957م)، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه.
- 41) البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله بن بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١ هـ، ١٩٧٢ م.
- 42) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، بتحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، (د.ط)، (د.ت) القاهرة.
- 43) البلاغة فنونها وأفانها د. فضل حسن عباس، (د.ط)، (د.ت) - علم المعاني.
- 44) البيان في إعجاز القرآن، للدكتور صلاح الخالدي، دار عمار، عمان، ص: 266.
- 45) البيان في روائع القرآن، تمام حسان، طبعة عالم الكتب، 1993م، ط1، الفصل السابع.
- 46) البيان والتبيين، أبو عثمان بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (د.ط)، (د.ت) بيروت.
- 47) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد مرتضى الزبيدي، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، (د.ط)، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م.
- 48) تاج اللغة وصحاح العربية المسمى: "الصحاح" تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري الفراء، إحياء التراث العربي/لبنان، بيروت، الطبعة 4، سنة 2005م/1426هـ.
- 49) تاريخ بغداد، الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)
- 50) تاريخ مدينة دمشق، الإمام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ، (د.ط)، (د.ت)، ١٩٩٥ م.

- 51 التجديد في التفسير حاجة ضرورية، مقال: د. محمد البويسفي، 2008/07/12م
- 52 التجديد في التفسير مادة ومنهاجا، بحث للدكتور جمال أبو حسان -كلية الشريعة- جامعة الزرقاء الأهلية، مكتبة شبكة التفسير والدراسات القرآنية، (د.ط)، (د.ت) الأردن.
- 53 التجديد في التفسير، الدكتور محمد عويس، القاهرة، سنة: 28 أوت، 2010م.
- 54 التجديد في التفسير، نظرة في المفهوم والضوابط، عثمان أحمد عبد الرحيم، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الإصدار الحادي عشر، الكويت .
- 55 التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1998م، المقدمة الخامسة.
- 56 تحقيق كتاب: مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المتزل لعلبي الحوالي، د. خالد الدريس، (د.ط)، (د.ت).
- 57 الترابط النصي في القرآن، مقال: عبد الكريم محمد السعيد، جامعة سبها، الخميس 25 نوفمبر، 2010م.
- 58 التراث والحداثة، الجابري، محمد عابد: (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1991م.
- 59 تربية الذوق البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني، عبد العزيز بن المعطي عرفة، ط1، القاهرة، سنة: 1983م، دار الطباعة المحمدية.
- 60 التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، المكتبة التجارية الكبرى، ط1، القاهرة، 1355هـ.
- 61 تطور تفسير القرآن قراءة جديدة، الدكتور محسن عبد الحميد، ضمن منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد سلسلة بيت الحكمة رقم 5.
- 62 التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، جامعة بغداد، (د.ط)، 1989 م.
- 63 التعبير القرآني، فاضل السامرائي، دار عمار، الطبعة 4، 1427هـ/2006م.
- 64 تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، الدكتور عبد الفتاح الخالدي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى 1423هـ-2002م.
- 65 تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة، سنة النشر: 1422هـ / 2002م .
- 66 تفسير أسرار القرآن، الشيخ عبد العزيز جاويش: مطبعة الهداية الإسلامية، الآستانة، 1331هـ..
- 67 التفسير الإسلامي للتاريخ، الدكتور عماد الدين خليل، منشورات مكتبة تموز، الطبعة الرابعة 1986م.
- 68 تفسير البغوي، الحسين بن مسعود البغوي دار طيبة، (د.ط)، (د.ت).
- 69 التفسير البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ). القاهرة: دار المعارف.

- 70 التفسير الحديث، عزت دروزة، دار إحياء الكتب العربية، ط 1962م، مصر.
- 71 التفسير الصحيح، د حكمت بشير ياسين، المدينة المنورة، 1999م.
- 72 تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987م.
- 73 تفسير الظلال، سيد قطب، الطبعة 10، دار الشروق، 1982م، القاهرة.
- 74 تفسير القرآن الحكيم محمد رشيد رضا، الشهير بتفسير المنار، بيروت: دار المعرفة.
- 75 تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الثانية، 1420 هـ، 1999 م.
- 76 تفسير القرآن الكريم، شلتوت، الشيخ محمود: الأجزاء العشرة الأولى، ط 4، 1966م، دار القلم، القاهرة.
- 77 التفسير القرآني، البيومي، محمد رجب، القاهرة، 1425 هـ، هدية مجلة الأزهر.
- 78 التفسير القيم ابن القيم، محمد ابن أبي بكر، جمعه محمد أويس الندوي. لجنة التراث العربي، (د.ط)، (د.ت)، بيروت.
- 79 التفسير الكبير، للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: 2، سنة: 1417هـ - 1997م..
- 80 التفسير المسند لابن أبي الدنيا مستخرجاً من مؤلفاته . د.محمد التركي، (د.ط)، (د.ت).
- 81 التفسير الموضوعي بين دفتي الميزان، د. عبد الجليل عبد الرحيم، (د.ط)، (د.ت).
- 82 تفسير من نسمات القرآن كلمات وبيان، غسان حمدون، الناشر: دار السلام، سنة النشر: 1407 - 1986، رقم الطبعة: 02.
- 83 التفسير والإعجاز العلمي للقرآن الكريم ضوابط وتطبيقات، للدكتور مرهف عبد الجبار سقا، طباعة دار محمد الأمين بدمشق، 2010م .
- 84 التفسير والمفسرون في العصر الحديث، عبد القادر محمد صالح، دار المعرفة بيروت، الطبعة الأولى 1424هـ - 2003م.
- 85 التفسير والمفسرون في شكله القشيب، الاستاذ المحقق الشيخ محمد هادي معرفة، تنقيح قاسم النوري، الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، ط1، بتاريخ: 1377 هـ ش - 1419 هـ ق.
- 86 التفسير والمفسرون، الدكتور محمد حسين الذهبي، مكتبة مصعب بن عمير الاسلامية، ط 2004م.
- 87 التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، طبعة دار الكتب الحديثة، ط2، 1976م.
- 88 تقرير حول المؤتمر الإسلامي الطبي الدولي الأول في مجلة منار الإسلام، العدد الثالث، السنة 11 ربيع الأول 1406هـ.
- 89 تلخيص كتاب لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، تأليف: الدكتور محمد بن لطفي الصباغ.

- 90) تناسق الدرر في تناسب السور، السيوطي، تحقيق: أحمد عطا، دار الكتب العلمية، ط1، 1986م، بيروت، لبنان.
- 91) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1420هـ، 2000م.
- 92) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي، الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، (د.ط)، 1980م.
- 93) الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1427هـ، 2006م.
- 94) جهد المقل، محمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجلي زاده، دراسة وتحقيق: د. سالم قدوري الحمد، دار عمّار، الأردن، ط 2، 1429هـ / 2008م.
- 95) جواهر القرآن ودرره، الغزالي: ط. الخامسة، دار الآفاق الجديدة، 1983م.
- 96) الحركة الأدبية والفكرية في تونس، محمد الفاضل بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الثالثة، 1983م.
- 97) حسن محمد باجودة دراسة وقائمة ببليوجرافية" للدكتور: عبد اللطيف عبد الحكيم سمرقندي، طبعة دار الأمين للنشر والتوزيع.
- 98) حصاد قلم، عبد الله دراز: تحقيق، أحمد مصطفى فضيلة، تقديم عبد الستار فتح الله سعيد، دار القلم، 2000م.
- 99) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، خليفة، حاجي، دار الفكر، بيروت، 1983م.
- 100) دراسات إسلامية وعربية مهداة إلى العلامة الأستاذ الدكتور فضل عباس، أبو حسان، جمال محمود، دار الرازي، عمان، 2000م.
- 101) دراسات في أصول تفسير القرآن، الدكتور محسن عبد الحميد، دار الثقافة الرباط، الطبعة الثانية 1404هـ / 1984م.
- 102) دراسات في التفسير الموضوعي، الألمي، د. زاهر بن عوض، (د.ط)، (د.ت)، مطبعة الفرزدق، جدة.
- 103) دراسات في التفسير وأصوله، محي الدين بلتاجي، دار الثقافة، ط1: ص: 193 سنة: 1987م، بيروت.
- 104) درة المتون في قراءة الإمام نافع، ابن بري، شرح: أحمد رحمان، دار الامام مالك، 1420هـ، 1999م، طبعة، الجزائر.
- 105) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطبعة الثانية، 1385هـ، 1966م.

- 106) دقائق التفسير، ابن تيمية: أحمد بن عبد الحلیم، جمع وتحقيق د. محمد السيد الجلیند. دار الأنصار، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة.
- 107) دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، تحقيق: محمود شاکر، مطبعة المدني بجدة، الطبعة الثالثة، 1413هـ/1992م.
- 108) دلائل النظام للفراهي، الدائرة الحميدية ومكنتها، الهند: 1388هـ.
- 109) دور الكلمة في اللغة، ستيفن أولمان، ترجمة وتحقيق: د.كمال محمد بشير، مكتبة الشباب، (د.ط)، (د.ت).
- 110) ذكريات وأحاديث، عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني، القاهرة: دار المعارف، 1948 م.
- 111) رسالة في آفاق التفسير الحضاري للقرآن الكريم، د.سيد دسوقي حسن، ط1، 16 سبتمبر 2004م.
- 112) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألويسي البغدادي: دار الفكر، طبعة: 1983م، بيروت، لبنان.
- 113) رؤية إسلامية معاصرة، أبو المجد، أحمد كمال، القاهرة، دار الشروق، 1991م.
- 114) سلسلة رسائل ونصوص، رقم3، رسالتين لابن الأبار وابن تيمية، دار الكتب الجديدة، عام: 1963م.
- 115) سلسلة مع أعلام المفسرين، الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، سورية، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت لبنان .
- 116) سنن أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (د.ط)، (د.ت)، بيروت.
- 117) سور الحواميم - دراسة بلاغية تحليلية، عبدالقادر الحمداني-أطروحة دكتوراة (جامعة الموصل).
- 118) السياق وأهميته في سلامة الاستدلال، الكاتب: عبد الرحمن بن عمر آل زعتري، الموقع: الملتقى الفقهي.
- 119) السيرة النبوية، أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري المصري، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجليل، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- 120) صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل، دار ابن كثير بيروت، 1987م، تحقيق د. مصطفى البغا.
- 121) صحيح مسلم بشرح النووي، محي الدين النووي، دار الفكر للطباعة والنشر: 1981م، (د،ط).
- 122) صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، ١٩٩٥ م.
- 123) الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع الدواعي والإمكان، الأستاذ منصور زويد المطيري، ضمن سلسلة كتاب الأمة رقم: 33، ربيع الأول 1413هـ.
- 124) طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ، ١٩٩٧ م.

- 125) عبد الحميد، د محسن، تطور تفسير القرآن، جامعة بغداد، 1408هـ .
- 126) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والتوزيع، ط 1، القاهرة.
- 127) علم المناسبات في السور والآيات، د. محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية: مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.
- 128) العلوم الإسلامية في حياتنا المعاصرة، د محسن عبد الحميد، ضمن كتاب علوم الشريعة في الجامعات، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، عمان، 1995م.
- 129) على طريق التفسير البياني، فاضل صالح السمرائي، كلية الآداب والعلوم، جامعة الشارقة، 1423هـ/2002م.
- 130) على مائدة النبوة، مقال: أ.د. محمد زكي خضر، مجلة الفرقان، العدد الثالث والثلاثون، جمادى الأولى / جمادى الآخرة 1425هـ، تموز / آب 2004م.
- 131) فتح الباري شرح صحيح البخاري احمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار المعرفة بيروت، 1397هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
- 132) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى البغا طبع دار ابن كثير، بيروت، سنة: 1987م طبع دار المعرفة، بيروت، سنة: 1379م، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ومحب الدين الخطيب.
- 133) الفتح الرباني: على مسند الإمام أحمد، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، ط1، 1953هـ.
- 134) الفتوحات الالهية (حاشية الجمل على الجلالين)، سليمان بن عمر الجمل، دار إحياء التراث العربي، (د.ط)، (د.ت)، بيروت.
- 135) الفصل والوصل، د. بسيوي عرفة: مكتبة الرسالة، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة.
- 136) الفكر الديني في مواجهة العصر، الدكتور محمد عفت الشرقاوي، دار العودة، بيروت الطبعة الثانية 1979م.
- 137) فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات، عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ، ١٩٨٢ م.
- 138) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ابن القيم محمد بن أبي بكر، دار الكتب العلمية، (د.ط)، (د.ت)، بيروت.
- 139) في ظلال القرآن، قطب بن ابراهيم، سيد، دار إحياء التراث العربي، ط7، 1971م.
- 140) القاموس الجديد للطلاب، علي بن هادية بلحسن البليش، والجيلالي بلحاج يحي/المؤسسة الوطنية للكتاب، الطبعة4، الجزائر، 1991م.

- 141) القاموس المحيط، الفيروز ابادي: نشر مؤسسة الرسالة، ط2.
- 142) القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، الدكتور الشهيد البوشيخي، منشورات المحجة الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.
- 143) قصص القرآن الكريم، د فضل حسن عباس، دار الفرقان، عمان، 2000م.
- 144) القصص القرآني، إبحاؤه ونفحاته، عباس، د. فضل حسن: ط1، 1987م، دار الفرقان، عمان.
- 145) قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها، زغلول النجار (د.ط)، (د.ت).
- 146) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 1425هـ - 2004م.
- 147) قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي بن حسين الحربي، دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، 1417هـ - 1996م.
- 148) قواعد التفسير (جمعاً ودراسة)، للباحث خالد بن عثمان السبت، الطبعة الأولى 1417هـ - الصادرة عن دار ابن عفان - السعودية.
- 149) كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، الطبعة 4، (1424هـ / 2003م).
- 150) كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي الفاروقي التهانوي، تحقيق: لطفي عبد البديع، المؤسسة المصرية، العامة، مكتبة النهضة العربية، الطبعة: 1، 1382هـ - 1963م.
- 151) الكشاف عن حقائق التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، محمود بن عمر، مطبعة مصطفى محمد، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة.
- 152) الكشاف عن حقائق غوامض التزويل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى، 1418هـ - 1998م.
- 153) كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن محمد العجلوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 1405هـ - تحقيق أحمد القلاس.
- 154) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة، دار الفكر، (د.ط)، 1983م.
- 155) كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، (بيروت: دار الشروق، ط1، 1419هـ / 1999م).
- 156) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي في مدارسة أجراها الأستاذ عمر عبيد حسنة، من منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ضمن سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م.

- 157) لباب النقول في أسباب النزول، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ م.
- 158) اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص عمر بن علي بن عادل الحنبلي، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.
- 159) لسان العرب، جمال الدين ابن منظور، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2003م/1424هـ .
- 160) اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، ط1، الدار البيضاء 1998م، المركز الثقافي العربي.
- 161) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، لطفي الصباغ (د.ط)، (د.ت).
- 162) ما بعد الإحيائية الإسلامية، محمد سليمان أبو رمان، مجلة العصر، الجمعة، 30 أبريل 2010 م.
- 163) المالكي، حسن بن فرحان، قراءة في كتب العقائد، مركز الدراسات التاريخية، عمان، 2000م.
- 164) مباحث في علوم القرآن، لمناع القطن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 22.
- 165) مجلة الإرشاد، العدد الخامس، السنة التاسعة، جمادى الأولى 1407هـ.
- 166) مجلة البيان، عدد 77، مقال: 3، التفسير الموضوعي/ د. عبد الحميد غانم.
- 167) مجلة المقتطف الإسلامي، مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر، العدد: 163، 13 كانون الثاني، 2012، 19 صفر، 1433هـ.
- 168) مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمشق، العدد: 11/1416هـ—1995م.
- 169) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة 1، دار الكتب العلمية، 1993م، بيروت، لبنان.
- 170) مختصر ابن كثير، محمد علي الصابوني، قصر البليدة، دار الشهاب 1990م.
- 171) مدخل لتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور، محمد بن إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع: الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧ م.
- 172) مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: د. محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية: مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، ٢٠٠٢ م.
- 173) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، الملا علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، سنة: 1422هـ/2002م.
- 174) المستدرک علی الصحیحین، النیسابوری، أبو عبد الله الحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، تحقيق عبد القادر عطا.

- 175) المشاكلة في اللغة العربية (صوتيا و صرفيا)، ماهر خضير هاشم، مجلة جامعة بابل، العلوم الانسانية، العدد: 3، المجلد: 18، سنة: 2010م.
- 176) مع الطب في القرآن، عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز، ط. الثانية، مؤسسة علوم القرآن، 1402هـ/1982م.
- 177) مع سورة الإخلاص، مقال: د. صلاح الخالدي، مجلة الفرقان، عدد37، شباط 2005م، عمّان.
- 178) معجزة القرآن، الشعراوي: ط الأولى، المختار الإسلامي، 1398هـ/1978م.
- 179) معجم الأدباء، ياقوت الحموي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ، 1991م.
- 180) المعجم الأوسط، الطبراني سليمان بن أحمد، دار الحرمين، القاهرة، 1415هـ، تحقيق طارق عوض الله وعبد المحسن إبراهيم.
- 181) معجم المؤلفين المعاصرين، محمد خير رمضان يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، [د.ط.]، 1425هـ، 2004م.
- 182) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، (دون طبعة)، (دون تاريخ).
- 183) معجم تمذيب اللغة لابن منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: رياض زكي قاسم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 2001م.
- 184) معجم تمذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى، تحقيق: د. رياض قاسم، دار المعرفة، الطبعة: 1، سنة: (1422هـ/2001م)، بيروت، لبنان.
- 185) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، دار الفكر، بيروت، 1979م.
- 186) المعرفة اللغوية وتفسير النص القرآني، د. زهير غازي زاهد، (د.ط.)، (د.ت).
- 187) مفاتيح الغيب، الرازي، محمد بن عمر بن الحسين: (القاهرة: دار الغد العربي، ط1، 1412هـ/1992م).
- 188) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق + الدار الشامية، بيروت، الطبعة الثالثة، 1423هـ، 2002م.
- 189) مفهوم الإعجاز القرآني، أحمد جمال العمري، دار المعارف مصر، 1984م.
- 190) مقاصد الشريعة الإسلامية لشيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية: قطر، [د.ط.]، 1425هـ، 2004م.
- 191) مقال جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد: 25، المحرم 1420هـ.
- 192) مقال للأستاذ: محمد بن عبدالعزيز الخضيرى، كلية المعلمين، قسم الدراسات القرآنية، بتاريخ: 2002/02/05م.

- 193) مقالات في علوم القرآن وأصول التفسير، د مساعد الطيار، دار المحدث، السعودية، ط1، 1425هـ.
- 194) مقدمة في التفسير الموضوعي، مقال: الحصري، الأربعاء، 11 فبراير 2009م، <http://www.islamiyyat.com>
- 195) من أسرار التذييل في آي من التزييل إعداد/ د. رمضان خميس زكي الغريب، جامعة الأزهر، 2004م.
- 196) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، الناشر: فهوة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، سنة: 2005م.
- 197) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير، الخولي أمين، (د.ط)، (د.ت)، القاهرة.
- 198) مناهل العرفان في علوم القرآن - محمد عبد العظيم الزرقاني: دار الفكر - بيروت، ط1، 1996م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
- 199) المنتخب من تفسير القرآن، محمد متولي الشعراوي، ط. دار العودة، بيروت.
- 200) منهج ابن القيم في التفسير، السنباطي، د. محمد أحمد، ط، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1973.
- 201) المنهج الحركي في ظلال القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار الشهاب، الجزائر، (د.ط)، (د.ت).
- 202) منهجية التعامل مع علوم الشريعة في ضوء التحديات المعاصرة، د عدنان زرزور، ضمن كتاب مؤتمر علوم الشريعة في الجامعات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، 1995م.
- 203) منهجية التعامل مع علوم الشريعة، عدنان زرزور، بحث مقدم لمؤتمر الشريعة، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام 1995م.
- 204) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، طبعة دار المعرفة، بيروت.
- 205) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، (د.ط)، 1405هـ، 1985م.
- 206) النبأ العظيم، عبد الله دراز، د. محمد عبد الله، ط3، دار القلم، الكويت 1988م.
- 207) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، صدر عن دار الشروق، سنة 1996م.
- 208) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، خرج آياته وأحاديثه: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1415هـ، 1995م.
- 209) النقد الفني لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله، مقال: عبد الله دراز، مجلة الأزهر، رئيس التحرير: محمد فريد وجدي بك، تحت إدارة ديوان الإدارة للأزهر، والمعاهد الدينية، بالقاهرة، مطبعة الأزهر 1950م.
- 210) نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب، خطبة 198، «في صفة القرآن» فقرة 28.
- 211) نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، ابن علي الشوكاني: دار الفكر للطباعة، بيروت، (د،ط).

212) الوحدة الفكرية في السورة القرآنية، مقال للأستاذ الدكتور: عبد الغني عوض الراجحي، مجلة منبر الإسلام، عدد رجب، سنة: 1394هـ/ يوليو 1974م.

213) الوحدة الموضوعية عند محمود شلتوت، رسالة ماجستير للطالب محي الدين بن عمار، إشراف منصور كافي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2008م، قسنطينة، الجزائر.

مراجع المواقع الإلكترونية:

- 1) الاتجاه التجزيئي والاتجاه الموضوعي في التفسير، مقال محمد باقر الصدر، نشر في: 15-فبراير-2008م .
<http://www.hodaalquran.com>
- 2) الاتجاهات المعاصرة في التفسير، محمد جابري، <http://www.dahsha.com/threads>
- 3) الاتجاهات المعاصرة في التفسير، مقال للدكتور: محمد عابد جابري، 2010/12/26م .
<http://www.tafsir.net/vb/tafsir24107>.
- 4) الإحيائية الإسلامية وفرضية الصدام مع الغرب، مجلة كتاب الغد،
<http://www.alghad.com/index.php/article/444298.html>، يوم 2011/07/25م.
- 5) الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية، مقال - د. أبو عائشة، <http://www.dahsha.com/>، 2007م.
- 6) التفسير الموضوعي إشكالية المفهوم والمنهج، مقال: للدكتور: سليمان الدفور، مجلة الوسط:
<http://www.wasatonline.com>.
- 7) التفسير العلمي للقرآن ومخاطره، مقال لظفر إسحاق الأنصاري، 04 مارس، 2007م، <http://www.islamonline.net>.
- 8) الخطاب الإسلامي والتحول الحضارية والاجتماعية إبراهيم غرايبة، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/>
- 9) الشبكة الإسلامية، مشاهير اللغة العربية، www.islamweb.net، تاريخ التحديث: 2006/02/28م .
- 10) العلامة الشيخ محمد عبده والاتجاه الاجتماعي في تفسير المنار، الدكتورة معصومة حسيني ميرصفي، ديسمبر 2011م،
<http://taghribnews.ir/vdcjyyea.ugetozf3fu.html>.
- 11) مفهوم الانسجام، مقال: السبت 29 أغسطس 2009م <http://elattaf.hooxs.com/t3761-topic>

فهرس الموضوعات:

-علاقة التجديد في علم التفسير بعلم المناسبات القرآنية-	
الباب الاول: التجديد في أصول التفسير وعلاقته بعلم المناسبات	
02.....	تمهيد.....
06.....	الفصل الأول: تحديد المفاهيم.....
07.....	تمهيد.....
08.....	المبحث الأول: تعريفات عامة.....
08.....	المطلب الأول: تعريف التجديد.....
10.....	المطلب الثاني: تعريف علم التفسير.....
13.....	المطلب الثالث: أصول التفسير، لغة/اصطلاحاً.....
16.....	المطلب الرابع: تعريف قواعد التفسير.....
19.....	المبحث الثاني: معنى التجديد في علم التفسير من خلال علم المناسبات ومقصوده.....
21.....	المطلب الأول: معنى التجديد في أصول التفسير وعلاقته بعلم المناسبات.....
25.....	المطلب الثاني: التجديد في العملية التفسيرية وعلاقته بعلم المناسبات.....
28.....	الفصل الثاني: ضوابط التجديد في أصول التفسير، ضوابطه، مراحلها، وعلاقته بالاجتهاد ومصادره.....
29.....	المبحث الأول: ضوابط التجديد في أصول التفسير.....
30.....	المطلب الأول: ضوابط التجديد في مناهج التفسير.....
34.....	المطلب الثاني: ضوابط التجديد في قواعد التفسير.....
38.....	المطلب الثالث: ضوابط التجديد في آليات وأدوات التفسير.....
44.....	المبحث الثاني: مراحل التجديد في أصول التفسير، ومصادره.....
44.....	المطلب الأول: عصر النبوة.....
47.....	المطلب الثاني: عصر الصحابة.....
49.....	المطلب الثالث: عهد التابعين وتابعيهم.....
55-51.....	المطلب الرابع: عصر التدوين، وعصر التجديد.....
57.....	المبحث الثالث: ارتباط التجديد بالاستنباط والاجتهاد والعوامل المساعدة على ذلك.....

58.....	المطلب الأول: مظاهر الاجتهاد في التفسير.
62.....	المطلب الثاني: حاجة الناس لرؤية جديدة.
64.....	المطلب الثالث: خصائص النص القرآني.
69.....	المطلب الرابع: بين المنهج الإحيائي والتوجه التجديدي.
77.....	الفصل الثالث: اتجاهات التفسير التي نحتاج إليها لبناء نظرة جديدة.
79.....	المبحث الأول: الاتجاه الاجتماعي الاصلاح.
85.....	المبحث الثاني: الاتجاه البياني لتفسير القرآن الكريم.
91.....	المبحث الثالث: الاتجاه العلمي لتفسير القرآن الكريم.
100.....	المبحث الرابع: التفسير الموضوعي لتفسير القرآن الكريم.
	<u>الباب الثاني: مفهوم الترتيب المصحفي وعلم المناسبات ، أهميته، ومصادره، وأقسامه، ورد بعض الشبه الواردة فيه</u>
105.....	الفصل الأول: تعريفات اصطلاحية هامة.
106.....	المبحث الأول: تعريف علم المناسبات.
106.....	المطلب الأول: المناسبات لغة.
106.....	المطلب الثاني: المناسبات اصطلاح.
107.....	المبحث الثاني: تحديد بعض المصطلحات.
107.....	المطلب الأول: السياق.
110.....	المطلب الثاني: أهمية السياق.
110.....	المطلب الثالث: الانسجام.
	<u>الفصل الثاني: أهمية وفائدة ومكانة علم المناسبات وأهم مصادره، وأقسامه.</u>
116.....	المبحث الأول: أهمية وفائد علم المناسبات، ومكانته وقلة الاهتمام به.
116.....	المطلب الأول: أهميته.
118.....	المطلب الثاني: فائدته.
120.....	المطلب الثالث: مكانته.
121.....	المطلب الرابع: قلة الاهتمام به.
123.....	المبحث الثاني: إهتمام المفسرين بعلم المناسبات، وأهم مصادره.
123.....	المطلب الأول: الاهتمام بعلم المناسبات.

129.....	المطلب الثاني: أهم قواعد علم المناسبات وطرق التوصل إلى معرفتها..
132.....	المطلب الثالث: أهم شيوخه ومؤلفاته..
136	المبحث الثالث: أقسام علم المناسبات (اجتهادات بعض المعاصرين والقدماء في إبراز أوجه التناسب) ...
136.....	المطلب الأول: اجتهادات بعض المعاصرين في تقسيم أوجه المناسبات.....
136.....	الفرع الأول: أحمد أبو زيد - الفرع الثاني: محمد يعقوب
138.....	المطلب الثاني: القدماء
139.....	الفرع الأول: البقاعي - الفرع الثاني: السيوطي
142	الفصل الثالث: الترتيب المصحفي ورد الشبه الواردة في ذلك
143	المبحث الأول: الترتيب التزوي للقرآن الكريم
175	المبحث الثاني: إعجاز الترتيب التزوي للقرآن الكريم
150	المبحث الثالث: اعجاز الترتيب المصحفي للقرآن الكريم
152	المبحث الرابع: شبه والرد عليها في الترتيب المصحفي
152.....	المطلب الأول: شبه في كلمات وآيات القرآن الكريم.....
157-152.....	الفرع الأول: في كلمات القرآن - الفرع الثاني: في آيات القرآن.....
158.....	المطلب الثاني: شبهة إعادة ترتيب المصحف حسب التزول.....
الباب الثالث: التجديد في العملية التفسيرية بتطبيق علم المناسبات القرآنية	
163	الفصل الأول التناسب في النظم
166	المبحث الأول: التناسب (الشكلي)
166.....	المطلب الأول: التناسب الصوتي الإيقاعي (أصوات الحروف).....
171-166	الفرع الأول: الإيقاع الصوتي للكلمة واستعمالها
171	المطلب الثاني: التناسب الصرفي (الحروف في الكلمات)
172.....	المطلب الثالث: التناسب اللفضي (المشاكله).....
الفرع الأول: تعريف المشاكل - الفرع الثاني: خصوصية استعمال اللفظة القرآنية - الفرع الثالث: تناسب	
179-173.....	الجنس - الفرع الرابع: التصوير البياني - الفرع الخامس: الجزاء والمآل.....
179	المبحث الثاني: التناسب المعنوي
179	تمهيد
180	المطلب الأول: التناسب التركيبي (الجمل في الآيات)

180	الفرع الأول: مظاهر جمال أسلوب القرآني
182	المطلب الثاني: تناسب الفاصلة القرآنية، (تشابه الأطراف).....
182	الفرع الأول: تعريف الفاصلة القرآنية
183	-الفرع الثاني: اعتناء القرآن بالفاصلة.....
184	- الفرع الثالث: ملخص الحروف التي وردت فاصلة في القرآن الكريم
185	- الفرع الرابع: نماذج عند المتأخرين في الفاصلة القرآنية.....
186	- الفرع الخامس: جهد الباحث في الكشف عن الفاصلة في سورة الحج.....
190	- الفرع السادس: بيان خدمة الفاصلة للمعاني القرآنية
191	المطلب الثالث: تناسب تذييل الآيات: تذييل سورة الحج، أمودجا
191	الفرع الأول: تعريف التذييل
192	- الفرع الثاني: أسباب وروده
192	- الفرع الثالث: أمثلة تطبيقية.....
193	- الفرع الرابع: بعض المصطلحات القريبة من التذييل:
193	1-ذكر الخاص بعد العام.....
193	-2- ذكر العام بعض الخاص.....
194	-3- توضيح الكلام المبهم بما يفسره.....
194	-4- التوشيع.....
194	-5-الإيغال
194	-6- الاحتراس
194	-7- التتميم.....
194	-8- التقريب.....
194	-9-الشمول والإحاطة
194	الفرع الخامس: أنواع مناسبات التذييل:
194	1- التناسب في ختم آيات القرآن بأسماء الله الحسنى.....
197	2-الفرق بين تذييل الآيات بـ: "والله خير بما تعملون" و"والله بما تعملون خير"
198	3-اللف والنشر (المرتب والمعكوس) (من علوم البديع).....
199	4- التقديم والتأخير.....
201	الفصل الثاني: التناسب (الموضوعي).....

202.....	المبحث الأول: تناسب الايات.....
202.....	المطلب الأول: تعريف الآية لغة واصطلاحا
203.....	الفرع الأول: لغة - الفرع الثاني: اصطلاحا
205.....	المطلب الثاني: ارتباط الآية بالآية وأقسامه
205.....	الفرع الأول: ما يظهر فيه الارتباط
205.....	1- الآية الأولى سببا للثانية
205.....	2- الأولى تفسيرا للثانية
206.....	3- الأولى تأكيداً للثانية 4- الثانية بدلا من الأولى
206.....	5- أن تكون معترضة (مثال اجتهادي).
207.....	الفرع الثاني: ما لا يظهر فيه الارتباط
208.....	1- الآية الثانية معطوفة على الأولى:
208.....	أ: الطباق
209.....	- ب: المقابلة
209.....	2- أن لا تكن معطوفة على الأولى:
209.....	- أ: النظير
209.....	- ب: الاستطراد
210.....	- ج: الانتقال
210.....	الفرع الثالث: حسن التخلص.
211.....	المبحث الثاني: تناسب المواضيع في السورة الواحدة.
211.....	مقدمة:
212.....	المطلب الأول: سورة الذاريات
214.....	المطلب الثاني: سورة الكهف
215.....	المبحث الثالث: تناسب موضوع السورة مع اسم السورة.....
215.....	المطلب الأول: أسماء توفيقية وأسماء توفيقية
215.....	الرأي الأول - الرأي الثاني
215.....	المطلب الثاني: تقسيم السور من جهة الاسم
215.....	الفرع الأول: سور لها اسما واحدا
215.....	- الفرع الثاني: سور لها عدة أسماء

216.....	–الفرع الثالث: تسمية عدة سور باسم واحد.
216.....	المطلب الثالث: أمثلة ونماذج
216	المثال الأول: سورة الكهف
217.....	– المثال الثاني: سورة الحجر
221.....	– المثال الثالث: سورة النساء
222.....	– المثال الرابع: سورة المائدة
223.....	مناسبة مطلع السورة للمقصد الذي سيقى له، (براعة الاستهلال)
223.....	المطلب الأول: تعريف براعة الاستهلال (حسن الابتداء)
224.....	المطلب الثاني: حسن المطالع والفواتح سورة براءة
	المبحث الرابع: تناسب بداية السورة ونهايتها، (المطلع والخاتمة-قلب العجز على الصدر)
226.....	المطلب الأول: المثال الأول: سورة البقرة
227.....	المطلب الثاني: المثال الثاني: سورة الحج
227.....	المطلب الثالث: المثال الثالث: سورة المؤمنون
229.....	الفصل الثالث: مناسبات عامة.
230.....	المبحث الأول: التناسب بين السور المتتابعات
230.....	المطلب الأول: بين السورتين المتتابعتين المختلفتين في الفواتح
233-230.....	المثال الأول: التوبة والأنفال – المثال الثاني: الفيل وقريش.
232.....	الفرع الأول: تناسب بداية السورة وبداية لاحقتها.
235.....	المثال: الهاكم وسورة العصر
235.....	الفرع الثاني: تناسب نهاية السورة وبداية لاحقتها.
238.....	المثال: البقرة وآل عمران
239.....	الفرع الثالث: تناسب نهاية السورة ونهاية لاحقتها.
236.....	المثال: سورة الأنبياء وسورة الحج.
240.....	المطلب الثاني: التناسب بين السور المتتابعة المشتركة في الفواتح
240.....	الفرع الأول: المشتركات في الفواتح
241.....	أولاً: أقسام السور المستفتحات بحروف التهجي
242.....	ثانياً: الأمثلة: 1-الحواميم
244-242.....	فضلها، عددها، وموضوعاتها

245.....	المبحث الثاني: التناسب بين السور المتباعدات
245.....	المطلب الأول: الاستفتاح بالثناء
247.....	المطلب الثاني: الاستفتاح بالنداء
249.....	المطلب الثالث: المستفتحات بالم والر
249.....	المطلب الرابع: المسبحات
253.....	المبحث الثالث: التناسب بين السور المكية والمدنية
253.....	تمهيد
254.....	المطلب الأول: فوائد معرفة المكي والمدني
255.....	المطلب الثاني: عدد السور المكية والمدنية وبعض المؤلفات فيه
257.....	المطلب الثالث: ضوابط وأغراض السور المكية
258.....	الفرع الأول: ضوابط السور المكية وخصائصها
259.....	1- ضوابط السور المكية 2- خصائص السور المكية: - خصائص أسلوبية - خصائص موضوعية
260.....	الفرع الثاني: ضوابط السور المدنية وخصائصها
260.....	1- ضوابط السور المدنية 2- خصائص السور المدنية: خصائص أسلوبية - خصائص موضوعية
262.....	الخاتمة
265.....	فهرس الآيات
272.....	المصادر والمراجع
286.....	فهرس المواضيع